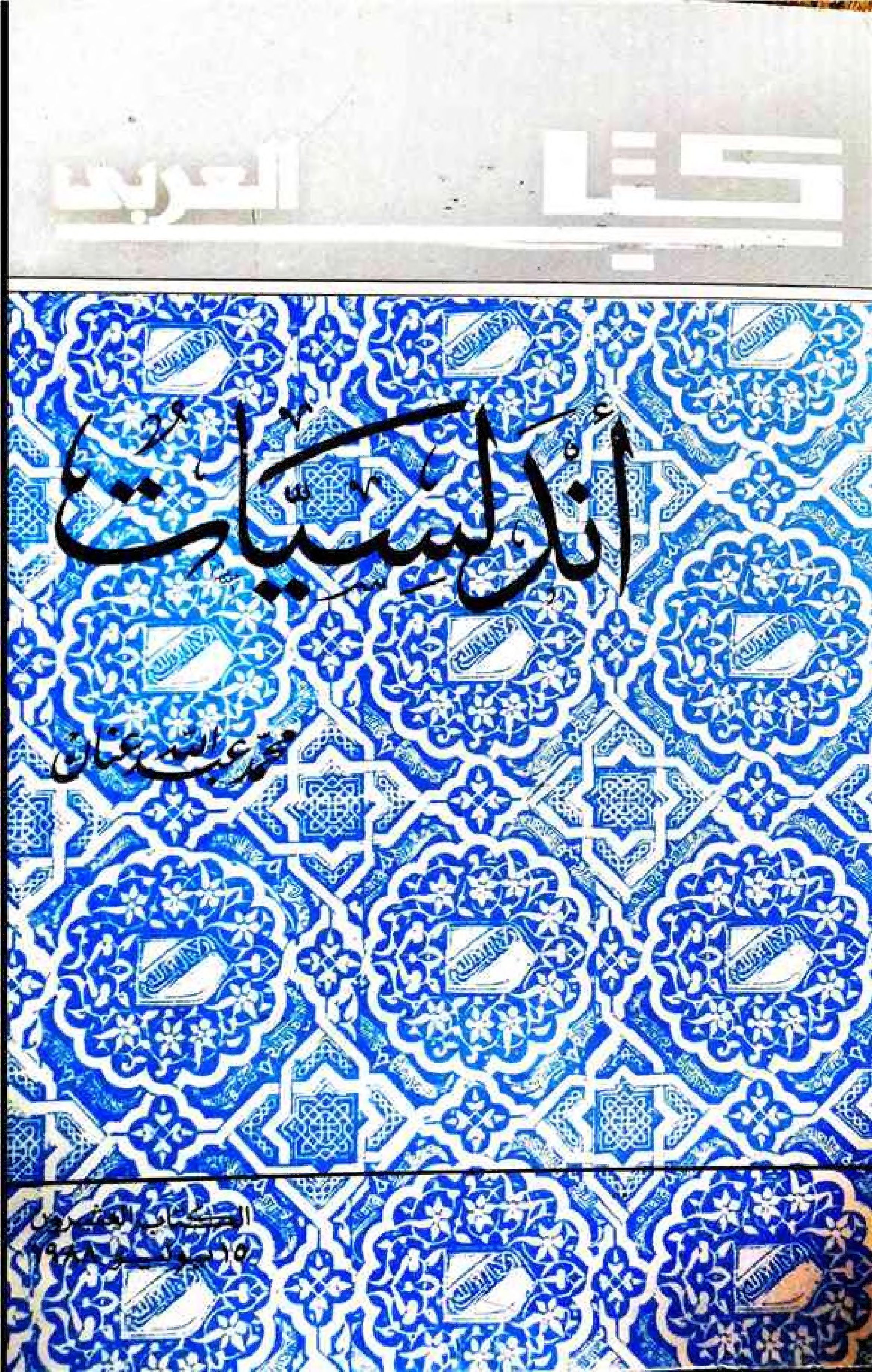

كتاب العربي
أندلسيات
محمد عبد الله عنان
الكتاب العشرون
١٥ يوليو ١٩٨٨


بسم الله الرحمن الرحيم



مرآة العقل العربي

رئيس التحرير
الدكتور محمد الرميحي

هذه السلسلة :

- تصدر عن مجلة العربي مؤقتا فصليا .
- تقدم مجموعة من المقالات والموضوعات لكاتب واحد أو موضوعا واحدا تتناوله عدة أقلام .

السعر الكويت ٢٥٠ فلساً ، العراق ٢٥٠ فلساً ، السعودية ٥ ريالات ، الأردن ٢٥٠ فلساً ، سوريا ١٠ ليرات ، لبنان ١٥ ليرة ، مصر ٣٠ قرشاً ، السودان ٢٥٠ مليماً ، المغرب ٥ دراهم ، قطر ٥ ريالات ، الامارات ٥ دراهم ، سلطنة عمان ½ ريال ، اليمن الشمالي ٣ ريالات يمنية (ش) ، اليمن الجنوبي ٣٠٠ فلس يمني (ج) ، ليبيا ٣٥٠ درهماً ، تونس ٤٠٠ مليم ، الجزائر ٤ دنانير ، البحرين ٣٠٠ فلس ، بريطانيا ١ جنيه ، فرنسا ١٥ فرنكاً ، أوروبا دولاران/ أو جنيه استرليني واحد ، أمريكا دولاران .

محمد عبد الله عنان



• كتاب العربي •
• سلسلة فصلية تصدرها مجلة العربي •

الكتاب العشرون
١٥ يوليو ١٩٨٨

الدكتور محمد الرميحي

الأندلس
بين عصر الازدهار وعصر الأفول !

عشرات القصص الحقيقية والمتخيلة تدور فى أذهان المعاصرين من العرب عن الأندلس ، قليل منها واضح ، وكثير منها غامض مشوب بأشكال من الحسرة والألم ، وقليلة تلك الأقلام التى قصدت - عن جد وعلمية - تقديم صورة حقيقية لما هو لنا وما هو علينا نحن العرب المسلمين ، فى تلك البلاد التى دخلها أجدادنا وامتدت ضيافتها لهم ثمانمائة سنة .

المواقف غير الموضوعية أو قل غير العلمية من تلك الفترة الطويلة تظهر باتجاهين ، الأول : موقف كثير من الدارسين العرب الذين يقفون على تاريخ تلك الفترة المتسمة بالحركة والتناقض



العربية بعنوان « فى الاستشراق الاسبانى » (١)

ولعلنا نلحظ أن هناك موقفا متعصبا من قبل كثير من الكتاب الغربيين والاسبان تجاه الحضارة العربية ـ الاسبانية ، وتجاه الاسلام وإنجازات المسلمين فى أرض الأندلس ، هذا الموقف المتعصب امتد قرونا طويلة حتى أصبحت كلمة الشرقى من الصفات الجارحة فى الثقافة الشعبية لكثير من مجتمعات الغرب الأوربى .

وتأصلت وترسخت تلك الصورة على مر القرون ، واستفاد منها ـ ومازال يستفيد ـ أعداء العرب وأعداء الاسلام .

وتذكرنا هذه الحالة بحالتنا مع الدولة العثمانية . فالحضور العربى الاسلامى فى الوعى الشعبى الاسبانى اليوم كالحضور العثمانى فى الوعى الشعبى العربى ، غامض ومعاد إلى حد ما . والنظرة إلى

---

(١) عنوان الكتاب الأصلى « الحوليات الاسلامية والساراثين » والساراثين هو الاسم الذى كان الاسبان والغربيون بعامة يطلقونه على المحارب وكذلك على الفرد المسلم فى الغرب .

وكانت التسمية تطلق عند قدامى الاغريق على من يأتى من العربية السعيدة (اليمن) .

ترجم الكتاب كاظم جواد ، ونشرته المؤسسة العربية للنشر .

أما بخصوص ما نشره الكتاب العرب ممن ذكرنا أسماءهم فانظر مجلة عالم الفكر ـ الكويت ـ عدد خريف ١٩٨٤ .

العرب المسلمين تشوبها عنصريتان :

- عنصرية ضد العرب باعتبارهم شعبا غير أوربى .

- وعنصرية أخرى باعتبارهم شعبا غازيا ، ونتائج ذلك يمكن رصدها بوضوح .

إذ عندما نتجول اليوم فى قرطبة ، أو غرناطة ، أو اشبيلية ، أو أى مكان يحمل عبق الحضارة العربية الاسلامية وإنجازاتها فى اسبانيا ، فإننا سوف نجد أن الكتيبات التى توزع بقرب هذه المساجد والكنائس والقصور تمر على فترة التاريخ العربى بأسطر قليلة لا تذكر ، وكأنها لم تكن ثمانية قرون طوال عراض . !

وفوق ذلك فقد وقع كثيرون ممن زاروا هذه الأماكن فى فخ المعلومات المضللة ، وقد كان لى شخصيا تجربة فى ذلك ، فقد ذكر لى أحد الاخوة العرب الذين زاروا المسجد الكبير فى قرطبة أن هذا المسجد - كما قالت له دليلة السياحة ولكثيرين غيره - ليس باتجاه القبلة ، فاقتنع بذلك ، بل وأخذ يدافع عن قناعته تلك ، مع أنه شخص ليس بالجاهل !

إلى هذه الدرجة لا نفرق بين التعصب وبين عدم الفهم !

بيت القصيد أنه بين دخول العرب المسلمين إلى الأندلس والاختلاط بالشعوب الأوربية وبين خروجهم عنها قسرا ، بين هاتين الفترتين ، ازدهرت الفلسفة ، ونما العلم والثقافة ، وتطورت

حضارة ، وأصبحت هذه الحضارة العظيمة تراثا لنا نحن العرب المسلمين وللاسبان أيضا .

فهى حضارة مشتركة آن لنا أن نعيد فهمها من جديد ، وأن نبنى على الايجابي والمشترك فيها .

الحضارة العربية فى الأندلس حضارة مشتركة ، انصهرت فيها الأجناس بالحرب أو الجوار - كما يقول أحمد مختار العبادى - وتكون المجتمع (الاسبانى العربى) الذى لا نستطيع أن نطلق عليه إحدى هاتين التسميتين فقط .

لكن الحضارة الاندلسية الاسبانية لها مكونات تغلب عليها المؤثرات الشرقية القادمة من الشام والحجاز والعراق والمغرب منصهرة فى قالب إسلامى إنسانى حضارى .

ولأن بلاد الأندلس تميزت بوضع جغرافى وطبيعى قريب من الشعوب الأوربية ، وتحتك بشكل مباشر بالمسيحية فى الشمال ، لذلك فإن الأعراق العربية القادمة من الجنوب اختلطت بالأعراق المسالمة [١] (من أسلم من أهل البلاد) .

نتج عن ذلك أجيال جديدة من المولدين . هذا التفاعل الانسانى أفرز نتاجا حضاريا غير مسبوق ، مازالت آثاره ظاهرة

---

[١] جمع مسالم وهم أهل البلاد الأصليون الذين دخلوا الاسلام . وكانوا يطلقون على أهل البلاد ممن بقى على مسيحيته (بالعجم) ، أى أهل الذمة .

للعيان حتى اليوم .

فازدهرت الثقافة والغناء والموسيقا . ومعاهد العلم والتعليم . هذه الفنون الرفيعة رعاها أولو الأمر ، بجانب ازدهار الصناعات ونحت الأخشاب وصنع الفخار والحرير المزخرف . وتألق الفن المعمارى الأندلسى البديع ، وتسابق أهل اليسار من أبناء الأندلس فى بناء الدور والقصور ، وانشأ الخلفاء المدن والمتنزهات . وقد حملت لنا كتب الأخبار أوصافا دقيقة لهذه المبانى والقصور . بعضها مازالت آثاره باقية ، وبعضها اندمج أو تحول إلى كنائس بعد خروج العرب المسلمين ، وأخرى لم يبق لنا منها غير الوصف فى بطون الكتب .

لقد أصبح مؤكدا علميا اليوم أن كثيرا من الخرائط والمعلومات الجغرافية وعلوم البحر قد دونها الاندلسيون المسلمون . لقد كانت تلك الحقائق الجغرافية هى المادة الأولية التى استفاد منها البحارة المغامرون الاسبان بعد ذلك ، ولعل معلومات الجغرافى الفذ ابى عبيد عبدالله البكرى القرطبى (توفي سنة ١٠٩٤م) هى الأسس التى بنى عليها كولومبس رحلاته واكتشافاته،(وهو من هو فى التاريخ الجغرافي) .

وما يقال فى الجغرافيا والفلك يقال عن الفلسفة والادارة والتنظيم والاجتماع ، والزراعة والبناء . انها حضارة متكاملة فيها تزاوج رائع بين سماحة الاسلام ، وبيئة غنية بمصادرها الطبيعية.تلك

هى الاندلس وذلك هـو درسها البليـغ .. فى الوحـدة قوة ، وفى التفرق ضعف . وبعد أن كان زمن الوحدة هو زمن العلم والفلسفة والتسامح ، اصبح التعصب وضيق الافق وانتشار الخرافة هو زمن الضعف والفرقة !

وعلينا اليوم ان نعلم بأن تاريخ الحضارة الاندلسية الـرائع والمجيد بانجازاته العلمية والثقافيـة والعمرانيـة ما هـو الا تاريـخ مشترك اى تاريخ انسانى . هذا ما يقدمه لنا هذا الكتاب الذى قضى مؤلفه الاستاذ محمد عبدالله عنان ردحا من الزمن وهو يؤلف ويتابع بدقة الباحث العالم صفحات من هذا التاريخ المجيد نقدم بعضها الى اجيالنا الجديدة عظة وعبرة .

وصدرت للكاتب عدة مؤلفات فى هذا المجال الذى اعطاه من عمره وجهده الكثير (ولد سنة ١٨٩٦ ـ وتوفى سنة ١٩٨٦م) ،

وقد قسمنا الكتاب الى اربعة فصول هى : ـ

الاول : شخصيات وادوار .

الثانى : قبل السقوط .

الثالث : بعد السقوط .

الرابع : انجازات حضارية .

نأمل ان يكون الكتاب عونا للقارى فى سياحته الفكرية .□





الفصل الأول

شخصيات وأدوار



الغافِقيّ أعظمُ قائدٍ عَربيّ عَرَفهُ الغرب *

منذ أكثر من ألف ومائتي عام ، في بقعة مجهولة خضراء من أرض فرنسا ، على مقربة من نهر اللوار ، جنوبي مدينة تور ، يرقد أمير الاندلس ، عبد الرحمن الغافقي ، في السهل الذي تعرفه الرواية الاسلامية « ببلاط الشهداء » .

كان عبد الرحمن ، أحد هؤلاء الرجال الأفذاذ الذين تزعّموا مصاير الاسلام في عهده الأول ، في بداية القرن الثاني للهجرة ، حينما سادت دعوة الاسلام من السند شرقا الى المحيط الأطلنطي غربا ، وحينما بدأت الجيوش العربية ، بعد أن افتتحت شبه الجزيرة الاسبانية ، تعبر جبال البرنيه الى تلك الأراضي والممالك الشمالية المجهولة ، تريد أن تحمل اليها رسالة الاسلام والعربية .

ومع ذلك ، فان مما يلفت النظر أن عبد الرحمن الغافقي هو من أعظم قادة العروبة والاسلام ، بل هو أعظم جندي عربي عرفه الغرب ، وأعظم فاتح

(*) ...عربي العدد السابع يونيو ـ حزيران ١٩٥٩ م .

مسلم وصل الى أقصى ما وصلت اليه الفتوحات العربية في قلب القارة الأوروبية .

الرواية العربية ، لا تحدثنا كثيرا عن سيرة عبد الرحمن ، ولا سيما عن نشأته الاولى ، فلسنا نعرف من هذه السيرة سوى القليل . وكل ما نعرفه عن ذلك هو أن عبد الرحمن ينتمي الى بطن من أعرق البطون العربية ، ويعرف بالعكّي لأنه ينتسب الى عكّ بن عدنان ، وانه من التابعين ، ويروى عن الكثير منهم ، وتشيد الرواية فوق ذلك بعلمه ، وعدله وورعه وتقواه ، ثم لا نعرف بعد ذلك شيئا عن سيرته الاولى !

ولكنا نراه فجأة على مسرح الحوادث في الأندلس ، شخصية من أعظم شخصيات الفتح . . نراه قائدا وأميرا للاندلس ، ونراه زعيما مصلحا يُخمد الفتنة ، ويعمل على توحيد الصفوف وجمع كلمة القبائل العربية التي اجتمعت في شبه الجزيرة الاسبانية ثم دب الشقاق فيما بينها ، ولا سيما بين مُضر وحِمْير ، وقد كان خلافهما فيما بعد من أخطر العوامل التي مهّدت الى ضعف الدولة الاسلامية في الاندلس .

ثم نراه غازيا ، يقود أعظم وأخطر حملة اسلامية سُيِّرت لفتح فرنسا ، وغزو الأمم الشمالية .

عبد الرحمن الغافقي في سطور

● أمير عربي ولاه الخليفة هشام بن عبد الملك على الاندلس عام ١١٣ هـ ([illegible] م) ، ويعتبر أعظم الولاة في عصر الخلافة الأموية . اشتهر في التاريخ بغزو فرنسا بعد أن ارتد المسلمون عن مدينة (تولوز) . عبر عبد الرحمن جبال (البرانس) ودخل أرض فرنسا عام ٧٣٢ م فانتصر على جيوش الدوق (أكوتين) على نهر الرون . ثم اتجه نحو (بوردو) فاستولى عليها ثم على اقليم برجونيا ، وخفق علمه على مدينة (ليون) . تحالف الأمراء الفرنسيون ضده ، والتقوا به عند مدينة تور (بلاط الشهداء) على نهر اللوار وفيها قتل عبد الرحمن ، مما أدى الى ارتداد العرب بعد

ولايته الأولى على الأندلس

برزت شخصية عبد الرحمن للمرة الأولى ، على اثر هزيمة المسلمين أمام قوات الفرنج في موقعة تولوشة (تولوز) الشهيرة ، ومقتل قائدهم السمح بن مالك أمير الأندلس ، وذلك في أواخر سنة ١٠٢ هـ (٧٢١) . وكان المسلمون في ذلك الوقت ، قد عبروا جبال البرنيه غير مرة ، وافتتحوا ولايات فرنسا الجنوبية واحتلوا ثغر أربونة ، وعدة مدن هامة أخرى من ولاية سبتمانيا . وكان عبد الرحمن من قواد الجيش الفاتح فاختاره الزعماء على أثر النكبة للقيادة العليا ، ثم اختارته « الجماعة » بعد ذلك واليا للاندلس ، فلبث في منصبه فترة وجيزة ، حتى قدم الحاكم الجديد..

ولايته الثانية

وتوالى على الأندلس خلال العشرة أعوام التالية عدة ولاة ، اضطربت خلالها شئون الأندلس ، وظهرت بوادر الشقاق بين القبائل العربية ، واسترد الفرنج في الشمال معظم القواعد المفتوحة ، ففي تلك الآونة التي خُشِيَ فيها على مصير هذا القطر الجديد من أقطار الخلافة ـ اسبانيا ـ عُيِّنَ والى افريقية التي كانت

انتصارهم . كانت هذه الواقعة الحد الذي وصل اليه التوسع العربي في شمال أوروبا . توفي عام ٧٣٢ م .

وصلت الفتوحات الاسلامية بقيادة عبد الرحمن الغافقي ، الى أقصى ما وصلت اليه في القارة الأوروبية . فتدفقت الغزوات الاسلامية الى ما وراء جبال « البرنيه » ودخلت الجيوش العربية فرنسا في ربيع سنة ٧٣٢ م ، واتجهت شرقا نحو « الرون » واستولت على « ليون » و « بيزانصون » ، ووصلت الى « صانص » على مسافة مائة ميل من باريس ، وبذلك افتتح الغافقي نصف فرنسا الجنوبي كله من الشرق الى الغرب في بضعة أشهر !

تتبعها الاندلس يومئذ من الناحية الادارية عبد الرحمن الغافقي ليكون أميرا للاندلس ، وذلك في سنة ١١٣ هـ (٧٣١ م) فكانت ولايته الثانية ، وصادق الخليفة هشام بن عبد الملك على هذا التعيين ، لما كان يعلمه من الخلال والكفايات العالية التي يتمتع بها الوالي الجديد .

وهنا تسطع شخصية عبد الرحمن الغافقي ، وتبدو في أروع صورها . فقد استطاع في نحو عام فقط أن يتمتع بثقة جميع الزعماء ، وأن يقضي على بذور الشقاق التي انتشرت في كل ناحية ، وأن يجمع كلمة القبائل والزعامات المتنافرة المتخاصمة ، وأن يقمع الفتن والمظالم ، وأن يعالج ما اختل من شئون القطر الجديد ، فساد الأمن والنظام ، واستبشر الناس خيرا بالعهد الجديد .

يمهد لغزو فرنسا مرة ثانية

لكن عبد الرحمن لم ينس المهمة الكبرى التي من أجلها تدفق سيل الغزوات الاسلامية الى ما وراء جبال البرنيه ، مهمة غزو الأمم الشمالية وحمل رسالة الاسلام اليها ، ولم ينس أن ما غنمه الاسلام من أراضي الفرنج قد أضحى في خطر السقوط ، وكان يتوق بالأخص الى الانتقام لغزوة تولوشة ، ومقتل السمح بن مالك ، ودعم هيبة المسلمين في تلك الأنحاء . ومن ثم فقد عُني باصلاح الجيش وتنظيمه أعظم عناية ، فحشد الصفوف من مختلف الولايات ، وانشأ فرقا مختارة من الفرسان العرب والبربر وجمع العتاد والأقوات الضخمة ، وأخذ يرقب الفرصة الملائمة للسير الى الشمال .

مؤامرة خائنة

ولكن الحوادث عجلت بهذا السير قبل أن تتم أهباته ، ذلك أن حاكم ولاية البرنيه الغربية المسلم ، وهو زعيم من البربر يدعى منوزا ، او مونز ،

كانت تحدوه أطماع خفية ، وكان يرقب الفرص للخروج والثورة ، فاتصل سرا بالدوق أودو ، أمير ولاية أكوتين الفرنجية ، وعقد معه محالفة سرية ، وقدم الدوق اليه ابنته الحسناء لامبجيا عروسا له ، وكانت توصف بأنها أجمل امرأة في عصرها ، توطيدا لهذا التحالف ، وكان أودو ، يؤمل بذلك أن يحدث ثغرة في صفوف المسلمين ، وأن يحصن نفسه ضد غزواتهم .

ووقف عبد الرحمن على مشاريع منوزا وحركاته ، فأرسل لتأديبه حملة قوية ، وتحصن الزعيم الثائر في عاصمة اقليمه « مدينة الباب » التي تقع على منحدر جبال البرنيه من الغرب ، ولكن جند عبد الرحمن دهمته ففر الى شعب الجبال الداخلية ، وطورد من صخرة الى صخرة حتى أخذ وقتل مدافعا عن نفسه ، وتحطمت أطماعه ومشاريعه ، وأسرت زوجته الحسناء لامبجيا ، وأرسلت الى بلاط دمشق ، فاستقبلها الخليفة (هشام بن عبد الملك) بحفاوة واكرام ، وزوجت هناك من أمير مسلم لا تذكر لنا الرواية اسمه .

ولما رأى الدوق أودو مقتل حليفه المسلم وانهيار مشاريعه على هذا النحو أخذ يتأهب للدفاع عن مملكته ، وبدأ الفرنج والقوط مهاجمة القواعد الاسلامية وشعر عبد الرحمن بفداحة الخطر الذي يهدد الولايات الشمالية ويهدد الاندلس نفسها اذا ما تمادى الفرنج في عدوانهم ، ولم ير بدا من السير الى الشمال قبل أن يستكمل كل أهبته ، فسار في أوائل سنة ١١٦ هـ (٧٣٢ م) في جيش ضخم من العرب والبربر ، وهو أعظم جيش سيره المسلمون الى غاليس (فرنسا) ، واخترق جبال البرنيه ، ودخل فرنسا في ربيع سنة ٧٣٢ م ، وزحف توا على امارة اكوتين ، جنوب غربي فرنسا ، وهزم صاحبها الدوق هزيمة فادحة ، واستولى على عاصمته بردال (بوردو) وعلى سائر مملكته ، وسار الجيش الاسلامي بعد ذلك شرقا نحو الرون ، واخترق ولاية برجونيه واستولى على ليون وبيزانصون ، ووصلت كتائبه الى « صانص » التي تبعد عن باريس نحو مائة ميل فقط ، ثم تحول عبد الرحمن بعد ذلك غربا الى ضفاف اللوار ، ليتم

فتح هذه المنطقة ، ثم يقصد الى عاصمة الفرنج . وتم هذا السير المظفر . وافتتح نصف فرنسا الجنوبي كله من الشرق الى الغرب في بضعة أشهر فقط .

جيوش من الفرنجة جرارة

انتهى عبد الرحمن في زحفه الى السهل الواقع على ضفاف اللوار جنوبي مدينة تور ، وكانت مملكة الفرنج قد اهتزت من اقصاها لهذا السيل المتدفق من الغزو الداهم ، وحشد زعماؤها كل جموعهم ، من مختلف العشائر الفرنجية والجرمانية ، فيما بين نهر الرين والمحيط ، واجتمع من ذلك جيش ضخم ، أسندت قيادته الى زعيم الفرنج الأكبر كارل مارتل ، وسار زعيم الفرنجة في جيشه الجرار جنوبا لملاقاة العرب ، في حمى الهضاب والربى ، وأشرف على نهر اللوار ،في نوع من المفاجأة ، وأخطأت الطلائع الاسلامية في تقدير عدده وعدته ، فلما أراد عبد الرحمن أن يقتحم اللوار لملاقاة العدو فاجأه كارل مارتل بجموعه الجرارة . والفى عبد الرحمن جيش الفرنج يفوقه في الكثرة فارتد من ضفاف النهر ، الى السهل الواقع جنوبي تور . وعبر كارل مارتل النهر ، وعسكر بجيشه الى يسار الجيش الاسلامي بمسافة قصيرة .

وكان الجيش الاسلامي قد أرهقه الغزو المستمر ، وأثقلته الغنائم الوافرة التي استولى عليها في زحفه الطويل المظفر ، وغدت شغلا شاغلا للجند ، يحرصون عليها كل الحرص ، ولا يقبلون في شأنها أية تضحية . وكان عبد الرحمن يرقب هذه الحالة بجزع . ولكنه مع ذلك تأهب لخوض المعركة الكبرى ، ووقع القتال بين الجيشين العظيمين ، بين العرب والفرنج ، مدى أيام ، ووقعت المعركة الحاسمة في اليوم التاسع . وكانت معركة هائلة ، ولاحت طوالع النصر للمسلمين في البداية . ولكن سهما أصاب عبد الرحمن ، وهو يخوض لظى المعمعة متنقلا بين الصفوف ، فسقط عن جواده قتيلا ، فدب

الذعر والاضطراب في الجيش الاسلامي ، واشتدت عليه وطأة الفرنج ، وكثر القتل في صفوفه ، وسقط عدد من قواده وزعمائه ولم ينقذه سوى دخول الليل ، وكان ذلك في اليوم الحادي والعشرين من اكتوبر سنة ٧٣٢ م (أوائل رمضان سنة ١١٤ من الهجرة) .

المسلمون يقررون الانسحاب

هنا ، وفي تلك الآونة الدقيقة ، قرر القواد المسلمون الانسحاب على الأثر ، وارتدت جموع المسلمين بسرعة تحت جنح الظلام الى الجنوب صوب قواعدها في سبتمانيا ، تاركة عتادها وأسلابها غنما للعدو . ولم يفطن الفرنج الى تلك الحركة إلا في فجر اليوم التالي ، فاكتفوا بانسحاب العدو ، ولم يجرءوا على مطاردته وارتدوا من جانبهم الى الشمال .

وهكذا سقط عبد الرحمن الغافقي ، في أعظم معركة وقعت بين العرب والفرنج ، وهكذا كانت الخاتمة المؤلمة لأعظم محاولة بذلها الفاتحون العرب لحمل رسالة الاسلام الى الأمم الأوروبية .

كانت موقعة تور ، أو موقعة بلاط الشهداء ، كما تسميها الرواية الاسلامية لكثرة ما استشهد فيها من أكابر المسلمين ، موقعة الحسم بين الشرق والغرب ، وبين الاسلام والنصرانية ، ، وكانت آخر محاولة من نوعها لاقتحام الأمم الشمالية ، وبالرغم من أن الفاتحين العرب ، عادوا بعد ذلك الى عبور جبال البرنيه وغزو فرنسا غير مرة ، فان هذه الغزوات ، لم تكن سوى غزوات عابرة ، ولم تكن تحمل شيئا من المثل العظيمة التي كان يحملها عبد الرحمن الغافقي في غزوته الكبرى .

ويجمع النقد الغربي على أن انتصار كارل مارتل ، وارتداد العرب في

موقعة بلاط الشهداء ، كان عنوانا لانقاذ الغرب وخلاصه من الوقوع تحت تأثير الاسلام ، وانقاذ النصرانية وبقائها . وليس النقد الغربي مبالغا ولا مغرقا في هذا التقدير ، ولو انتصر العرب في « بلاط الشهداء » لاستمر سيل الغزو الاسلامي في طريقه ، ولكان مرجحا أن تغدو أمم الشمال ، أمما اسلامية عربية ، كما غدت اسبانيا المسلمة فيما بعد ، وأن تقوم بها خلال العصور الوسطى التي كانت تغمرها بظلماتها ، حضارة عربية اسلامية زاهرة كتلك التي ازدهرت في وديان الاندلس .



عبّاس بن فرناس

يحفل تاريخ العلوم الاسلامية ، بمختلف العبقريات التى استطاعت خلال ظلمات العصور الوسطى ، أن تحقق أروع الغزوات فى ميادين العلوم المحضة ، كالطب والكيمياء والرياضيات والفلك والنبات والحيوان وغيرها . وان تمهد باكتشافاتها العظيمة الطريق للأجيال اللاحقة من علماء العصر الحديث .

فيلسوف متعدد الجوانب

وربما كان ابن فرناس القرطبى ، أعجب هذه العبقريات العلمية الاسلامية . ذلك أنه لم يقتصر على معالجة البحوث العلمية التى كانت سائدة فى عصره ، ولكنه جنح الى أنواع فريدة ، لم يفكر فيها انسان من قبله ، وامتاز بصفات عديدة ، قلما تجتمع فى شخصية علمية واحدة أخرى . فهو فيلسوف ، وعالم رياضى ، وطبيعى ، وكيمائى ، وفلكى من الطراز الأول ، وهو موسيقى بارع ، وأديب وشاعر فذ ، وهو فوق كل ذلك أول عالم حاول أن يغزو الجو وأن يخترع أداة للطيران .

العربي العدد ٢٢ سبتمبر - أيلول ١٩٦٠ م .

نشأته

هو أبو القاسم عباس بن فرناس بن ورداس . وأصله من كورة تاكرنا (رندة) بجنوبى الاندلس ، فى شرقىّ المثلث الاسبانى ، وينتمى الى أسرة من البربر ، الى ذلك الجنس الذكى النابه الذى اعتنق الاسلام والعروبة فى عصر مبكر ، واضطلع بأعظم قسط فى فتح الاندلس ، وفى الغزوات الإسلامية الكبرى فيما وراء جبال البرنية (برانس) ، ثم بعد ذلك فى حماية الاندلس وامتداد حياتها عصورا ، وساهم أخيرا بقسط بارز فى تراثنا الحضارى العظيم .

نشأ ابن فرناس بقرطبة فى أواخر القرن الثانى من الهجرة (أواخر القرن الثامن الميلادى) ودرس بها ، وبرع منذ شبابه فى الفلسفة والكيمياء والطبيعة والفلك ، وبرع فى نفس الوقت فى الشعر والأدب والموسيقا ، وظهر منذ أيام الحَكم بن هشام أمير الأندلس المتوفى سنة ٢٠٦هـ (٨٢٢م) . وعاصر من بعده ولَده عبدالرحمن بن الحَكم ، ثم حفيدَه محمد بن عبدالرحمن ، وحَظِى لدى هؤلاء الأمراء الثلاثة واتحفهم بمدائحه ، وأدهشهم بمخترعاته ، وتُوفىَ فى أواخر أيام الامير محمد وقد أربى على الثمانين .

ابن فرناس العالم

عُرف ابن فرناس ببراعته فى الحكمة والشعر والأدب ، وانتظم بين أعلام العلماء والشعراء الذين يضمهم بلاط الحَكم بن هشام . بيد أنه ما لبث أن برع فى ميدان آخر ، هو ميدان العلوم البحتة ، وهو الميدان الحقيقى الذى تفتحت فيه مواهبه المدهشة . ذلك أنه انكب على معالجة البحوث الطبيعية والكيميائية والفلكية ، ولم يقتصر فى معالجتها-مثل كثير من أسلافه ـ على النواحى النظرية والتجريبية ، لكنه اندفع الى ميدانها العملى ، وانتهت تجاربه فى ميدان الكيمياء الصناعية ، الى اختراع صنع الزجاج من الرمال ، فكان لظفره بهذا الاكتشاف

دوى عظيم . وكانت له فيها بعد نتائج عملية باهرة ، وطارت شهرته فى سائر أنحاء الاندلس .

ثم عكف ابن فرناس فى نفس الوقت على الدراسات والبحوث الرياضية والفلكية ، وانتهى فيها الى اختراع عدد من الآلات الفلكية الدقيقة ، وقد ذكر لنا منها مؤرخ العصر آلتين ، يصفها لنا على النحو الآتى :

الأولى واسمها «ذات الحلق» وقد رفعها ابن فرناس الى الأمير عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦ - ٢٣٨هـ) مرفقة بهذه الأبيات التى تعرب عن وظيفتها وفائدتها :

قد تم ما حَملتنى من آلةٍ ... أعيا الفلاسفةَ الجهابذَ دُونى
لو كان بَطلَيموس أُلهِمَ صنعةً ... لم يشتغل بجداول القانون
فاذا رأته الشمس فى آفاقها ... بعثتْ اليه بنورها الموزون
ومنازل القمر التى حُجبت معا ... دون العيون بكل طالع حين
يبدون فيها بالنهار كما بدت ... بالليل فى ظلماتهن الجُونِ

والثانية هى آلة لقياس الزمن سماها ابن فرناس «بالميقاتة» ورفعها الى الامير محمد بن عبدالرحمن (٢٣٨ - ٢٧٣هـ) وقد نقش فيها الأبيات الآتية :

ألا إننى للدين خيرُ أداةِ ... اذا غاب عنكم وقت كل صلاةِ
ولم تُرَ شمس بالنهار ولم تُنِرِ ... كواكب ليلٍ حالكِ الظلمات
بيُمن امام المسلمين محمد ... تجلَّتْ عن الأوقات كل صلاة

وبرع ابن فرناس فى الموسيقا وصياغة الألحان ، وفى الغناء ، وكان الأمير عبدالرحمن بن محمد يستدعيه الى مجالس أنسه ، فكان يقدم اليه أناشيد من رقيق نظمه ، ويغنيها بحضرته . وقد أورد لنا المؤرخ من ذلك مقطوعتين ، الاولى مطلعها :

الجهل ليلٌ ليس فيه نور ... والعلم فجرٌ نوره مشهور

والثانية قطعة من أربعة أبيات كتبها ابن فرناس بالذهب على تفاحة

محجولة رفع بها الى الأمير جاء فيها :

محمدُ أكرمُ مستخلَفٍ من خلفاء الله في الارض

وقال المؤرخ «فاستملح الأمير التفاحة ، واستحسن الأبيات ، فأمر أن يُغنَى بها » ، وأمر لعباس بأربعمائة دينار وقال : «لو زادها لزدناه » .

ابن فرناس يحاول أن يطير

على أن أشهر ما اقترن باسم ابن فرناس ، هى محاولته اختراع آلة يستطيع الانسان ان يطير بها فى الجو . وقد انتهى بالفعل الى القيام بتجربته الخطيرة على مشهد من اهل قرطبة «فكسا نفسه الريش ، ومد لنفسه جناحين على وزن وتقدير قدره ، ثم صعد الى ربوة عالية بناحية الرصافة ، واندفع منها فى الهواء طائرا ، فحلَّق فيه حتى وقع فى مكان على مسافة بعيدة » .

واشتهر ابن فرناس بهذه التجربة المدهشة التى ملأت مشاهديه من أهل قرطبة رعبا وإعجابا ، وطار ذكره فى كل مكان ، حتى قال فيه مؤمن بن سعيد أكبر شعراء العصر :

يَضُمُّ على العنقاء فى طيرانها اذا ما كسى جثمانه ريشُ قَشْعَم

ومن الغريب ان ابن فرناس ، على تفرده فى ميادين الاختراعات العلمية على هذا النحو المدهش ، كان يحتل بين شعراء العصر مكانة ممتازة . وكان الى جانب معاصريه الشاعر ابن الكبير بن سعيد بن مؤمن . . وابو عمر بن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، من خواص شعراء الأمير محمد ، وله فى مديح الأمير ، وفى الاشادة بحوادث العصر قصائد رنانة ، ومنها قصيدته الشهيرة فى موقعة وادى سليط التى انتصر فيها الأمير محمد ، على متمردي طليطلة وحلفائهم النصارى الاسبان (٢٤٠هـ ـ ٨٥٤م) . وكان من شهودها الى جانب الأمير وهذا مطلعها :

ومؤتلف الأصوات مختلف الزحف لهوم الفلا عبل القبائل ملتف

اذا أومضت فيه الصوارم خلتها بروقا تزوى فى الغمام وتستخفى

اتهامه بالمروق والزندقة

على أن أعجب صفحة فى حياة ابن فرناس ، واكثرها ايلاما ، هى محاكمته الشهيرة بتهمة الزندقة والكفر . فقد اثار هذا العلامة الفذ ببحوثه واختراعاته العلمية الفريدة ، حسد الفقهاء وشكوكهم ، كما اثارت بحوثه الكيميائية والفلكية بداره بالربض الغربي من قرطبة ، ثم محاولته للطيران ، ظنون الكافة ودهشتهم ، واعتقادهم ان الرجل مارق يتمتع بقوى شيطانية خارقة ، وقد اثمرت سعاية خصومه من الفقهاء وغيرهم فى النهاية ، الى اتهامه بالكفر والزندقة واتيان الخوارق الشيطانية . فاعتقل وقدم للمحاكمة ، امام قاضى قرطبة سليمان بن أسود الغافقى ، وعقدت المحاكمة بالمسجد الجامع ، وهرع الناس لشهودها ، واجتمع حشد من العامة شهودا عليه . وقد نقل الينا المؤرخ المعاصر ، بعض أقوال أولئك الشهود ، فمنهم من قال : سمعت ابن فرناس يقول «مفاعيل مفاعيل» .

وكان القاضى سليمان بن أسود بالرغم من صرامته ، ذهنا مستنيرا فلم ترقه تلك الترهات ولم يجد فيها طائلا ، فشاور جماعة الفقهاء ، فيما قيد منها ، ولم يجد سبيلا الى مؤاخذة ابن فرناس ، وقضى ببراءته واطلق صراحه .

وهكذا نجا ابن فرناس من محنة كانت تهدد حريته وحياته ، ومما يجدر ذكره بهذه المناسبة أن هذا العصر الذى بدت فيه طوالع الحركة العلمية الكبرى فى الأندلس ، كانت تهب فيه ريح المطاردة الفكرية من آن لآخر وقد اتهم فيه الى جانب ابن فرناس ، عدة آخرون من العلماء والفقهاء منهم صديقه وزميله يحيى الغزال الجيانى الشاعر الفيلسوف ، ومنهم بقي بن مخلد عميد فقهاء العصر ، وقد اتهمه زملاؤه بالزندقة ، وحاولوا الايقاع به ، ولم يسعفه سوى الامير محمد نفسه ، حيث عقد له مجلسا لمناظرة متهميه ، وانتهى بدحض اقوالهم والزامهم الحجة . وكانت هذه الاتهامات من خواص العصر ، ومن ورائها الأحقاد والمنافسات الشخصية ، ومن ورائها احيانا بواعث السياسة .



ابْنُ رُشْدٍ في نَكْبَتِهِ الكُبرى

عرفت الأندلس في تاريخها فترتين ، خضعت فيهما لنوع من الحكم الديني المتزمّت ، هما عهد المرابطين وعهد الموحدين . وقد امتدا زهاء قرن ونصف ، منذ أواخر القرن الخامس الهجري حتى أوائل القرن السابع (القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر من الميلاد) .

ونحن نعرف أن الدولة المرابطية الكبرى ، قامت في المغرب ، منذ منتصف القرن الخامس ، على يد فقيه من الغلاة هو عبدالله بن ياسين الجزولي ، ثم قامت في أعقابها دولة الموحدين ، على يد امامها محمد بن تومرت المهدى ، ومن ثم فقد اكتسبت كل من الدولتين طابعها الديني منذ البداية . ولما عبر المرابطون من المغرب الى الأندلس ، تلبية لاستغاثة امراء الطوائف ، لانجاد الأندلس وانقاذها من خطر الفناء ، وتحققت هذه الغاية حينما لقيت اسبانيا النصرانية هزيمتها ، في موقعة الزلاقة (٤٧٩ هـ - ١٠٨٦ م) انقلب المرابطون الى فاتحين ، واستولوا على الأندلس لأنفسهم ، وحكموها نحو ستين عاما ، فلما انهارت دولتهم في المغرب ، وقامت على أنقاضها دولة الموحدين ، عبر الموحدون البحر ، واستولوا بدورهم على الأندلس ، وحكموها نحو قرن آخر .

العربي العدد ٣٤ سبتمبر - أيلول ١٩٦١م .

المرابطون والموحدون

كان المرابطون ، فضلا عن نزعتهم الدينية الخاصة ، يتسمون بالبداوة والخشونة ، ويضطرمون بالأفكار الرجعية العتيقة ، فركدت في ظلهم دولة التفكير والأدب ، التي كانت مزدهرة في عهد الطوائف . واذا كانت قد سطعت في عهدهم القصير ، بعض الشخصيات اللامعة ، مثل أبي القاسم خلف بن عباس القرطبي الطبيب الأشهر المتوفى سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) ، وابن باجة الطبيب الفيلسوف المتوفى سنة ٥٢٣ هـ (١١٢٩ م) . فان ذلك لم يكن سوى أثر من آثار النهضة الفكرية في ظل الطوائف .

وكان حكم الموحدين ، الذين خلفوا المرابطين في حكم المغرب والأندلس ، يتسم كذلك بطابع ديني عميق . بيد أنهم كانوا بالرغم من ذلك ، أوسع آفاقا ، وأكثر تسامحا . وكانت دولتهم ، الى جانب صبغتها الدينية ، تتسم كذلك بصبغة علمية ، اذ كان مؤسسها المهدي ، من أئمة التفكير الديني ، وكان أول خلفائها الزمنيين ، عبدالمؤمن بن علي ، عالماً متمكنا واسع الأفق . وأبدى عبدالمؤمن وبنوه اهتماما بالعلوم والفنون ، وأطلقت في عهدهم حرية التفكير والبحث ، وكانت قد قُيِّدت في عهد المرابطين ، وأفرج عن كتب الغزالي وغيره من مفكرى الشرق ، وكانت قد طوردت ومنعت في أيامهم في المغرب والأندلس . ومن ثم فانه لا يدهشنا أن نرى الأندلس تخرج في تلك الفترة ، طائفة من أعظم علمائها ومفكريها .

وكان في طليعة أقطاب العلم في هذا العصر ، بنو زهر الاشبيليون ، وعميدهم الطبيب الأشهر أبو العلاء بن زهر ، ثم ولده أبو مروان عبدالملك بن زهر المتوفى سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨ م) وهو الذي يعتبر أعظم طبيب في العصور الوسطى بعد أبي بكر الرازي ، ثم حفيده أبو بكر بن عبد الملك بن زهر ، وهو أيضا طبيب وكيمائي من الطراز الأول .

ابن رشد وابن طفيل

وفي هذا العصر أيضا ، وفي ظل هذا الأفق ، ظهر اثنان من أعظم فلاسفة الأندلس ، وفلاسفة الاسلام قاطبة ، هما أبو بكر بن طفيل الوادى آشي ، المتوفى سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥) م ، وهو صاحب رسالة « حى بن يقظان » الشهيرة ، والامام الفيلسوف أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي المتوفى سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٨ م) .

وابن رشد هو سليل أسرة من العلماء والقضاة ، ولد بقرطبة سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) ، ودرس بها دراسة حسنة ، وبرع بالأخص في الفقه وعلم الكلام والفلسفة والطب ، وقد ظهر جده وسميه القاضى أبو الوليد بن رشد أيام المرابطين ، وكان أثيرا لدى عاهلهم على بن يوسف بن تاشفين . وهو الذي أفتى بوجوب تغريب النصارى المعاهدين من الأندلس ، حينما ائتمروا مع الفونسو المحارب ملك اراجون واستدعوه لغزو الأندلس ، وعاونوه أثناء غزوته بالمال والرجال والمؤن (سنة ١١٢٦ م) باعتبار أنهم قد نقضوا العهد ، وخرجوا عن الذمة ، فأخذ على بن يوسف بقوله ، وأبعدت منهم بناء على ذلك عن الأندلس الوف عديدة ، مزقت في مختلف أنحاء المغرب .

ولما بلغ ابن رشد الثلاثين من عمره ، كانت دولة المرابطين قد انهارت في المغرب والأندلس ، وخلفتها دولة الموحدين . ونزح ابن رشد عندئذ الى اشبيلية ، التي غدت قاعدة الحكم الموحّدى في الأندلس . وكان واليها يومئذ هو السيد أبو يعقوب يوسف بن الخليفة عبدالمؤمن بن على . وكان هذا الأمير ، كأبيه عالما حافظا « متقنا للعلوم الشرعية والأصولية » ، وكان مثل أبيه يجمع حوله صفوة العلماء والمفكرين . ومن ثم فقد اتصل ابن رشد بهذا الأمير العالم ، وحظى برعايته ، وكان من آثار هذه الرعاية أن ولى ابن رشد قضاء مدينة اشبيلية . ثم ولى بعد ذلك قضاء قرطبة بعض الوقت .

بيد أن أعظم ما حظى به ابن رشد خلال اقامته باشبيلية ، هو صلته بعالمها

وطبيبها الأشهر أبي مروان عبدالله بن زهر ، وتتلمذه عليه في علم الطب ، وقد وصف ابن رشد استاذه فيما بعد ، بأنه أعظم طبيب بعد جالينوس ، وألف كتابه « الكليات » في الطب ليتناول فيه أبواب الطب الكلية أو الرئيسية ، مقابل التفاصيل الجزئية التي يتناولها استاذه ابن زهر في كتابه « التيسير » ، وليكون الكتابان معا وحدة تكمل بعضها بعضا .

ولما توفي الخليفة عبدالمؤمن في سنة ٥٥٨ هـ (١١٦٣ م) ، خلفه ولده الأمير أبو يعقوب في ملك المغرب والأندلس . وهنا لمع نجم ابن رشد ، وزادت حظوته لدى الخليفة الجديد ، وولي بالتوالي طائفة من المناصب القضائية والادارية الهامة ، أحيانا بالأندلس وأحيانا بالمغرب . وعينه الخليفة في الوقت نفسه طبيبا خاصا له الى جانب طبيبه الفيلسوف ابي بكر بن طفيل . وكان ابن رشد يتنقل معظم الوقت مع بلاط الخليفة ، سواء بالمغرب أو الأندلس . ولما توفي ابن طفيل في سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) ، انفرد ابن رشد بمنصب الطبيب الخاص . ولبث على مكانته وحظوته في البلاط الموحدي حتى توفي الخليفة أبو يعقوب يوسف في سنة ٥٨٠ هـ (١١٨٤ م) ، وخلفه في الملك ولده الخليفة أبو يوسف يعقوب ، الملقب بالمنصور ، فبقي ابن رشد في منصبه كطبيب خاص ، وبقي متمتعا بنفس المكانة التي كانت له من قبل .

ذيوع صيت ابن رشد

وكان ابن رشد خلال ذلك قد ذاعت شهرته الطبية والفلسفية ذيوعا عظيما ، وكتب كثيرا من كتبه الفلسفية ، ومعظمها في تلخيص كتب ارسطو وشروحها ، وكتب كذلك كثيرا من الكتب الطبية ، ومعظمها تلخيص وشروح لكتب جالينوس ، ومنها شرح « لأرجوزة » الشيخ الرئيس ابن سينا في الطب ، وكتب كذلك كتابه في « الكليات » الذي سبقت الاشارة اليه . وهذا

كله عدا ما كتبه في الاصول والفقه وعلم الكلام والحكمة والمنطق . وقد بلغت تصانيف ابن رشد في مختلف العلوم أكثر من سبعين كتابا ورسالة ، اشتهرت كلها في المغرب والمشرق ، وترجم الكثير منها الى اللاتينية منذ القرن الثالث عشر الميلادي ، ولا سيما شروحه لفلسفة ارسطو ، وهي التي جعلت لابن رشد أعظم مكانة في التفكير الأوروبي ، منذ العصور الوسطى الى العصر الحديث

وكان الخليفة يعقوب المنصور كأبيه عالما متمكنا ، يجمع حوله صفوة العلماء والمفكرين ، وكان يعشق الجدل والمناقشات الفلسفية ، ويعقد مجالس خاصة يستمع فيها الى آراء ابن رشد وشروحه ، ولا سيما في علاقة الفلسفة بالدين ، وهو الموضوع الذي كتب فيه ابن رشد فيما بعد رسالته « فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال » . وكان ابن رشد يقضي معظم أوقاته عندئذ في البلاط الموحدي ، سواء في مراكش أو في الأندلس ، حيثما كان الخليفة . وكان المنصور يعظم الفيلسوف ويقدره ، الى حد أنه كان يُجلسه الى جانبه مباشرة ، ويتعدى بموضعه مواضع شيوخ الموحدين الأكابر . ومن الغريب أن يقال لنا ان ابن رشد ، بالرغم مما كان يحيط بمقامه العلمي من ضروب التوقير والتكريم ، لم يكن يتمتع بالمظهر اللائق بمكانته من حيث الملبس والتجمل . وقد وصفه لنا القاضي أبو مروان الباجي في قوله : « كان القاضي أبو الوليد بن رشد حسن الرأي ذكيا ، رثّ البِزّة ، قوي النفس » .

وفي شهر رجب سنة ٥٩١ هـ ، عبر الخليفة المنصور البحر الى الأندلس للمرة الثانية ، طلبا للجهاد ، ولم تمض على عبوره أيام قلائل حتى اشتبكت الجيوش الموحدية بقيادته بالجيوش القشتالية في ظاهر قلعة الارك ، على مقربة من قلعة رباح ، واحرز الموحدون في تلك الموقعة نصرهم الساحق على النصارى (٩شعبان ٥٩١ ـ ١٩ يوليو ١١٩١) ، وعاد المنصور الى قرطبة مكللا بغار الظفر وأقام بلاطه بها .

ففي تلك الفترة التي استطالت فيها اقامة المنصور بقرطبة أكثر من عام ، وقعت نكبة الفيلسوف ابن رشد . وكان ابن رشد قد عاد الى الأندلس في ركاب الخليفة ، ونزل بداره في قرطبة . وكانت أسباب هذه النكبة في الواقع تتجمع منذ بعيد .

وكان الحفاظ والفقهاء الموحدون ، سواء في المغرب أو الأندلس ، ينقمون على ابن رشد آراءه ودراساته الجدلية والفلسفية ، وينقمون عليه بسبب منزلته لدى الخليفة . وكان للعلماء والحفاظ الموحدين - وهم يشغلون في ترتيب الدولة الموحدية ، الطبقتين الرابعة والخامسة ، من طبقاتها العشر - أعظم نفوذ لدى الخليفة ، وهم يعتبرون نصحاءه ومستشاريه الروحيين . وكان كثير من هؤلاء ، وكثير من غيرهم من خصوم الفيلسوف ، يبثون حول آرائه ونظرياته دعاية مسمومة ، ويرمونه بالمروق ، والخروج عن أحكام الاسلام الصحيحة . وكانت الفلسفة ودراساتها - بالرغم مما كان يتسم به البلاط الموحدي ، منذ عهد الخليفة عبدالمؤمن ، من رعاية العلم والعلماء - من الموضوعات المكروهة المريبة . وهكذا كان خصوم ابن رشد يجدون في دراساته وكتاباته مواد اتهامهم .

وعلى الرغم مما كان يسبغه الخليفة على الفيلسوف من تقدير وعطف ، فانه لم ير في النهاية مناصا من الاصغاء الى فقهائه . وهكذا أثمرت السعاية ثمرتها . بيد أن الخليفة آثر أن يأخذ الأمور باللين ، وبأسلوب علمي رقيق . واليك كيف يصف لنا صاحب « التكملة » الفقيه ابن عبدالملك المراكشي ، مسعى أولئك الخصوم وموقف الخليفة .

« فلما كان التلوُّم من المنصور بمدينة قرطبة ، وامتد بها أمدُ الاقامة ، وانبسط الناس من مجالس المذاكرة ، تجددت للطالبين آمالهم وقوى تألُّبهم

واسترسالهم ، فـأملوا بتلك الألقيات ، وأوضحـوا ما ارتقبـوا فيه من شنيـع الهَوْات الماحية لابي الوليـد كثيرا من الحسنـات ، فقريت بـالمجلس وتؤولت أغراضها ، ومعانيها وقواعدها ومبانيها ، فخُرّجت بما دلّت عليه أسوأ مَخْرج ، وربما ذيّلها مكرُ الطالبين ، فلم يمكن عند اجتماع الملأ ، الا المدافعة عن شريعة الاسلام . ثم آثر الخليفة فضيلة الابقاء ، وأغمد السيف بالتماس جميل الجزاء ، وأمر طلبة مجلسه ، وفقهاء دولته ، بالحضور بجامع المسلمين وتعريف الملأ ، بأنه مَرَق من الدين ، وأنه استوجب لعنة الضالين » .

ولم يكن الاتهام بالمروق مقصورا على الفيلسوف ، ولكنه شمل عدداً من زملائه وتلاميذه ، ممن يشتغلون « بالحكمة وعلوم الأوائل » ، وكان من هؤلاء أبو جعفر الذهبي ، والفقيه أبو عبدالله بن ابراهيم الاصولى ، وأبـو الربيـع الكفيف ، وأبو العباس الحافظ الشاعر . وأحضر ابن رشد ، والفقيه ابو عبدالله وحدهما الى جامع قرطبة ، وتوارى الباقون ، وتولى توجيه الاتهام الى الفيلسوف وزميله القاضى أبو عبدالله بن مروان ، والخطيبُ أبو على بن الحجاج . ولم يقل لنا صاحب « التكملة » ماذا كان موقف ابن رشد ، ولكن المرجح أنه رد على أسانيد متهميه .

وحكموا عليه بالحبس

وعلى أي حال فقد انتهى الأمر بادانة الفيلسوف وقضى الخليفة المنصور بمعاقبته بالنفى من قرطبة ، واعتقاله ببلدة « اليسانة » أو اللسانـة الواقعـة في جنوبها . وكانت هذه البلدة منذ عصور منزل اليهود خاصة في هذه المنطقة من الأنـدلس . وقيـل في اختيـارهـا لاعتقـال الفيلسـوف « انـه ينسب في بنى اسرائيل ، ولأنه لا يعرف له نسب في قبائل الأندلس » . وكان من الواضح ان الخليفة قد راعى في الاقتصار على عقوبة الفيلسوف بالنفى ، سنه وحالته الصحية . وكان ابن رشد يومئذ قد جاوز السبعين من عمره . وقَضى

على زملاء الفيلسوف الذين تقدم ذكرهم ، كذلك بالنفى الى جهات أخرى ، وصودرت كتب الجميع ، وأمر باحراقها أينما وجدت .

ولم يقتصر البلاط الموحدى على توقيع العقوبة المادية على المتهمين ، ولكنه رأى أن يقرنها باعلان وجهة نظره ، وتبرير تصرفه ، فكتب الوزير أبو عبدالله بن عياش عن المنصور ، كتابا في هذا الموضوع ، الى مراكش وغيرها من قواعد المغرب . واليك بعض ما جاء في هذا الكتاب الموحدى المشهور ، الذي انفرد بتدوينه صاحب « التكملة » .

« وقد كان في سالف الدهر قوم ، خاضوا في بحور الأوهام ، وأقر لهم عوامهم ، بشفوف عليهم في الافهام ، حيث لا داعي يدعو للحيِّ القيوم ، ولا حاكم يفصل بين المشكوك فيه والمعلوم ، فخلّدوا في العالم صحفا ، ما لها من خلاق ، مسودَّة المعاني والأوراق ، بعدُها من الشريعة بعد المشرقين ، وتباينها تباين الثقلين ، يوهمون أن العقل ميزانها ، والحق برهانها ، وهم يتشعبون في القضية الواحدة فرقا ، ويشيدون فيها شواكل وطرقا » . . .

« وما زلنا ، وصل الله كرامتكم ، نذكرهم على مقدار ظننا فيهم ، وندعوهم على بصيرة الى ما يقربهم الى الله سبحانه ويدنيهم ، فلما أراد الله فضيحة عمايتهم ، وكشف غوايتهم ، وقف لبعضهم على كتب مسطورة من الضلال ، موجبةً أخذ كتاب صاحبها بالشمال ، ظاهرها موشحٌ بكتاب الله ، وباطنها مصرحٌ بالاعراض عن الله ، لُبِّس منها الايمان بالظلم ، وجيء منها بالحرب الزَّبون في صورة السِّلم ، مُزِلَّةٌ للأقدام ، وسم يدبُّ في باطن الاسلام ، وأسياف أهل الصليب دونها مفلولة ، وأيديهم عما يناله هؤلاء مغلولة ، فانهم يوافقون الأمة في ظاهرهم وزيهم ولسانهم ، ويخالفونهم بباطنهم وبهتانهم ، فلما وقفنا منهم على ما هو قذىً في جفن الدين ، ونكتة سوداء في صفحة النور المبين ، نبذناهم في الله نبذة النواة ، وأقصيناهم حيث يقصى السفهاء من الغواة . . .

« فاحذروا وفقكم الله ، هذه الشرذمة على الايمان ، حذركم من السموم

السارية في الأبدان . ومن عثر له على كتاب من كتبهم ، فجزاؤه النار التي بها يُعذَّب أربابه ، واليها يكون مآل مؤلفه وقارئه ومآبه ، ومتى عثر منهم على مجرٍ في غلوائه ، عم عن سبيل الله استقامته واهتدائه ، فيعاجل فيه بالتثقيف والتعريف . . . والله تعالى يطهر من دنس الملحدين أصقاعكم ، ويكتب في صحف الابرار تظافركم على الحق واجتماعكم ، انه منعم كريم » .

أسباب أخرى لغضب المنصور

هذا كله فيما يتعلق بالناحية الفكرية وناحية العقيدة ، وهي التي اتخذت ذريعة لاتهام الفيلسوف وادانته . بيد أنه كانت ثمة أسباب أخرى لغضب المنصور على الفيلسوف . منها توثق صلاته بالسيد ابي يحيى شقيق المنصور ووالى قرطبة ، وقد كان بين الأخوين موجدة وجفاء ، ومن ذلك أن ابن رشد ، كان يجرى في أحاديثه مع الخليفة على مخاطبته دائما بقوله « تسمع يا أخي » . وكان المنصور يُسرُّ له الجرأة في مخاطبته ومنها أخيرا ، وهو ما يدخل في باب العيب في الذات الملكية ، ان ابن رشد قال في كتابه عن « الحيوان » ما يأتي « ورأيت الزرافة عند ملك البربر » مشيرا بذلك الى المنصور ، وقد وجد ذلك مكتوبا بخطه ، فهذه الأسباب كلها قد اجتمعت لتهيىء لخصوم الفيلسوف ومتهميه ، فرصة النيل منه ، واقناع الخليفة بصحة ما نسب اليه من تهم المروق والالحاد .

وغادر الخليفة المنصور الأندلس الى مراكش ، في أواخر سنة ٥٩٢ هـ ، بعد ان عقد الهدنة مع ملك قشتالة . ولبث ابن رشد في معتقله في اليسانة زهاء ثلاثة أعوام . ثم ان جماعة من أكابر أهل اشبيلية خاطبوا المنصور في شأن ابن رشد وزملائه ، وتشفعوا لديه في سبيل اقالتهم والعفو عنهم ، ونفوا بخاصة عن الفيلسوف تهمة المروق والزيغ ، وشهدوا بحسن ايمانه وسلامة عقيدته ، ونفى ابن رشد عن نفسه من جهة أخرى ، تهمة العيب في حق المنصور ، بوصفه « ملك البربر » ، وقال إن صحة الوصف هي « ملك البرين » وان ما

وقع هو تحريف من الناسخ . فاستجاب المنصور الى شفاعتهم وعفا عن ابن رشد وزملائه ، وكان ذلك في سنة ٥٩٤ هـ .

ابن رشد يسترد حظوته

وهكذا استرد الفيلسوف حظوته ومكانته في البلاط الموحدى . وعاد الى مراكش ليلتحق ببلاط الخليفة . بيد أنه لم يمكث بها سوى فترة يسيرة ، وتوفي في التاسع من شهر صفر سنة ٥٩٥ هـ (١٠ ديسمبر سنة ١١٩٨ م) ، وهو في الخامسة والسبعين من عمره . ولم يمض على ذلك سوى بضعة أسابيع حتى توفي الخليفة المنصور ، وذلك في الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول من نفس العام (٢١ يناير ١١٩٩ م) . ودفن ابن رشد أولا في مقبرة « باب تاعزوت » خارج مراكش ، لمدة ثلاثة أشهر فقط ، ثم حمل منها الى قرطبة مسقط رأسه ، وموئل أسرته ، ودفن بها في روضة آبائه بمقبرة ابن عباس .

تلك هي أدوار المأساة المشجية ، التي اقترنت بحياة فيلسوف ، من أعظم أقطاب التفكير الاسلامي ، والتفكير العالمي . وقد لبث تراث ابن رشد الفكري ، ولا سيما في ميدان الفلسفة ، منذ العصور الوسطى ، وما زال حتى يومنا ، يتبوأ بين تراث الانسانية مكانة عظمى .







ابن طفيل .. الفيلسوف والطبيب والشاعر

كان العلامة الطبيب الفيلسوف أبو بكر بن طفيل ، ثالث ثلاثة من أئمة الحكمة الأندلسية ، وعباقرة التفكير الاسلامي ، الذين ظهروا خلال القرن السادس الهجري ، وهم أبو بكر بن الصائغ (ابن باجّة) وابن طفيل ، وتلميذه ابن رشد [1] .

وابن طفيل ، هو أبو بكر محمد بن عبدالملك بن محمد بن طفيل القيسي ، وأصله من « وادى آش » ، تلك المدينة الأندلسية العريقة من مدن ولاية غرناطة ، التي ينتمى اليها كثير من العلماء والأدباء ، والتي استطاعت أن تحتفظ بعروبتها واسلامها حتى أيام الأندلس الأخيرة ، في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي . ولسنا نعرف تاريخ مولده بالتحقيق ، وربما ولد في الأعوام الأولى من القرن السادس الهجري . ودرس ابن طُفَيل الحديث والفقه واللغة على أبي محمد الرُشاطي ، وعبدالحق بن عطية ، وغيرهما من أقطاب العصر ،

العربي العدد ٧٤ يناير ـ كانون الثاني ١٩٦٥ م

(١) هؤلاء الثلاثة من مفكرى العرب والاسلام ، تركوا في الحضارة الغربية آثارا لا تزال مذكورة ، والى اللاتينية ترجمت مؤلفاتهم . وقد اشتهر أولهم ابن باجة باسم Avenpace وأبو بكر ابن طفيل باسم Abubacer وابن رشد باسم Averroes

ولكنه مال الى « الحكمة وعلوم الأوائل » . ودرس الحكمة والطب باشبيلية ، وكان في مقدمة أساتذته ابن باجة أعظم فلاسفة الأندلس يومئذ ، وغيره من أعلام العصر ، وبرع منذ شبابه في الفلسفة والطب كما برع في الفقه والأدب.

وبدأ ابن طفيل حياته العامة ، في الوقت الذي اضطرمت فيه الأندلس بالثورة على المرابطين ، وقامت في كل قاعدة أندلسية ، حكومة جديدة ، على نمط الطوائف . وكانت بلدة « وادى آش » ، قد حذت في ذلك حذو غيرها ، وقام بها أحمد بن ملحان الطائي في سنة ٥٤٠ هـ ، وأنشأ بها حكومة مستقلة ، فانتظم ابن طفيل بين كُتّابه ، وخدمه مدى حين . ولما سقطت حكومته بعد ذلك بأعوام قلائل ، وتغلب الموحدون على قواعد الأندلس ، انتقل ابن طفيل الى خدمتهم ، وكتب لوالى غرناطة الموحدى فترة أخرى .

في اشبيلية

على أن القدر ، كان يدخر لابن طفيل ، مكانته الحقيقية على يد الأمير الموحدى السيد أبي يعقوب يوسف بن الخليفة عبدالمؤمن بن على . فقد عُيِّن هذا الأمير واليا لاشبيلية في سنة ٥٥١ هـ (١١٥٦ م) وكانت اشبيلية قد غدت يومئذ قاعدة الحكم الموحدى بالأندلس ، بعد أن عفا الزمن على قرطبة عاصمة الخلافة القديمة ، وغدت في الوقت نفسه أعظم مراكز الحركة الفكرية والأدبية . وكان السيد أبو يعقوب ، عالما فقيها ، أديبا يُشغف بالدرس ، ويجمع حوله صفوة العلماء والمفكرين ، حتى غدت اشبيلية خلال الأعوام الثمانية التي قضاها في حكمها جامعة الأندلس الحقيقية . وكان ابن طفيل في مقدمة هذا الرهط العلمي الذي ينتظم حول الأمير العالم .

ولما توفى الخليفة عبدالمؤمن بن على في سنة ٥٥٨ هـ ، خلفه ولده السيد أبو يعقوب يوسف . ولسنا نعرف بالتحقيق ما اذا كان ابن طفيل قد شغل

منصب الطبيب الخاص للخليفة الجديد ، منذ البداية . بيد أنه لما مرض الخليفة في سنة ٥٦٥ هـ ، واستطال مرضه أربعة عشر شهرا ، كان الذي يتولى علاجه ، وفقا لرواية ابن صاحب الصلاة ، مؤرخ الموحدين المعاصر ، « طبيباه أبو مروان بن قاسم ، وأبو بكر بن طفيل » . وهذه أول مرة تقدم الينا الرواية الموحدية الفيلسوف والطبيب الكبير باعتباره طبيب الخليفة الموحدى . على أنه يلوح مما تؤكده لنا الرواية من توثق أواصر المحبة والصداقة بين الخليفة وطبيبه ، ان ابن طفيل كان يشغل منصبه قبل ذلك بأعوام . ومن جهة أخرى فان ابن طفيل لم يكن طبيب الخليفة فحسب ، وانما كان في نفس الوقت مستشاره وموضع ثقته .

شاعر مجيد

وكان من أثر ذلك ما عهد به الخليفة اليه من نظم قصيدة بليغة حماسية في دعوة طوائف العرب الذين بأفريقية وحثهم على الاشتراك في الجهاد بالأندلس ، يشاد فيها برفيع أصولهم ، وأرومتهم ، وكونهم هم السيف الماضي في نصرة الدين ، فنظم ابن طفيل تحقيقا لتلك الغاية قصيدة طويلة في أربعين بيتا ، تفيض بلاغة وروعة ، وتدل على ما كان للفيلسوف في نفس الوقت من منزلة عالية في النظم تضعه في صف أكابر الشعراء . وقد نقل الينا ابن صاحب الصلاة هذه القصيدة بأكملها ، وقد جاء في مطلعها :

أقيموا صدورَ الخيل نحو المضارب ... لغزو الأعادى واقتناءِ الرَّغائب

واذكُوا المذاكي العاديات على العدا ... فقد عرضت للحرب جرد السلاهب

فلا تُقتنَى الآمال إلا من القَنَا ... ولا تُكتَب العليا بغير الكتائب

ولا يبلغ الغايات إلا مُصمِّمٌ ... على الهون رَكّابٌ ظهورَ المصائب

ومنها في استمالة العرب والإشادة بهم :

ألا فابعثوها همة عربية | تحفُّ بأطراف القنا والقواضب
فرسان قيس من هلال بن عامر | وما جمعت من طاعن ومضارب
لكم قبة للمجد شدوا عمادها | بطاعة أمر الله من كل جانب
وقوموا لنصر الدين قومة ثائر | وفيئوا إلى التحقيق فيئة راغب

وهذه الناحية من نواحي عبقرية ابن طفيل ، أعني شاعريته العالية ، وروعة نظمه ، لم تأخذ حقها من التعريف ، اذ كانت صفاته العلمية والفلسفية ، تطغى دائما على ما عداها من صفاته الأخرى . بيد أننا سوف نرى فيما بعد أن لابن طفيل غير هذا النظم السياسي الحماسي ، نظما رقيقا آخر .

الخليفة والعلماء

وفي سنة ٥٦٦ هـ (١١٧٠ م) عبر الخليفة أبو يعقوب يوسف في جيوش الموحدين الى الأندلس طلبا للجهاد ، وكان في ركبه بالطبع طبيبه الخاص ابن طفيل . وقضى الخليفة في شبه الجزيرة خمسة أعوام . وكانت اشبيلية مقامه الأثير . وفي هذه الفترة التي قضاها الخليفة أبو يعقوب في المدينة الأندلسية العظيمة تفتحت مواهبه العلمية والأدبية ، وجنح الى دراسة الفلسفة والطب ، واجتمع حوله يومئذ ثلاثة من أعظم أئمة التفكير الاسلامي ، هم طبيبه الخاص ابن طفيل ، وتلميذه القاضي الفيلسوف أبو الوليد ابن رشد ، والطبيب العبقري عبدالملك بن زهر . وكان الخليفة يشغف بالأخص بملازمة صديقه وطبيبه ابن طفيل ولا يصبر على فراقه .

وكان ابن طفيل يقوم بدور السفير بين الخليفة وبين العلماء ، ويدعوهم اليه من مختلف القواعد والأقطار ، وينبّه على أقدارهم لديه ، ويحضه على اكرامهم والتنويه بهم ، وهو الذي نوه لديه بفضل ابن رشد وبراعته .

وكان هذا الخليفة العالم أبو يعقوب ، يأخذ من الفلسفة بقسط ملحوظ .

واذا صدقنا رواية المُرّاكشي التي ينقلها الينا عن القرطبي ، فان الفضل يرجع الى هذا الخليفة في وضع شروح فلسفة ارسطو العربية . ذلك أنه وفقا لهذه الرواية هو الذي أوعز الى طبيبه ابن طفيل بوجوب عمل تلخيص جديد لشروح أرسطو وتقريب أغراضها وتحرير تراجمها مما يشوبها من الغموض .

ولكن ابن طفيل ، نظرا لكثرة مشاغله وشيخوخته ، فقد اختار تلميذه ابن رشد للقيام بهذه المهمة العلمية ، لما يعلم من مقدرته ، وقوة نزوعه ، وصفاء قريحته ، وان هذا هو الذي حمل ابن رشد على القيام بتلخيص شروح أرسطو ، وهي الشروح التي اشتهر بها وترجمت فيما بعد الى اللاتينية ، وأذاعت شهرة الفيلسوف المسلم في دوائر التفكير الغربي .

ولما توفي الخليفة أبو يعقوب يوسف في ربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ (أغسطس سنة ١١٨٤ م) عقب نكبته في موقعة شنترين ، استمر ابن طفيل في منصبه طبيبا خاصا لولده الخليفة الجديد أبي يوسف يعقوب المنصور . بيد أنه لم يعش طويلا بعد ذلك ، إذ توفي بمراكش في أواخر سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) وحضر الخليفة جنازته بنفسه .

مؤلفاته

وأشهر مؤلفات ابن طفيل رسالة « حي بن يقظان » أو « أسرار الحكمة المشرقية » و « الارجوزة الطبية المجهولة » و « رسالة النفس » وغيرها من مؤلفات ورسائل أخرى لم تصل الينا . وقد انتهت الينا لحسن الحظ رسالة « حي بن يقظان » التي هي تلخيص فلسفي رائع لأسرار الطبيعة والخليقة ، عرضت من خلال حياة وأعمال طفل خلق « من بطن الأرض » في جزيرة مجهولة من جزائر الهند ، جنوبي خط الاستواء ، وهذا الطفل هو « حي » . وقد

استطاع بالملاحظة والتأمل التدريجي لظروف الحياة ومظاهرها الطبيعية ، أن يصل الى أسرار الطبيعة ، وأسرار الحكمة العليا ، وأن يتقرب في تأمله وصومه من الله . وبالرغم من صغر حجم هذه الرسالة الفلسفية ، وهو لا يزيد عن خمسين صفحة ، فقد لفتت بروعتها أنظار النقد الحديث ، وترجمت الى اللاتينية منذ القرن السابع عشر ، كما ترجمت بعد ذلك الى عدة لغات أوروبية أخرى .

وتشيد الرواية الاسلامية المعاصرة بعبقرية ابن طفيل ، ويصفه المراكشي ، « بأنه أحد حسنات الدهر » ، ثم يقول لنا إنه صرف عنايته في أواخر عمره الى العلم الالهي ، ونبذ ما سواه . وكان حريصا على الجمع بين الحكمة والشريعة ، معظما لأمر النبوءات ظاهرا وباطنا ، هذا مع اتساع في العلوم الاسلامية . ويصفه ابن الخطيب بأنه « كان عالما محققا ، شغوفا بالحكمة المشرقية ، متصوفا ، طبيبا ، ماهرا في أصول العلاج ، وفقيها بارع الاعراب ، وكاتبا بليغا ، ناظما ناثرا ، مشاركا في عدة فنون » .

نماذج من شعره

وقد أورد لنا المراكشي لابن طفيل ، نقلا عن ولده يحيى هذا النظم الرقيق المشجي :

ولما التقينَا بعد طول تهاجر ... وقد كاد حبلُ الود أن يتصرَّما
جَلَتْ عن ثناياها ، وأومض بارقٌ ... فلم أدر مَنْ شَقَّ الدُجنَّةَ منهما
وساعدني جَفْن الغمام على البكا ... فلم أدر دَمْعاً أينا كان أسجما
فقالت وقد رقَّ الحديث وأبصرتْ ... قرائنَ أحوالٍ أذعْنَ المُكتَّما
نشدتُك لا يذهبْ بك الشوق مذهبا ... يُهوِّن صعباً أو يرخِّص مأثما
فأمسكتُ ، لا مُستغنيا عن نوالها ... ولكن رأيت الصبر أوفى وأكرما

ونقل الينا من شعره في الزهد :

يا باكيا فرقة الأصحاب عن شَحَط	هـلاَّ بكيت فراق الـروح للبـدن
نـورٌ تـردَّد في طـين إلى أجـل	فانحاز عُلواً وخلَّى الطِّين للكفن
يا شدَّ ما افترقا من بعد ما اعتلقا	أظنها هُـدنـةٌ كـانت عـلى دَخَن
إن لم يكن في رضى الله اجتماعهما	فيـا لها صفقـةٌ تمت عـلى غَبَن

ولابن طفيل غير ذلك من النظم الجيد . هذا فضلا عن بلاغته النثرية وجزالة أسلوبه الأدبي التي تتجلى في رسالة « حي بن يقظان » . وهي تدل على ما كان يتمتع به هذا الفيلسوف والطبيب العبقرى من ذوق أدبي رفيع لم تطغ عليه العناصر العلمية الجافة .



ابن حزم .. الفيلسوف الذي أرخ لمجتمع الطوائف

لم تكن صفة المؤرخ لدى ابي محمد علي بن حزم ، صفة عارضة ، اجتمعت الى جانب صفاته الأساسية الأخرى ، وهى انه فيلسوف من أعظم فلاسفة الشرق والغرب ، وإمام من أعظم ائمة الاسلام في علم الكلام والفقه ، ولكنا نستطيع ان نقول ان صفة المؤرخ هى أيضا من صفات ابن حزم الأساسية .

ولم ينس ابن حزم نفسه أن يبرزلنا هذه الناحية من نواحى تفكيره ، فهو يتناول في رسالته « مراتب العلوم » علم التاريخ ويصفه بأنه علم الأخبار ، ويعرض لنا أساليب كتابته ، ويتحدث عن التواريخ الصحيحة والمعتلة ، من الناحية الاخبارية . وفي رأيه أن أصح التواريخ ، هو تاريخ الملة الاسلامية ، وينصح طالب الأخبار بألا يشغل نفسه ، إلا بما أفتى هو بصحته . ولم ينس ابن حزم في نهاية تعريفه لعلم التاريخ ؛ أن يقول لنا إن علم النسب هو جزء من علم الخبر ، فاذا تقرر ذلك ، فإن ابن حزم ، وهو صاحب كتاب « جمهرة انساب العرب » ، يمكن أن يوضع بهذا المصنف وحده ، في عداد اكابر المؤرخين .

العربي العدد ٦٨ يوليو - تموز ١٩٦٤ م .

وفضلا عن ذلك ، فقد ترك لنا ابن حزم تراثا تاريخيا جليلا ، يمتاز بتنوعه وقوته ، وروعته في أحيان كثيرة . ولنلاحظ أولا أن النزعة التاريخية ، تسود كثيرا من مصنفاته الكلامية والفلسفية . فنحن نستطيع أن نعتبر مصنفه الجامع « الفصل في الملل والاهواء والنحل » تاريخا مقارنا للأديان والمذاهب الدينية . ولم تخل معظم رسائله ومؤلفاته الفلسفية من الاشارات التاريخية ذات المغزى . ونستطيع أن نخص بالذكر كتابه « طوق الحمامة » فانه يشير فيه في غير موطن الى بعض الحوادث التاريخية المعاصرة ، والى بعض حوادث حياته ذاتها ، ومنها نعرف الكثير عن حياة الفيلسوف ، وعن خطط قرطبة المعاصرة . ثم ان ابن حزم الى جانب ذلك كله يقدم الينا بعض المصنفات التاريخية الخاصة .

وأهم هذه كتاب « جوامع السيرة » ، وهو عرض سريع للسيرة النبوية وذكر الصحابة . وكتاب « نقط العروس » ، وهو يحتوى على مجموعة من النوادر والمقارنات والنظائر التاريخية المدهشة ، التي يقتضى جمعها وتنسيقها مقدرة فائقة ومعرفة شاملة لمختلف التواريخ والسير .

ونستطيع أخيرا أن نذكر من بين مصنفات ابن حزم التاريخية ، رسالته في ذكر فضائل علماء الأندلس وكتابها ، وهى رسالة تعتبر بالرغم من ايجازها تاريخا للتفكير والآداب الأندلسية حتى أوائل القرن الخامس الهجرى،أعنى الى عصر ابن حزم .

قيام دول الطوائف

على أن ابن حزم لم يكن مع ذلك مؤرخا عاديا ، يكتفى في فهم مقدرته التاريخية باستعراض مؤلفاته . بل الأمر في ذلك بالعكس ، ذلك أن ابن حزم كان مؤرخا من طراز خاص ، بل ومن طراز نادر . كان من طراز أولئك

المؤرخين الذين تعتبر كلماتهم أحكاما لاتقبل الجدل على حوادث عصرهم وعلى شخصياته . وقد عاش ابن حزم في عصر فياض بالاضطرابات والأحداث المثيرة ، وهو عصر انحلال الخلافة الاندلسية ، وقيام دول الطوائف ، وشهد الكثير من أحوال هذا العصر وتقلباته ، ومن تصرفات أمراء الطوائف ، ومثالبهم ، وبغيهم واستهتارهم . وهزت هذه الأحداث والصور مشاعره الى الأعماق .

ولقد شغل عصر الطوائف من حياة ابن حزم نحو ثمانين عاما ، وشغل حياة ابن حزم منذ فتوته الى وفاته .

وكان عصر تفكك وانحلال سياسى واجتماعى شامل ، وذلك بالرغم مما كان يبدو في بعض نواحيه من جوانب براقة .

والواقع ان هذه الدول الصغيرة التى قامت على انقاض الاندلس الكبرى ، والتى كانت تتسم بسمة الملك ، وتزعم كل منها لنفسها الاستقلال بشئونها ، لم تكن ، اذا استثنينا القليل منها ، سواء برقاعها الاقليمية ، أو مواردها المادية ، تستطيع الحياة بمفردها .

كانت دول الطوائف أقرب منها الى وحدات الاقطاع ، والى عصبة الأسرة القوية ذات العصبية ، ومن ثم فانه لم تكن بها حكومات منظمة بالمعنى الصحيح ، تكون مهمتها الاساسية أن تعمل لخير الشعب ورخائه ، وصون الأمن والنظام ، والذود عن الوطن والدين ، وانما كانت بها أسر أو زعامات تعمل قبل كل شيء لمصلحتها الخاصة ، وتنمية ثرواتها ، وتدعيم سلطانها وبذخها . وكانت حكومات الطوائف عبارة عن قصور مترفة ناعمة ، يسودها أمراء ضعاف في وطنيتهم ، ضعاف في دينهم ، غلبت عليهم الاثرة والأهواء الشخصية ، ونسوا في غمارها وطنهم ودينهم ، بل نسوا حتى اعتبارات الكرامة الشخصية ، واستساغوا لأنفسهم أن يترامو على اعتاب الملوك النصارى ، يستعدونهم بعضهم على بعض ، في سبيل اقتطاع بلدة أو حصن من بلد شقيق ، أو التنكيل بأحد الأمراء المجاورين . وقد انتهوا في ذلك الى درك يستحق أن

يوصف باقسى النعوت .

ولم يكن أمراء الطوائف في سياستهم الداخلية ، وازاء شعوبهم أفضل موقفا ، ولا أكرم تصرفا . فقد كانوا طغـاة قساة عـلى رعيتهم ، يسومونهم الخسف ، ويثقلون كواهلهم بالقروض والمغارم لملء خزائنهم وتحقيق تـرفهم وبذخهم . ولم يكن يردعهم في ذلك رادع من الدين أو من الأخلاق .

وقد كانت سياستهم الداخلية هذه مثل سياستهم الخـارجية ، مـوضع السخط من شعوبهم ، والطعن المر من معاصريهم من الكتاب والمفكرين .

ابن حيان ، وابن بسام

ذلك هو المجتمع الذى عاش في ظله ابن حزم ولقد حظى بعصر الطوائف الى جانب ابن حزم ، بمؤرخين كبيرين ، هما أبو مروان ابن حيان ، وأبو الحسن ابن بسام الشنتريني ، وقد عاش أولهما ثلاثة عشر عاما بعد ابن حزم ، وعاش الثانى الى ما بعد انتهاء عصر الطوائف بنحو نصف قرن ، واشترك كلاهما في تدوين الكثير عن عصر الطوائف وأحداثه وخواصه . وعكف الأول على تاريخ حوادثه السياسية ، واختص الثانى بتدوين نواحيه الأدبية . وبالرغم مما يمتاز به ابن حيان من براعة في الاستيعاب والتحقيق ، ومن مقـدرة نقديـة فائقـة في استعرّاض الحوادث ، وبالرغم مما يمتاز به ابن بسام من جزالة وبيان مشرق ، في تصوير الأحداث والشخصيات ، فـان أحدا منهما لم يوفق الى شيء من تلك النظرات الصادقة ، والأحكام الصائبة النـافذة ، التى أبـداها ابن حـزم نحو أحداث عصره ، ونحو مجتمع الطوائف .

ملاحظات ساخرة لاذعة

وقد بدأ ابن حزم نظراته نحو مجتمع الطوائف في عصر مبكر ، وبدأها بتوجيه بعض الملاحظات الساخرة نحو بعض الأحداث . ومما ورد في كتابه

« نقط العـروس » ومن ذلك تعليقـه على مـا حدث من قيـام أربع خـلافات بالأندلس في وقت واحد ، ثلاثة يدعيها ثلاثة من امراء بني حمود ، وهم محمد بن القاسم بن حمود بالجزيرة ، ومحمد بن ادريس بن علي بن حمود بمالقة ، وادريس بن يحيى بن حمود بببشتر ، والرابعة يسبغها القاضي بن عباد صاحب أشبيلية على شخص زعم أنه المؤيد بالله . يقول ابن حزم في سخرية لاذعة « انها أخلوقة لم يقع في الدهر مثلها ، وفضيحة لم يقع في العالم الى يومنا مثلها ، يقوم أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام في مثلها ، كلهم يتسمى بامرة أمير المؤمنين ، ويخطب لهم في زمن واحد » .

ثم يعلق بعد ذلك على ما حدث من تصالح خليفتين من بنى حمود ، وهما يحيى المعتلى صاحب قرطبة ، والقاسم بن حمود المستعلى صاحب اشبيلية ، وتهادنهما ، واعتراف كل منهما بصفة صاحبه بقوله « إنه لم يسمع بخليفتين تصالحا ، وهو أمر لم يسمع في الدنيا بأشنع منه ، ولا أدل على ادبار الأمور » .

بيد أن هذه الملاحظات التهكمية اللاذعة وأمثالها ، تستحيل بعد ذلك عند ابن حزم ، الى نظرات تحليلة عميقة لأحوال مجتمع الطوائف ، وأحكام قاسية يصدرها الفيلسوف على هذا المجتمع المستهتر الذي تقضم اسسه عوامل الانحلال والتفكك المادي والأدبي . ويلتزم ابن حزم التعميم في نظراته وأحكامه ، ولكنه صريح فيها يقصد ، لا يلجأ الى مداجاة أو تورية ، وهو يدمغ سائر ملوك الطوائف لايستثنى في ذلك أحدا .

وقد وردت هذه الأحكام بالأخص في موضعين من رسائل ابن حزم ، الأول في مستهل رسالته في الرد على ابن النغريلي أو ابن نغرالة وزير غرناطة اليهودى . واليك مايقوله الفيلسوف في هذا الموطن :

« اللهم إنا نشكو اليك تشاغل أهل الممالك من أهل ملتنا بدنياهم عن إقامة دينهم ، وبعمارة قصور يتركونها عما قريب عن عمارة شريعتهم اللازمة لهم في معادهم ودار قرارهم ، وبجمع أموال ربما كانت سببا الى انقراض اعمارهم ، وعونا لأعدائهم عليهم ، عن حياطة ملتهم التى بها عزوا في

عاجلتهم ، وبها يرجون الفوز في آجلتهم ، حتى استشرف لذلك أهل القلة والذمة ، وانطلقت ألسنة اهل الكفر والشرك ، بما لو حقق النظر أرباب الدنيا ، لاهتموا بذلك ضعف همنا ، لانهم مشاركون لنا فيما يلزم الجميع من الامتعاض للديانة الزهراء ، والحمية للملة الغراء . ثم هم بعد ذلك مترددون بما يؤول اليه إهمال هذه الحال ، من فساد سياستهم ، والقدح في رياستهم ، فللاسباب أسباب ، وللمداخل الى البلاء أبواب ، والله أعلم بالصواب » .

ومن الواضح أن ابن حزم يقصد بكلامه أمراء الطوائف ، وهو هنا يركز اهتمامه حول رمي هؤلاء الأمراء باهمال حياطة الدين والذود عنه ، لمناسبة ما حدث من قيام اسماعيل بن نغرالة اليهودى بتاليف رسالة في الاسلام ، رأى فيها ابن حزم طعنا في بعض آيات القرآن ، ورأى تقصير باديس بن حبوس أمير غرناطة في ردع وزيره وفي الدفاع عن الدين . بيد انه لا يتجه هنا الى ذكر باديس دون غيره ، وانما يتجه الى مخاطبة أمراء الطوائف جميعا واتهامهم بنفس الاتهام المر . فهم جميعا في نظره سواء في التقصير في حق دينهم ، وفي الاشتغال عن صونه ، ببناء القصور والشئون الفانية

المحنة والفتنة

ثم إن ابن حزم لايقف عند هذا الحد في الحكم على ملوك الطوائف ، فإن هذه لم تكن في نظره سوى ناحية واحدة من نواحى استهتارهم وفسادهم . وهو يعود بعد ذلك في بعض رسائله الأخرى ، فيصدر حكمه الشامل ، على أولئك الأمراء وعلى سياستهم الداخلية والخارجية ، وعلى تصرفاتهم الباغية في حق رعاياهم . ولم يكن ابن حزم تحدوه في ذلك أية نزعة أو عاطفة شخصية كتلك النزعة التى تراها أحيانا تحدو ابن حيان أو ابن بسام أو ابن خاقان ، بل كانت تحدوه في ذلك قبل كل شيء نزعة قومية وانسانية . كانت تلك الحياة التى يحياها ملوك الطوائف ، وتلك الفوضى التى تغمر اعمالهم وتصرفاتهم ، وذلك الفساد

الشامل الذى يسود ممالكهم ، وذلك الجور الفادح الذى ينزلونه بشعوبهم ، يجعلون منهم عبيدا يستصفون ثرواتهم ، وثمار كدهم ارضاء لشهواتهم في انشاء القصور الباذخة واقتناء الجوارى والعبيد ، والانهماك في حياة الترف الناعم ، والاغداق على الصحب والمنافقين ، هذا فضلا عن حشد الجند لتأييد سلطانهم وتدعيم طغيانهم ، وما ترتب على ذلك من انهيار المعايير الدينية والأخلاقية ، واختلاط الحق بالباطل والحلال بالحرام . كل ذلك يجمله لنا ابن حزم في كلمة واحدة ـ المحنة أو الفتنة ـ ثم يصور لنا تلك المحنة أو الفتنة في كلمات قليلة ولكن قوية رائعة .

وصف الفتنة

وترد هذه الصورة القوية الخاسمة التى يجمل فيها ابن حزم فتنة الطوائف ، في رسالته المعنونة « رسالة التلخيص لوجوه التخليص » ، وهي عبارة عن ردود على بعض أسئلة في شئون دينية وفقهية وجهت اليه من بعض أصدقائه ، ومنها سؤال يتعلق بامر الفتنة ، وآخر عن وجه السلامة في المطعم والملبس والكسب .

يقول ابن حزم في الرد على سائليه :

« وأما ما سألتم من أمر هذه الفتنة وملابسة الناس بها ، مع ما ظهر من تربص بعضهم ببعض ، فهذا أمر امتحنا به ، نسأل الله السلامة . وهي فتنة سوء ، أهلكت الأديان إلا من وقى الله من وجوه كثيرة يطول لها الخطاب ، وعمدة ذلك أن كل مدبر مدينة أو حصن في اندلسنا هذه ، أولها عن آخرها ، محارب لله تعالى ورسوله وساع في الأرض بفساد ، والذى ترونه عيانا من شنهم الغارات على أموال المسلمين من الرعية التى تكون في ملك من ضارهم ، وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التى يقضون على أهلها ، وانهم ضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين ، مسلطون لليهود على قوارع طرق المسلمين في

اخذ الجزية والضريبة من أهل الاسلام ، معتذرون بضرورة لا تبيح ما حرم الله ، غرضهم فيها استدامة نفاذ أمرهم ونهيهم ، فلا تغافلوا انفسكم ، ولا يغرنكم الفساق والمنتسبون الى الفقه ، اللابسون جلود الضان على قلوب السباع ، المزينون لأهل الشر شرهم ، الناصرون لهم على فسقهم » .

ولقد كان الفقهاء في الواقع ، في هذا العصر الذى ساد فيه الانحلال والفوضى الأخلاقية والاجتماعية ، أكبر عضد لأمراء الطوائف في تبرير طغيانهم وظلمهم ، وتزكية تصرفاتهم الجائرة ، وابتزازهم لأموال الرعية ، وقد كانوا يأكلون على كل مائدة ، ويتقلبون في خدمة كل قصر ، ليحرزوا النفوذ والمال ، ويضعون خدماتهم الدينية والفقهية لتأييد الظلم والجور ، وخديعة الناس باسم الشرع . وقد انفسح لهم ، في ظل الطوائف خاصة مجال العمل والدس والاستغلال . واحتضنهم الأمراء الطغاة ، وأغدقوا عليهم العطاء . وقد فطن الى ذلك ، الى جانب ابن حزم ، قرينه ومعاصره المؤرخ ابن حيان ، فحمل على الفقهاء ، ونوه بصمتهم عن فضح الظلم الذى يرتكبه الأمراء ، لأنهم على قوله « قد أصبحوا بين آكل من حلوائهم وخابط في أهوائهم » .

ثم يعود ابن حزم وهو في صدد الاجابة عن وجه السلامة في المطعم والملبس والمكسب ، فينوه بما كان يسود مجتمع الطوائف من اختلاط الحرام بالحلال ، وانعدام الكسب الحلال ، وسيادة الظلم في جباية الضرائب ، ومجانبتها لحكم الشرع ، وهى حالة يقدم الينا عنها الصورة الآتية :

« وأما الباب الثانى ، فهو باب قبول المتشابه ، وهو في غير زماننا هذا باب

جديد لا يؤثم صاحبه ولا يؤجر ، وليس على الناس أن يبحثوا عن أصول ما يحتاجون اليه في أقواتهم ومكاسبهم ، اذ كان الأغلب هو الحلال ، وكان الحرام مغمورا . وأما في زماننا هذا وبلادنا هذه ، فإنما هو باب اغلق عينيك ، واضرب بيديك ، ولك ما تخرجه ، إما تمرة وإما جمرة . وإنما فرقت بين زمان هذا والزمان الذى قبله لأن الغارات في أيام الهدنة لم تكن غالبة ظاهرة كما هي اليوم ، والمغارم التي كان يقبضها السلاطين ، فإنما كانت على الأرضين خاصة ، وأما اليوم فهى جزية على رؤوس المسلمين يسمونها بالقطيعة ويؤدونها مشاهرة ، وضريبة على أموالهم من الغنم والدواب والنحل برسم على كل رأس ، وعلى كل خلية شيء ما ، وقبالات مايؤدى على كل ما يباع في الأسواق ، وعلى إباحة بيع الخمر من المسلمين في البلاد .

هذا كله ما يقبضه المتغلبون اليوم . وهذا هو هتك الأستار ، ونقض شرائع الاسلام ، وحل عراه عروة عروة ، وإحداث دين جديد ، والتخلى من الله عز وجل » .

هـذا وان ابن حزم ليبلغ ذروة العنف والقسوة في الحملة على أمراء الطوائف ، واستهتارهم بأحكام الدين ، وما اتسموا به من ضعف في الايمان والعقيدة حينما يقول بعد ذلك :

« والله لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية لأمورهم لبادروا اليها ، فنحن نراهم يستمدون النصارى ، فيمكنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم ، يحملونهم أسارى الى بلادهم ، وربما يحمونهم عن حريم الأرض وحشرهم معهم امنين . وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعا ، فأخلوها من الاسلام وعمروها بالنواقيس ، لعن الله جميعهم ، وسلط عليهم سيفا من سيوفه » .

وإنا لا نستطيع أن نتصور أبلغ من ذلك وأروع ، في تصوير مجتمع الطوائف ، وتحليل عوامل ذلك الانحلال الشامل الذى كان يحيق بحياته الدينية والاجتماعية ، وفي تصوير استهتار أمراء الطوائف ، وضعف ايمانهم ، وجنوحهم الى البغى وخرق أحكام الدين . وانا لا نذكر انه قد اتيح لمؤرخ

قبل ابن حزم أو بعده ، أن يجعل مثل هذه الأحداث الضخمة لعصر بأسره ، وتلك الأحوال الشنيعة المتباينة ، وهذه التصرفات الذميمة المبيرة لطائفة كبيرة من الأمراء والحكام ، في مثل تلك العبارات الموجزة التي يجمل فيها ابن حزم حكمه على مجتمع الطوائف .

فهل كان ابن حزم مبالغا ؟ وهل كان بالاخص متحاملا ؟

هذا ما لا نعتقد . لقد كان ابن حزم يشير بأسلوبه القوى اللاذع الى وقائع وظروف تؤيدها كل الروايات والوثائق المعاصرة ، وكان بحكم مركزه الاجتماعى الممتاز ، ورفيع مكانته العلمية والدينية يستطيع أن يرى من أوضاع الأمور ما لا يستطيع أن يراه غيره . وقد أصدر ابن حزم احكامه على دول الطوائف وامرائها باسلوبه القوى الصارم الذي لا تعتوره هوادة ولا تردد ، وبطريقته الحاسمة التي تطبع سائر آرائه ونظرياته .

نهاية مؤرخ وفيلسوف

وقد توفى ابن حزم في سنة ٤٥٦هـ (١٠٦٤م) ، وممالك الطوائف في ابان قوتها وازدهارها ، وقبل أن تنحدر الى ما انحدرت اليه فيما بعد من الانحلال المعنوى الشامل . بل لقد كان كل ما انتهت اليه تلك « الفتنة » القومية ـ فتنة الطوائف على حد قول ابن حزم ـ من سقوط طليطلة حصن الأندلس الشمالى ، وانخذال ممالك الطوائف ، ووقوعها جميعا تحت رحمة ملك قشتالة ، كان ذلك كله مما يؤيد أقوال ابن حزم وتنبؤاته . ولو شهد الفيلسوف هذه المرحلة الأخيرة من انحلال ممالك الطوائف ، لكان بلا ريب في نظراته وأحكامه ، أشد قسوة وعنفا .

لقد كان ابن حزم مؤرخا عظيما ، كما كان فيلسوفا عظيما ، وإماما من أعظم ائمة التفكير الاسلامى .



ابن خلدون وابن الخطيب

يعرض لنا تاريخ التفكير العربي في القرن الثامن الهجري ، سيرة رجلين عظيمين تجمع بينهما طائفة من المشابهات القوية ، سواء فيما خاضه كل منهما من حياة غريبة مثيرة ، أو فيما خلفه كل منهما من تراث غزير منوع ، أو فيما كان يتبوأه كل منهما في قطره ، وفي عصره ، من مكانة بارزة في عالم التفكير والآداب .

هذان الرجلان هما : ابن خلدون ، وابن الخطيب . وقد عاش كلاهما في نفس العصر ، وخاض كلاهما غمار السياسة ، وتقلب في حياة القصور ، وتبوأ ذروة السلطان ، وذاق محنة الاعتقال والنفي ، وجمعت بينهما الصداقة والتقدير المتبادل ، وتخللت صداقتهما عوامل الغيرة والنفرة في بعض الأحيان .

أول لقاء بين الرجلين

وقع أول لقاء بين هذين الرجلين العظيمين في ظروف مثيرة مشجية . خلاصتها : أن ابن الخطيب وفد منفيا على المغرب مع سلطانه المخلوع محمد الغني بالله ملك غرناطة ، وكانت الثورة قد أطاحت بعرشه وحملته على أن يعبر البحر مع وزيره ، ملتجئا الى حماية السلطان ابي سالم المريني ملك المغرب .

العربي العدد ٨٥ ديسمبر ـ كانون أول ١٩٦٥ م .

ووصل الغني بالله ووزيره ابن الخطيب ومن معهما من الحاشية والصحب الى فاس، في المحرم سنة ٧٦١ هـ ، فاستقبلهم السلطان ابو سالم أحفل استقبال واحتفل بقدومهم في يوم مشهود ، وانشد ابن الخطيب بين يدي السلطان يومئذ قصيدة من أروع قصائده ، يدعوه فيها لنصرة سلطانه وهذا مطلعها

سلا هل لديها من مخبرة ذكر
وهل أعشب الوادي ونم به الزهر
وهل باكر الوسمي دارا على اللوى
عفت ايها إلا التوهم والذكر
بلادي التي عاطيت مشمولة الهوى
بأكنافها والعيش فينان مخضر
وجوي الذي ربى جناحي وكره
فها أنا ذا مالي جناح ولا وكر

وكان ابن خلدون ، وهو يومئذ من أكابر رجال الدولة في بلاط فاس ، من شهود ذلك الحفل . وهو يصفه لنا ، ويقول لنا ان ابن الخطيب أبكى سامعيه تأثرا وأسى . ويقول لنا ابن الخطيب نفسه: إن القوم كانوا يرجفون تأثرا لانشاده ، وتسيل منهم العبرات .

والتقى ابن الخطيب وابن خلدون في هذا الحفل لأول مرة ، وكان هذا اللقاء بين الرجلين العظيمين ، حادثا في حياة كل منهما ، له أثره ونتائجه . وكان كل منهما يسمع عن صاحبه ويتوق الى لقائه ، حتى جمعت بينهما الحوادث .

مشابهات عديدة

وكانت تجمع بينهما بالرغم من فارق السن ـ اذ كان ابن خلدون في شرخ شبابه ، وكان ابن الخطيب في طور الكهولة ـ مشابهات عديدة ، أدبية ومادية

فقد كان كلاهما استاذ عصره ، قطره ، في التفكير والكتابة . وكان كلاهما شخصية بارزة في حوادث عصره ، يتصل منها بأوثق صلة ، ويخوض غمارها ، متقلبا بين الظفر والمحنة ، وكان كلاهما وزيرا مستبدا ، ومستشارا لأمراء عصره ، ومحرضا لهم أو عليهم

كان ابن خلدون يشغل في دول المغرب نفس المركز الذي كان يشغله ابن الخطيب في الاندلس ، وقد استأثر في المغرب بزعامة التفكير والكتابة التي كان يستأثر بها ابن الخطيب في الاندلس . وقد جمعت بين الرجلين أواصر الحب والصداقة في البداية ، ثم فرقت بينهما عوامل الغيرة والتنافس . وكان كل منهما ، بالرغم من ذلك ، يحترم صاحبه ويجله ، ويكبر مواهبه وخلاله ، وقد ترجم كل منهما للآخر ، وذكره بما ينم عن خالص التقدير والاجلال ، وتبادلا طائفة من الرسائل الشخصية والسياسية ، تعتبر من ابدع نماذج النثر والترسل في هذا العصر .

يقول لنا ابن خلدون في ترجمته لابن الخطيب « انه بلغ في الشعر والترسل حيث لايجارى فيهما ، وملأ الدولة بمدائحه ، وانتشر في الآفاق قدماه » ثم ينوه بعد ذلك بروعة رسائله السلطانية ، وبعد همته في الادارة والحكم . ويعترف ابن خلدون في موضع آخر ، بأنه لم يستطع مساجلة ابن الخطيب في الترسل والسجع ، اذ لم يكن شأوه يُلحق في ذلك . وأخيرا يجمل لنا ابن خلدون تقديره لابن الخطيب واعجابه به « في تلك الكلمة الجامعة : » كان الوزير ابن الخطيب آية من آيات الله في النثر والنظم ، والمعارف والادب ، ولا يساجل مداه ، ولا يهتدى فيها بمثل هداه .

والحقيقة التي لا ريب فيها ان ابن الخطيب ، يتفوق على ابن خلدون في اسلوبه البياني ، سواء في الرسائل السلطانية أو في كتابة التاريخ . ولا شك ان اسلوب ابن خلدون التاريخي ، يعتبر من ارفع الاساليب التاريخية ، من حيث قوة التعبير ، وابراز المعاني ، ومن حيث الاصالة ، وضبط النفس والمشاعر ، وان ابن الخطيب لايجاريه في ذلك . وانه في احيان كثيرة يترك العنان لأهوائه

وعواطفه الشخصية ، ويمزج العرض التاريخي بالحملات العنيفة ، التي ترجع الى بواعث شخصية محضة . ولكنه يمتاز في عرضه التاريخي ، ببيان قوي ساحر ، لا يجاريه فيه أحد من المؤرخين المسلمين . أما رسائله السلطانية فتعتبر من أروع نماذج الكتابة الدبلوماسية في الادب العربي ، سواء في المشرق أو المغرب .

ابن الخطيب يشيد بابن خلدون

ويشيد ابن الخطيب كذلك بخلال ابن خلدون ومواهبه ، ومقدرته العلمية والبيانية ، ويصفه في ترجمته له بما يأتي : « جم الفضائل ، باهر الخصال ، رفيع القدر ، ظاهر الحياء ، اصيل المجد ، وقور المجلس ، عالي الهمة ، عزوف عن الضيم ، صعب المقادة ، قوي الجأش ، طامح لقنن الرياسة ، خاطب للخط ، متقدم في عدة فنون عقلية ونقلية ، متعدد المزايا ، سديد البحث ، كثير الحفظ ، صحيح التصور » .

ويصف لنا نثره ونظمه في قوله : « أما نثره وسلطانياته السجعية فخلج بلاغة ، ورياض فنون ، ومعادن ابداع ، يفرغ عنها يراعه الجريء . شبيهة البداءات بالخواتم ، في نداوة الحروف وقرب العهد بجرية المداد ، ونفوذ امر القريحة ، واسترسال الطبع . واما نظمه فنهض لهذا العهد قُدُما في ميدان الشعر ونقده ، باعتبار اساليبه ، فانثال عليه جوه ، وهان عليه صعبه ، فأتى منه بكل غريب » .

ويلاحظ ان ابن الخطيب ترجم لصديقه ابن خلدون عند وضعه لكتابه « الاحاطة » ما بين سنتي ٧٦٥ و ٧٧٠ هـ ، وذلك قبل ان يكتب ابن خلدون تاريخه الكبير ، ومقدمته الفريدة ، ثم توفي قتيلا في سنة ٧٧٦ هـ . ومن المحقق أنه لو امتد الأجل بابن الخطيب - حتى ادرك التاريخ والمقدمة - لكان له فيهما رأي من أجل الآراء وأعظمها .

وعبر ابن خلدون الى الاندلس في شهر ربيع الاول سنة ٧٦٤ هـ ، بعد ان فقد مناصبه في بلاط فاس ، عقب مصرع السلطان ابي سالم ، وتغلب الوزير عمر بن عبدالله على الدولة ، وتوجسه من مشاريع ابن خلدون واطماعه ، فتلقاه السلطان الغنى بالله وصديقه الوزير ابن الخطيب بأجمل آيات الترحاب والمودة ، واغدق عليه السلطان رعايته ، وبعثه سفيرا عنه الى ملك قشتالة ، وغمره باحسانه وصلاته . ولكنه ما لبث ان شعر بانقباض السلطان عنه ، وشعر في نفس الوقت ، ان لصديقه القديم الوزير ابن الخطيب يدا في هذا التحول ، وهنا لم يجد ابن خلدون بدا من مغادرة الاندلس ، فغادرها آسفا ، وعاد الى المغرب ، ليخوض مرحلة اخرى من المغامرات والخدمات في قصوره .

وبالرغم مما سرى يومئذ الى علائق المفكرين العظيمين من كدر ، فقد لبث كلاهما يحتفظ ازاء صاحبه بمظاهر المودة والتقدير ، واستمرا يتبادلان الرسائل من آن لآخر ، ثم شاء القدر ان تتطور الظروف في الاندلس ، وان يفقد الوزير ابن الخطيب حظوة مليكه ، وان يشعر بتجهم الجو من حوله ، ونجاح خصومه في السعاية في حقه ، وعندئذ اتخذ قراره الشهير بمغادرة الاندلس والهجرة الى المغرب ، ولم يكشف لمليكه حقيقة نيته الا حينما ارسل اليه خطاب الوداع ، عقب دخوله جبل طارق ، وكان يومئذ من املاك بنى مرين ، وكان ابن الخطيب قد دبر امره بالاتفاق مع السلطان عبدالعزيز المريني ملك المغرب ، وكانت تجمع بينهما اواصر صداقة متينة ، وعبر ابن الخطيب البحر الى المغرب في اوائل سنة ٧٧٣ هـ وسار تواً الى تلمسان ، حيث كان السلطان عبدالعزيز يعقد بلاطه ، على أثر افتتاحه لها ، وشمل السلطان الوزير المنفى بوافر اكرامه وجزيل عطائه .

وكتب ابن الخطيب الى صديقه ابن خلدون ، وكان يقيم يومئذ ببسكرة ، يخبره بمقدمه ويعتب عليه ، فيما كان منه بحقه في الاندلس ، فرد عليه ابن خلدون برسالة مؤثرة يؤكد فيها حبه وتقديره ويهنئه بنجاته .

وعاش ابن الخطيب حينا في سلام ودعة ، ولكن فراره على هذا النحو لم يهدىء خصومه بغرناطه ، بل كان بالعكس ذريعة جديدة لديهم ، تنهض على ادانته وخيانته لوطنه ومليكه ، فضاعفوا سعيهم لمطاردته وملاحقته ، والعمل على تلويث سمعته وسحق هيبته ، واتهموه بالخروج على شريعة الاسلام ، ونسبوا اليه في ذلك اقوالا ومقالات ، مماجاء في بعض كتبه ورسائله ، اولوها وفق مقاصدهم ، وزعموا ان منها ما يتضمن طعنا في النبي والقول بالحلول ، واعتمدوا في ذلك على بعض ما جاء في رسالته المشهورة « روضة التعريف بالحب الشريف » ، واعتبروا ان ما جاء في كتبه التاريخية ، مثل « الاحاطة » وغيره مما يتناول التاريخ المعاصر ، إنما هو من قبيل الغيبة المحرمة .

يحرقون كتب ابن الخطيب

وتولى صوغ الاتهام قاضي غرناطة أبو الحسن النباهي ، وأفتى بوجوب حرق كتب ابن الخطيب ، فجمعت واحرقت ، ووجه إلى ابن الخطيب بالمغرب ، رسالة شديدة ، يبسط فيها ما تقدم من التهم ، وينحى على ابن الخطيب بشديد اللائمة ، ويتهمه فضلا عن الالحاد والزندقة ، بخيانته لوطنه ومليكه ، ويعدد مثالبه ومظالمه ، اثناء قيامه بالحكم ، وما كان من تدخله في شئون القضاء ، وجمعه الاموال بمختلف الطرق ، وغير ذلك مما يشين حكمه وشخصه .

وبعث سلطان غرناطة الى السلطان عبدالعزيز برسله ، يحملون صيغة الاتهام ضد الوزير الملحد ، ويطالبون بانفاذ حكم الشرع فيه ، وهو الاعدام ، فردهم السلطان بأنفة واستكبار ، وزاد في اكرام ابن الخطيب ورعايته .

وشاء القدر أن يتوفى السلطان عبدالعزيز بعد ذلك بقليل ، في شهر ربيع الآخر سنة ٧٧٤ هـ ، فأعلن ولده الطفل السعيد ملكا مكانه ، وانتقل البلاط على أثر ذلك من تلمسان الى فاس ، وسار ابن الخطيب في صحبة الوزير ابن

الغازي المتغلب على الدولة . ولقي منه مثل ما كان يلقاه من الملك الراحل ، من ضروب الحماية والرعاية . وعاش ابن الخطيب فترة واقتنى الدور والضياع . وحاول الغني بالله سلطان غرناطة مرة اخرى أن يحمل الوزير ابن غازي ، على التنكر لابن الخطيب ونكبته ، فأبى الوزير وكان الغني بالله يضطرم بغضا ضد وزيره السابق ، لما كان يعتقده من انه كان يحرض السلطان عبدالعزيز على غزو الاندلس . ومن ثم كانت هذه المساعي المتكررة في سبيل اهلاكه .

على ان القدر كان يتربص بابن الخطيب ، وسرعان ما تطورت حوادث المغرب ، وتمخضت عن انقلاب جديد ، ترتب عليه سقوط الوزير ابن غازي ومليكه الطفل السعيد ، وجلوس السلطان احمد بن ابي سالم المريني على العرش وذلك في اوائل سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٤ م) . وكان السلطان احمد تربطه بالغني بالله مودة وثيقة ، اذ كان الغني بالله هو الذي عاونه بالمال والرجال على ارتقاء العرش . وكان من الواضح عندئذ ان مصير ابن الخطيب قد بت فيه .

وكان ابن الخطيب قد لجأ اثناء ذلك الى البلد الجديد (ضاحية فاس الملوكية) . وكان التفاهم قد تم بين الغني بالله والسلطان احمد ، بشأن ابن الخطيب ومصيره ، فلما وقع الانقلاب المنشود ، وجلس السلطان احمد على العرش ، بادر بالقبض على ابن الخطيب ، وبعث الغني بالله وزيره ابن زمرك ليشرف على الاجراءات التي تتخذ ضد الوزير المنكوب . ووجهت الى ابن الخطيب التهم السابقة ، وهي التي وجهت اليه في غرناطة ، من دينية وسياسية .

محاكمة ابن الخطيب

ورأى السلطان احمد ان يعقد مجلسا من رجال الدولة واهل الشورى ، واستدعى اليه ابن الخطيب لمناقشته ، ومواجهة التهم المنسوبة اليه ، واخصها

تهمة الالحاد والزندقة . وعزز ابن الخطيب ، وعذب أمام الملأ ، وأفتى بعض الفقهاء المتعصبين بوجوب اعدامه ودس عليه وزير السلطان احمد ، سليمان بن داوود ، بعض الأوغاد فقتلوه خنقا في سجنه ، وكان ذلك في جمادى الاولى سنة ٧٧٦ هـ (اكتوبر سنة ١٣٧٤ م) واخذت جثته في الغد واضرمت فيها النار فاحترق شعر الرأس واسودت البشرة ، ثم حملت الى القبر قبل ان تأتي عليها النار ، وتركت هنالك لتثوى الثواء الاخير ، وما زال هذا القبر يقوم الى يومنا في مكانه على مقربة من باب المحروق احد ابواب فاس التاريخية .

وهكذا ذهب الكاتب والمفكر الكبير ضحية الجهالة والتعصب ، والاحقاد السياسية الوضيعة . وهنا - وفي الصفحة الأخيرة من حياة ابن الخطيب - يمثل ابن خلدون مرة اخرى . ويجمل ابن خلدون حوادث هذه المأساة في قوله في مقدمته ، مشيرا الى صديقه ابن الخطيب : « بأنه هو الهالك لهذا العهد شهيدا بسعاية أعدائه » ويعلق عليها في تاريخه بقوله : « وكان ذلك انتهاء محنته ، وعجب الناس من هذه السفاهة التي جاء بها سليمان ، واعتبروها من هناته ، وعظم الكبر فيها عليه ، وعلى قومه وأهل دولته » ونحن لا نستشعر فيما يكتبه ابن خلدون عن مصرع صديقه العظيم ، شيئا من عميق التأسي ، ولا نلمس في وصفه للمأساة كل ما يجب أن تثيره من الافكار والروع ، ودمغ الجناة بكل ما يجب أن يدمغوا به من الصفات القاتمة المثيرة . أجل إن ابن خلدون ، يقص علينا في « التعريف » او ترجمته لنفسه ، ان ابن الخطيب كتب اليه من محبسه « مستصرخا ومتوسلا » ، وكان ابن خلدون يومئذ قد عبر الى الاندلس في رحلته الثانية ، ويزيد ابن خلدون على ذلك بأنه خاطب في شأن صديقه بعض أهل الدولة ، فلم تنجح سعايته . ولكن ذلك لا يزيل هذا الشعور الذي يخاجلنا من أن ابن خلدون ، حسبما يبدو من لهجته الهادئة ، لم يهتز لمصرع صديقه العظيم ، ولم يستقبله بكثير من التلهف والجزع ، شأنه في كثير من الأحداث العنيفة المماثلة .

ابن حيان وكتابه "المقتبس في تاريخ الأندلس"

يعتبر أبو مروان بن حيان ، بين مؤرخي الأندلس ، أصدقهم رواية وأبلغهم أسلوبا ، وأبرعهم نقدا . وقد كنا حتى ربع القرن الأخير ، ندرس شخصية ابن حيان ، وخواص منهجه التاريخي ، في معظم الأحيان ، مما ينقله الينا المؤرخون المعاصرون أو المتأخرون من تاريخه ، من شذور وفصول مختلفة ، ولكن ما أسفرت عنه البحوث الأخيرة من العثور على عدة قطع مخطوطة من تاريخه الكبير ، يضع أمامنا مادة غزيرة من تراث هذا المؤرخ البارع ، نستطيع على ضوئها أن نقدر أهمية هذا التراث بالنسبة لتاريخ الأندلس بصفة عامة ، وبالنسبة لتاريخ العصر الذى عاش فيه ابن حيان ، وهو عصر انهيار الخلافة وعصر الطوائف ، بصفة خاصة ، ونستطيع من جهة أخرى أن ندرس بصورة أفضل خواص منهجه التاريخي ، وأسلوبه النقدي .

وينتمي ابن حيان إلى أسرة نابهة من الموالى . وهو أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان بن محمد بن حيان بن وهب بن حيان ، وكان جده الكبير حيان مولى للأمير عبدالرحمن بن معاوية بن هشام ، أو عبدالرحمن الداخل أمير الاندلس ، ومؤسس دولة بني أمية بها .



ولد ابن حيان بقرطبة في سنة ٣٧٧هـ (٩٨٧م) ودرس بها ، وكان أبوه خلف بن حيان من وزراء المنصور بن أبي عامر . وكانت قرطبة قد غدت يومئذ أعظم مركز للدراسات الممتازة بالأندلس ، وأضحت جامعتها الشهيرة منذ أواخر عهد الحكم المستنصر وأوائل عهد المنصور أعظم الجامعات الأندلسية . ودرس ابن حيان الحديث والأدب واللغة ، وكان من أساتذته أبو حفص عمر بن نابل المحدث ، وأبو عمر بن أبي الحباب النحوي صاحب أبي علي القالي ، وأبو العلاء صاعد بن الحسن البغدادي نزيل قرطبة وأخذ عنه كتابه « الفصوص » .

برع ابن حيان في الأدب والرواية ، حتى غدا من أعلامها ، وخاصة محققيها ، وكانت نشأته الارستقراطية ، وعلائق أسرته بالأوساط العليا ، تتيح له حسن الاطلاع ، والوقوف على شئون الدولة ، ودراسة مختلف التيارات السياسية ، وشهد ابن حيان في شبابه سقوط الدولة العامرية ، وما تلاه من ترنح الخلافة الأموية ، ثم انهيارها ، وقيام دول الطوائف في بداية القرن الخامس الهجري . ولا ريب ان هذه الاحداث المثيرة التي مزقت وحدة الوطن الاندلسي ، قد أذكت مخيلة ابن حيان وصقلت قلمه ، وأمدته بكثير من التعليقات الصائبة ، والملاحظات النقدية القوية التي نراها ماثلة في معظم ما كتبه عن حوادث عصره .

وقد سنحت لابن حيان ـ وهو معاصر لدول الطوائف ، ومدونٌ لأحداثها ـ فرصة لكي يدرس أحوال هذه الدويلات عن كثب ، فقد ولي الوزارة لبني جهور سادة قرطبة ، وحكامها عن طريق نظام « الجماعة » الشورى . وكان بخاصة من معاوني أبي الوليد محمد بن جهور ، ولد أبي الحزم بن جهور مؤسس حكومة الشورى ، ثم وزر من بعده لولده عبدالملك بن جهور .

ولسنا نعرف إن كان ابن حيان قد استمر في منصبه في الوزارة حتى سقطت دولة بني جهور على أثر افتتاح المعتمد بن عباد لقرطبة في سنة ٤٦٢هـ (١٠٧٠م) ، واستأثر بنو عباد بهذا الفتح دون بني ذي النون أصحاب طليطلة ، وقد كانوا يطمحون الاستيلاء على قرطبة ، فسبقهم بنو عباد إلى انتزاعها . ولكننا نعرف أن ابن حيان قد وجه على أثر هذا الفتح إلى المعتمد بن عباد رسالة تهنئة حارة ، نقلها الينا ابن بسام في الذخيرة ، وفيها يحمل ابن حيان على المأمون بن ذي النون في عبارات ملتهبة لاذعة

تناقض مؤلم

هنا نقف قليلا لنسجل على ابن حيان موقف تناقض مؤلم ، ذلك أنه حسبما يخبرنا ابن بسام يُهدى مؤلفه التاريخي العظيم في مقدمته إلى المأمون بن ذي النون ، ويصفه « بالأمير المؤثل الإمارة ، ذي المجدين ، الكريم الطرفين » وبالرغم من أن ابن بسام يشيد بمجهود ابن حيان التاريخي ، وينقل عنه في « الذخيرة » شذورا اضافية ، ويستشهد به في كثير من المواطن ، فإنه ينتهز هذه الفرصة ، للحملة على ابن حيان ، لمواقفه المتناقضة من أمراء الطوائف ، وتردده في ذكرهم بين المديح والذم . وفي رأيه أن هذا التاريخ بالرغم مما لقيه لدى بعض أولئك الامراء من ترحاب وتقدير ، وما أجزلوه عنه من صلات ، فإن ابن حيان « قد أخطأ التوفيق وما أصاب » . اذ جاءت معظم أقواله كالسهام المرسلة ، في قدح في الأحساب والأعراض ، وطمس للمعالم والانوار . وسوف نرى إلى أي حد يمكننا الاعتداد بأقوال ابن بسام في الحكم على مجهود ابن حيان

« المقتبس في تاريخ أهل الأندلس »

ذلك أن مجهود ابن حيان التاريخي يحظى بالعكس بأعظم تقدير ، وأشهر كتب ابن حيان هو كتابه « المقتبس في أخبار أهل الأندلس » ، وهو تاريخ للأندلس

حتى عصره ، أي إلى عصر الطوائف . ولدينا الآن منه عدة قطع مخطوطة ، الأولى تتعلق بتاريخ سنيْ ١٨٠ إلى ٢٣٢هـ ، والثانية تليها تتعلق بتاريخ سنى ٢٣٢ إلى ٢٦٧هـ ، والثالثة تتعلق بعصر عبدالرحمن الناصر ، وهى أكبر القطع المخطوطة التي وجدت ، والرابعة تتعلق بحوادث سنيْ ٣٦٢ - ٣٦٥هـ . وهذا إلى جانب ماانتهى الينا من شذور وفصول عديدة عن طريق ابن بسام وغيره من الكتاب والمؤرخين اللاحقين .

وهكذا نستطيع اليوم أن نكوِّن من هذه الأجزاء العديدة فكرة واضحة عن كتاب « المقتبس » ، وهو بلا ريب أقيَم ما في تراث ابن حيان التاريخي ، وقد اشتهر ابن حيان في عصره بصدق الرواية وبلاغة الأسلوب ، ونحن نشعر على أضواء معاييرنا المعاصرة أن ابن حيان يقدم الينا أقيم الروايات وأنفسها ، وأحفلها بالتعليقات النقدية ، وأن أسلوبه التاريخي يتسم بروح علمي ونقدي بارز ، وفى رأينا أن ابن حيان يضارع من مؤرخي المشارقة المسلمين ، المسعودي وابن الأثير ، وأنه يجمع في أسلوبه القوى بين بلاغة العرض التي يمتاز بها المسعودي ، وبين روح التحقيق والنقد التي يمتاز بها ابن الأثير .

ويرجع ابن حيان بالأخص إلى أسلافه من مؤرخى الأندلس ، لا سيما أحمد بن محمد بن موسى الرازي المتوفى سنة ٣٤٤هـ صاحب كتابى « أخبار ملوك الأندلس » و « الاستيعاب في أنساب أهل الأندلس » وهما من المؤلفات التى لم تصل الينا . وإلى ولده عيسى بن احمد الرازي ، والى ابن القوطية المتوفى سنة ٣٦٧هـ ، ومعاوية بن هشام الشبنسي ، كما ينقل الينا عن بعض أكابر معاصريه مثل ابن الفرضى المتوفى سنة ٤٠٣هـ ، وابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦هـ ، وابن عبدالبر المتوفى سنة ٤٦٣هـ .

وهو يجمع في طريقته بين طريقة الحوليات ، فيقدم الينا الحوادث مرتبة وفق السنين ، وأحيانا يحدثنا عن الحوادث والأشخاص في فصول خاصة .

العناية بالوثائق الرسمية

يعنى ابن حيان عناية خاصة بايراد الوثائق الرسمية الهامة ، وهو يورد لنا منها عدة ، لا نجدها في أي مصدر آخر من مصادر التاريخ الأندلسي ، مثل كتاب الحكم بن هشام عن ثورة الربض ، وكتاب الناصر في الحملة على ابن مسرة وتعاليمه الالحادية ، وكتابه عن موقعة الخندق ، وغيرها ، وهي وثائق نقف عليها إلا في تراث ابن حيان المخطوط .

أما ما ينسبه ابن بسام إلى ما ورد في روايات ابن حيان المعاصرة عن رجالات عهد الطوائف من المديح والذم ، من ميل مع الهوى ومجانبة للحق ، فمسألة ترجع إلى روح العصر نفسه .

لقد عاش ابن بسام في أعقاب عهد الطوائف وفي عهد المرابطين ، بعد أن غاضت قصور الطوائف وغاضت معها تلك الحلقات الأدبية الزاهرة التي امتازت بها تلك القصور . ولم يمارس ابن بسام تلك الصلات الشخصية التي كان يمارسها كتاب عصر الطوائف مع أمراء عصرهم ، ولم ينضو تحت حماية أحد من الأكابر . أما في عصر الطوائف فقد كان كل بلاط يضم جمهرة من الكتاب والشعراء تسطع حوله ، وكان كل كاتب أو شاعر ينضوى تحت لواء أمير من الأمراء ، وكان تنقل الكتاب والشعراء بين مختلف القصور من الأمور الذائعة في ذلك العصر ، ولم يشذ ابن حيان عن هذه القاعدة ، فهو قد خدم الدولة الجهورية ، وهو قد اتصل بأكثر من أمير من أمراء عصره ، وفي مقدمتهم بنو عباد ، وبنو ذى النون ، وهو قد عاصر كثيرا من الأحداث التى كانت تقع بين مختلف القصور والأمراء ، وكان من الطبيعى ، أن يتأثر ابن حيان بمختلف المؤثرات الشخصية والعاطفية المترتبة على تلك الصلات وتلك الظروف . ولم يكن ذلك شأن ابن حيان وحده ، وانما كان شأن معظم الكتاب والرواة الذين عاصروا الطوائف وخدموا قصورها واتصلوا بأمرائها . وفى رأينا أن هذه النزعة

العاطفية التي تسربت إلى بعض ما كتبه ابن حيان عن امراء الطوائف لاتنقص كثيرا من قيمة ذلك التراث التاريخي النفيس الذي خلفه لنا .

مؤلفان آخران

نحن نعرف أن ابن حيان قد كتب غير « المقتبس » مؤلفين آخرين هما « المتين » وهو تاريخ للأندلس ، وتبالغ بعض الروايات في ضخامته ، وتصفه بانه يقع في « ستين جزءا » ، وكتاب « المآثر العامرية » أو « اخبار الدولة العامرية » ، وهو ايضا مؤلف ضخم يقص فيه ابن حيان سيرة المنصور بن أبي عامر وتفاصيل غزواته ، وله فوق ذلك كتاب « البطشة الكبرى » وهو رسالة تتضمن تفاصيل سقوط دولة بني جهور أمراء قرطبة الذين خدمهم ابن حيان ، ولم يصلنا شيء من هذه المؤلفات الاخيرة غير بعض الشذر التي نقلها الكتاب المتأخرون .

عاش ابن حيان أكثر من تسعين عاما وتوفي في اليوم السابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٤٦٩هـ (٣١اكتوبر ١٠٧٦م) ودفن بمقبرة الربض في جنوب شرقي قرطبة ، على مقربة من نهر الوادى الكبير ، وكانت مثوى العظماء والكبراء .



بين ابن الخطيب والسخاوي

يشغل فنّ الترجمة في الأدب العربي فراغا كبيرا ، ويتناول معظم العصور والطوائف ، ولا شك أن وفيات الأعيان لابن خلكان ، تقدم الينا أروع نماذج لتراجم الاشخاص في الأدب العربي قاطبة . وهى نماذج منوعة تشمل كل فئة وكل طائفة ، منذ عصور الاسلام الاولى حتى عصر المؤلف ، اعنى الى اواخر القرن السابع الهجرى . ومنذ عصر ابن خلكان تتوالى معاجم الترجمة ، وتميل الى التخصص ، احيانا بعصر بذاته ، واحيانا بطائفة معينة ، واحيانا بقطر معين .

وقد بلغ فن الترجمة منذ القرن الثامن الهجرى ، أوْجَه من الاستيعاب والتخصص ، فنرى عددا كبيرا من معاجم التراجم ، تضم مجموعات مختلفة ، من تراجم الطبقات ، وتراجم العصر ، وتراجم المكان ، ومنها موسوعات ضخمة ، ونرى اكبر مجموعة من هذه المعاجم تصدر فى مصر فى القرنين الثامن والتاسع ، اذ كانت مصر يومئذ ، منذ اجتياح التتار للدولة العباسية ، وسقوط

العربي العدد ١٦٠ مارس - اذآر ١٩٧٢ م

قواعد الاندلس الكبرى فى ايدى الاسبان ، قد تولت مركز الصدارة ، فى ميدان الأدب العربي ، والتفكير الاسلامى ، ولبثت كذلك حتى جاء الفتح العثمانى ، فقضى على تلك النهضة الأدبية الزاهرة .

معجمان متشابهان

ونريد فى هذا المقال ان نتحدث عن معجمين من معاجم التراجم ، يجمع بينهما كثير من اوجه الشبه ، احدهما مصرى ، ويتعلق بالعصر ، والثانى اندلسى ، ويتعلق بالمكان .

واولها هو كتاب « الضوء اللامع لاهل القرن التاسع » لشمس الدين السخاوى .

والثانى هو كتاب « الإحاطة فى أخبار غرناطة » للوزير لسان الدين ابن الخطيب .

وكلاهما موسوعة ضخمة تضم المئات من التراجم . وقد كتب ابن الخطيب موسوعته « الاحاطة » بين سنتي ٧٦١ و ٧٦٩ هـ . وكتب السخاوى موسوعته بعد ذلك بأكثر من قرن بين سنتي ٨٩٠ و ٨٩٨ هـ .

ابن الخطيب وكتاب الاحاطة فى أخبار غرناطة

ويركز ابن الخطيب تراجمه حول المكان ، فيورد لنا طائفة كبيرة من الاعلام والاكابر الذين عاشوا فى غرناطة أو نزلوا بها ، أو وفدوا عليها ، فى مختلف عصور التاريخ الاندلسى ، ويفيض فى ذكر اخبار معاصريه من الملوك والوزراء والشيوخ والأقران ، ويعنى عناية خاصة بترجمة أكابر العلماء والكتاب والشعراء ، من معاصريه ، سواء فى الأندلس أو المغرب ، ولا يتقيد فى ذلك كله الا بالمكان ، ومعنى ذلك أنه لابد أن تكون ثمة علاقة بين المتَرجَم له وبين

غرناطة ، سواء أعاش بها ، أو نزل بها ، أو قام بزيارتها ، أو مر بها مرورا عابرا .

ويمهد ابن الخطيب لمعجم تراجمه بمقدمة طويلة ، يتحدث فيها عن غرناطة ، وما يتعلق بها من الأخبار والأوصاف والمعالم ، ويتناول وصفها وجغرافيتها وخططها ومواقعها ، وما يحيط بها من المروج والجبال . ثم يتناول تاريخها منذ نزل بها العرب الأوائل ، واخبار من كان بها من الكتاب والشعراء والمتغلبين ، منذ عصر الفتح ، حتى قيام الدولة النصرية ، ثم تاريخ الدولة النصرية وتاريخ سلاطينها ، منذ عصر مؤسسها محمد بن يوسف بن الاحمر ، حتى عصر المؤلف ، وكل ذلك على سبيل الاجمال والايجاز .

السخاوى والضوء اللامع لأهل القرن التاسع

أما السخاوى ، فيركز تراجمه حول الزمان ، وهو يبسط لنا موضوع كتابه فى ديباجته على النحو الآتي : « فهذا كتاب : . . جمعت فيه من علمته من هذا القرن الذى أوله سنة احدى وثمانمائة ، ختم بالحسنى ، من سائر العلماء والقضاة والصلحاء ، والرواة والأدباء ، والشعراء ، والخلفاء والملوك والامراء ، والمباشرين والوزراء ، مصريا كان ام شاميا ، حجازيا ام يمنيا ، روميا او هنديا او مغربيا . بل وذكرت فيه بعض المذكورين بفضل ونحوه من اهل الذمة . . . . » .

ويبدى كل من الكاتبين فى تراجمه كثيرا من الدقة والشمول والاستيعاب ، ويرجع ذلك الى ظروف الحياة التى عاشها كل منهما ، والى ما يتصف به من صفات خاصة . فقد كان ابن الخطيب ، كاتبا بديوان الانشاء ، ثم وزيرا ، ثم رئيسا للوزارة . وقد لبث اعواما طويلة يستأثر بالسلطة فى بلاط غرناطة ، ويوجه شئون الدولة ، ويقف على سائر احوالها واسرارها ، ويتعرف على سائر رجالاتها من الاكابر والقادة والكتاب والشعراء ، ثم كان خلال

الاعوام التي قضاها منفيا بالمغرب ، يتعرف ، من خلال صلاته بسلاطينه وبالبلاط المريني في فاس ، على سائر احواله ، كما يتعرف برجالاته وكتابه وشعرائه . وتشغل تراجم الشخصيات المعاصرة لابن الخطيب سواء في الاندلس أو المغرب ، في « الإحاطة » فراغا كبيرا ، وتمتاز بما تحتويه من الاخبار الوثيقة ، والاحكام الصائبة ، وتقدم الى المؤرخ مادة نفيسة يمكن الاعتماد عليها ، والوثوق بها .

وقد اتيحت للسخاوى كذلك ظروف حسنة لاعداد مادته . فقد هيأت له حياته الخاصة ، واتصاله بالاكابر ورجال الدولة ، وتجواله في مصر والشام والحجاز ، ولقاؤه لمئات العلماء والادباء في عواصم هذه الاقطار ، وما قيده عنهم في مختلف رحلاته ، مادة غزيرة لكتابه . وقد لبث اعواما طويلة في اعداد مواده ، وتنظيمها وتحقيقها واستكمالها ، حتى غدت سجلا حافلا ، يعكس تاريخ القرن التاسع كله .

على أن أهم وأقوى جامعة بين هذين المعجمين الكبيرين ، الإحاطة والضوء اللامع ، هو الروح النقدى البارز ، الذى يمتاز به كل منهما . ونستطيع القول بأنه لايوجد في معاجم التراجم ، في الادب العربي كله ، ما يضارع « الاحاطة » أو « الضوء اللامع » في هذا الميدان .

الصور النقدية في كتاب ابن الخطيب

ذلك أن ابن الخطيب يورد لنا في الاحاطة نماذج عديدة من التراجم المختلفة ، في صور متباينة ، تبرز شخصيات اصحابها ابرازاً قويا . وكما انه يصور لنا الكتاب والشعراء في صور نقدية متباينة ، تتفاوت في الصفات والمزايا ، فكذلك يصور لنا الامراء والكبراء في مثل هذا التباين والتنوع كل منهم وفق احواله ومميزاته . وكل ذلك بأسلوب بليغ مشرق . وينقل ابن الخطيب هذه الصور احيانا من كتابه « التاج المحلى » أو كتابه « عائد الصلة »

وكلاهما يضم تراجم موجزة مسجعة لعدد كبير من الشخصيات الغرناطية وغيرها ونطبع معظم تراجم ابن الخطيب روح نقدية ، وتتجه احيانا نحو المديح والتقدير ، وأحيانا اخرى الى الذم والانتقاص . وتتسم حملاته احيانا بمنتهى القسوة والعنف . ويبدو ذلك بالاخص في تراجم بعض الامراء والوزراء الذين خرجوا على سلطانه الغني بالله ، ونزعوه عرشه ، واضطروه الى الالتجاء الى المغرب ، واضطر وزيره ابن الخطيب الى اللحاق به في المنفى . ولابن الخطيب اسلوب لاذع في النقد والهجاء ، وهو لايحجم احيانا عن تصوير خصومه في أقبح الصور ، ورميهم بأخس الصفات . ويبدو ذلك في بعض تراجم الاحاطة ، كما يبدو بالأخص في بعض تراجم كتابه ، الذى كتبه بعد الإحاطة ، وهو « الكتيبة الكامنة فيمن لقيته من شعراء الأندلس في المائة الثامنة » . على ان ابن الخطيب ، فيما عدا الحملات التي تمليها المشاعر والخصومات الشخصية ، يرتفع بنظراته وصوره الى روح نقدية عالية ، هي التي تسيطر على معظم تراجم الاحاطة .

الصور النقدية في كتاب السخاوى

هذا عن ابن الخطيب وكتابه « الإحاطة » . واما عن السخاوى ومعجمه « الضوء اللامع » ، فانه يمكن ان يقال ان السخاوى ، يضارع سلفه ابن الخطيب قوة وأصالة ، بل ربما يمتاز عليه في بعض النواحي . ويمتاز « الضوء اللامع » بقوة فائقة في التصوير ، ليس لها نظير في كتب التراجم العربية ، ويمتاز بالأخص بروحه النقدية اللاذعة . وهنا يبدو السخاوى في أعظم خواصه وكفاياته الأدبية نقادة لا يجارى . بيد أن هذه النزعة النقدية تحمله بعيدا ، في مواطن كثيرة ، فينزع عندئذ الى التجريح والهدم بقسوة ، ويطبع نقده تحامل بين . وقد ترجم السخاوى لكثير من أقطاب عصره ، ولكن أحدا منهم - الا شيخه الحافظ ابن حجر - لم ينج من تجريحه اللاذع . وتراجم المقريزى ، وابن

خلدون ، وابن تغرى بردى ، والسيوطى ، أمثلة واضحة لهذه النزعة الهدامة ، وفيها يبدو شغف السخاوى بالتجريح والانتقاص امرا واضحا . وهو لايكاد يطيق عبقرية بارزة من عبقريات قرنه ـ القرن التاسع ـ الا هاجمها بشدة . وهنا يبدو الفرق واضحا بينه وبين ابن الخطيب . فالنزعة الهدامة ، ليست قاعدة عند ابن الخطيب ، كما هي قاعدة عند السخاوى . والتجريح العنيف الذى يسيطر على قلم السخاوى ، فى صورة مستمرة ، ليس الا نزعة عابرة عند ابن الخطيب .

مقارنة بين اسلوبين

على ان الذى لا ريب فيه هو أن السخاوى أستاذ من أعظم أساتذة النقد فى الأدب العربي ، وكذلك ليس من ريب فى أن ابن الخطيب هو كذلك من أعظم أساتذة النقد الأدبي . ولكن الأسلوب النقدى يتخذ لديه شكل صياغة الصور البارعة لشخصياته ، وهو فى ذلك أقدر من السخاوى ، وفضلا عن ذلك فان ابن الخطيب يتفوق فى اسلوبه ، وبيانه المشرق ، فى أحيان كثيرة ، على السخاوى . ولا غرو ، فان ابن الخطيب هو امام عصره فى النظم والنثر ، وأستاذ الترسل السلطاني ، وهو فى نفس الوقت مؤرخ بارع ، يسيطر الأسلوب التاريخي على تراجمه . أما السخاوى ، فهو قبل كل شيء محدث بارع ، وهو أيضا مؤرخ يستمد علم الحديث فى تمحيص الرواية . وبراعته النقدية فى التاريخ ترجع فى كثير من الوجوه الى براعته فى الجرح والتعديل كمحدث . وهذه الصبغة النقدية البارزة هي التي تُسبغ على آثاره التاريخية ، وعلى تراجمه النقدية ، قوتها وطرافتها ، أما مقدرته البيانية ، فانها على الرغم من براعتها فى أحيان كثيرة ، لا تبلغ فى قوتها وطرافتها مقدرة ابن الخطيب ، وهو الذى يعتبر من أعظم أئمة النثر فى الأندلس ، وفى الغرب الاسلامي فى القرن الثامن الهجرى .



ابن مردنيش .. زعيم التيار الأندلسي

حينما عَبَر المرابطون - سادة المغرب ، بقيادة عاهلهم يوسف بن تاشفين - في أوائل سنة ٤٧٩ هـ ، ١٠٨٦ م الى شبه الجزيرة الاسبانية استجابة لصريخ ملوك الطوائف ، عَقِبَ سقوط طُلَيطلة في يد أسبانيا النصرانية ، وانقاذا للاندلس مما كان يتهددها من خطر السقوط والفناء ، كان المفروض أن يكون هذا العبور للجحافل المغربية ، جهاداً في سبيل الله ، وعمل انقاذ محض ، تغادر من بعده شبه الجزيرة الى بلادها .

وقد تم هذا الانقاذ بانتصار الجيوش المرابطية والأندلسية المتحدة على جيوش أسبانيا النصرانية في موقعة الزلاقة الحاسمة (رجب ٤٧٩ هـ) ، وانقشع الخطر الذي كان يهدد الأندلس وملوكَ الطوائف الى حين ، وعاد البطل المرابطي يوسف بن تاشفين على رأس قواته ، مكلّلا بغار الظفر .

العربي العدد ٦٢ يناير - كانون الثاني ١٩٦٤ م .

بيد أنه لم تمض أعوام قلائل ، حتى انقلب الأخوة المنقذون الى فاتحين .
وعبر يوسف في قواته الى شبه الجزيرة مرة أخرى ، وقامت جيوشه بافتتاح ممالك الطوائف واحدة بعد أخرى ، وهكذا بسط المرابطون حكمهم على الأندلس . وغدت الأندلس بعد ذلك ولاية مغربية من ولايات الدولة المرابطية الكبرى

المرابطون في الأندلس

ولبثت الأندلس تحت حكم المرابطين زهاء نصف قرن . وبالرغم مما بذله المرابطون خلال هذه المدة من الجهود العسكرية المتوالية في محاربة اسبانيا النصرانية ، وحماية الأندلس من عدوانها ، فان الجموع الاندلسية لم تنس انها قد فقدت استقلالها وحرياتها ، ولم تستطع أن تروّض نفسها على قبول هذا الحكم الجديد ، خصوصا وقد كان حكمهم يتسم بأساليبه الخشنة المتزمتة ، التي لا تلائم طبائع الجموع الأندلسية ، التي تمتاز بمستواها الحضاري الرفيع .

والموحدون أيضا

فلما تطورت الحوادث بالمغرب ، ونهض المهدى محمد بن تومرت يُشهر دعوته ضد الدولة المرابطية ، ثم يُشهر عليها هو وصحبه الموحِّدون حربا لا هوادة فيها ، ولما أن ظفر الموحدون أخيرا بالقضاء على الدولة المرابطية بالمغرب ، واقامة دولتهم على انقاضها ، كان لهذا الانقلاب العظيم صداه في الأندلس ، فقامت الثورة ضد المرابطين في معظم القواعد الأندلسية . وكان طبيعيا أن يتجه زعماء الثورة الى الاستعانة بالموحدين واستدعائهم الى شبه الجزيرة . وكان الموحدون من جانبهم يرون أن الاندلس ، وقد كانت ولاية مرابطية ، يجب ان تغدو ولاية موحِّدية ، وهكذا عبر الموحدون بدورهم الى



خريطة اسبانيا ، وقد ظهرت فيها مواقع المدن التي جاء ذكرها في المقال

شبه الجزيرة ، واستولوا تباعا على قواعد الاندلس الغربية والوسطى ، وجعلوا اشبيلية قاعدة حكمهم . وهكذا تخلصت الأندلس من حكم المرابطين ، لتقع تحت حكم دولة مغربية جديدة ، هي الدولة الموحِّدية .

كان ذلك حوالى سنة ٥٤٥ هـ (١١٥٠ م) . وكانت الثورات الاندلسية المتوالية التي قامت في المغرب وفي اشبيلية ، وقرطبة وغرناطة ومالقة وغيرها قد خبت تباعا امام زحف الموحدين ، واستقرارهم سادة في تلك القواعد . ولكن شرقى الأندلس كان له شان آخر . اجل قامت الثورات أيضا في شرقى الأندلس ضد المرابطين ، وانهار سلطانهم في تلك المنطقة الشاسعة التي تمتد من طرطوشة شمالا حتى مرْسِيَة ولورقة جنوبا ، ولكن الثورة في الشرق كانت ثورة من طراز

اخر . كانت ثورة اندلسية حقة لا تبغي بديلا بالحكم المرابطي ، ولا تسعى الى استقدام الموحدين ومحالفتهم ، بل ترمي الى تحرير الاندلس .

ابن مردنيش

وقد اضطرمت الثورة في الشرق ، في نفس الوقت الذي اضطرمت فيه في باقي القواعد الأندلسية ، ولكنها ما كادت تظفر بالقضاء على الحكم المرابطي ، حتى تحولت الى صراع محلي على الزعامة . وكان مسرح هذا الصراع بالأخص في مدينتي بَلَنسية ومُرْسيَة وكان محوره بالأخص ثلاث شخصيات ، هم سيف الدولة بن هود ، وابن عياض ، ومحمد بن سعيد بن مردنيش . اما ابن هود ، وهو سليل بني هود ملوك سرقسطة القدماء ، فكان يعتمد على عراقة أسرته ، وعلى صفته الملوكية ، في بسط سلطانه على الشرق وإحياء تراثه الملوكي ، وكان له انصار يدعون لرياسته وفي مقدمتهم ابن عياض قائد جند بلنسية ، ولكنه قتل في معركة بين المسلمين والنصارى في سنة ٥٤٠ هـ . وعلى اثر مصرعه أعلن ابن عياض الدعوة لنفسه ببلنسية ، وكان نائبه بها صهره محمد بن سعد بن مَرْدَنيش . ونجح ابن عياض كذلك في أن يبسط حكمه على مرسيه ، وعلى سائر منطقة الشرق . واستمر يحكم تلك المنطقة بلا منازع مدى عامين ، الى أن لقى مصرعه في معركة نشبت بينه وبين القشتاليين (٥٤٢ هـ) . وعندئذ نهض نائبه وصهره ابن مَرْدَنيش فأعلن للناس أن ابن عياض قد اختاره للامارة من بعده ، فبايعه الناس في بلنسيه ثم في مرسية ، وهكذا نجح ابن مردنيش في قطف سلطان الشرق كله ، وكانت رياسته للشرق ايذانا ببدء صفحة جديدة من الصراع بين الأندلس الثائرة وبين الموحدين ، وهو صراع عنيف ظل يضطرم زهاء عشرين عاما ، وتخوضه منطقة الشرق كلها ، بسائر مواردها وقواتها .

كانت الثورة في شرقي الأندلس ، أعرق مثلا ، وأعمق جذورا ، وأشد

مراسا منها في الغرب ، وكانت تسيّرها منذ البداية فكرة الاستقلال ، أي الفكرة الأندلسية الخالصة ، فكانت تضطرم ضد المرابطين والموحدين معا ، بنفس العنف والاصرار ، وكانت العوامل الجغرافية والعسكرية تشد من أزرها ، وتضاعف مقدرتها على المقاومة ، فقد كانت قواعدها الرئيسية بعيدة عن متناول الجيوش الموحّدية ، وكان اتصالها بالبحر يمدها بوسائل وامكانيات خاصة . وكان وقوعها على مقربة من الممالك النصرانية ، يفتح لها باب الاتصال المستمر بالملوك النصارى ، ومحالفتهم والاستنصار بهم ، وكانت هذه الوسيلة ، تعتبر في تلك الأونة من الخطط المشروعة ، في مقاومة المرابطين والموحدين ، وثمة عامل آخر في استفحال الثورة وصمودها في شرقي الاندلس هو انحصار زعامتها ، وتركيزها مدى أعوام طويلة في شخصية واحدة قوية ، كانت تجمع حولها خيوط المقاومة ، وكان يحدوها ايمان عميق بالفكرة الأندلسية ، تلك هي شخصية محمد بن سعد بن مردنيش ، أعظم ثوار الأندلس ضد الموحدين ، وأشدهم مراسا ، وأعنفهم كفاحا .

أرومته

ان ابن مردنيش الذي حمل لواء هذا الصراع الشهير ضد الموحدين ، ولبث طيلة اضطرامه ، صامدا كالصخرة الصلدة ، لا تفتر له همة ، ولا يهادن ولا تلين قناته ، حتى طواه الموت ، هو شخصية من أغرب شخصيات التاريخ الاندلسي التي مثلت كل خلال العصر ورذائله في نفس الوقت . وهو ابو عبدالله محمد بن سعد بن محمد بن سعد الجذامي بن مردنيش ، أصله من الثغر الأعلى ، ومولده في سنة ٥١٨ هـ (١١٢٤ م) ، واذن فقد كان حينما تولى امارة شرق الأندلس ، فتى في نحو الرابعة والعشرين من عمره . وقد كان ابوه سعد بن محمد بن مردنيش ، واليا لافراغة أيام المرابطين ، وظهر بفائق شجاعته وبسالته في مدافعة النصارى .

وقد لفت ابن مردنيش انظار الباحثين باسمه ولقبه ، وصفاته الفريدة . فهو وفقا لاسمه المعروف جذامي أو تجيبي أو بعبارة أخرى عربي الأرومة . بيد أن في لقبه وهو ابن مردنيش ، وفي صفاته وسلوكه أيضا ، ما يحمل على الريب في هذه النسبة . وأغلب الظن أنه ينتمي إلى « المولدين » أو بعبارة أخرى اسباني الأصل ، دخل اجداده في الاسلام ، فأصبح ينتمي الى ذلك العنصر المسلم الدخيل ، الذي كان يكوّن شطرا له خطره من الاندلسيين . والذي لعب في تاريخها أعظم دور ، ولا سيما أيام الفتن والثورات ويرى البحث الحديث أن مردنيش انما هو تحريف للاسم الاسباني « مرتينث » أي (ابن مرتين) . ومن جهة أخرى فان صفات ابن مردنيش وسلوكه ، حسبما تصورها لنا الرواية العربية ، تؤيد هذا الظن في انتمائه الى عنصر المولدين ، فقد كان شغوفا بالتشبه بالنصارى (القشتاليين) ، في الزي والملابس والسلاح واللجم والسروج ، وكان يجيد اللغة القشتالية ، ويؤثر التحدث بها ، وكان يدعو الى جيشه كثيرا من النصارى كالمرتزقة من القشتاليين والقطلان والبشكنس ، يبتني لهم الأحياء والمعسكرات ويزودها بأسباب الرفاهية والحانات ، وكان يغدق عليهم الصلات الوفيرة من المال والاقطاعات . وقد كان من جراء هذا الاغداق الفياض على المرتزقة النصارى ، أن اشتط ابن مردنيش في فرض المغارم والرسوم المختلفة على رعاياه المسلمين . وكان النصارى يسمونه الملك (لب) أو الذئب ، وقد أطلق عليه هذا الاسم الأخير لما كان يتسم به من الاقدام والشجاعة .

الحرب ضد الموحدين

وأضحى محمد بن سعد بن مردنيش بتغلبه على بلنسيه ومرسيّة ، سيد شرقي الأندلس كله ، وامتد سلطانه من احواز طرطوشة حتى قرطاجنة ولورقة جنوبا . كان من الواضح أنه لا يستطيع أن ينصرف الى توطيد سلطانه في تلك المنطقة الشاسعة الهامة ، الا اذا أمن جانب النصارى ، وهم جيرانه من الشمال

والغرب . واستطاع بذلك أن ينصرف الى مقارعة الموحدين الذين جازت جيوشهم فقد رأى أن تكون مسالمة الممالك النصرانية والملوك النصارى ، شعاره الذي لايحيد عنه . وأن يعقد معهم التحالف كلما سمحت بذلك الفرص ودعت الضرورات .

وجمعت الاقدار بين ابن مردنيش ، وبين زعيم اندلسي آخر يشبهه في كثير من صفاته وميوله ، وكان له في محالفته أكبر عضد في مضاعفة صولته وتوطيد سلطانه . هو ابراهيم بن مفرِّج بن همشك ، وهو مثل ابن مردنيش شخصية تتميز بصفاتها الخاصة ، فهو من أصل نصراني صريح ، وأسلم جده مفرِّج على يد أحد ملوك بني هود ، وكان مقطوع احدى الأذنين . فكان النصارى اذا رأوه في القتال عرفوه وقالوا « هامشك » ومعناه مقطوع الأذن ، فغلب عليه ذلك وعرف بابن همشك .

وتقلب ابراهيم بن همشك في خدمة القشتاليين والمرابطين ، وكان جنديا مغامرا ، وافر الشجاعة والجرأة ، ولما اندلع لهيب الثورة في قواعد الأندلس الوسطى ، اشترك في تلك الغمار وخدم هذا الفريق وذاك . ولما اتسع نطاق الثورة بالشرق ، وظهر محمد بن سعد في بلنسية ومرسية ، اتصل به وحالفه وتزوج ابن سعد بن مردنيش ابنته صبيحة ، وكانت من أجمل نساء عصرها ، فتوثقت بينهما الروابط ، وغدا ابن همشك في الواقع من أقدر قواد العصر وأوفرهم جرأة وشجاعة ، وقد استطاع أن يبسط سلطانه على منطقة جيان ، وان يخوض فيما بعد مع الموحدين عدة حروب ووقائع هامة .

وكان ابن مردنيش في الوقت الذي يتوالى فيه قدوم الجيوش الموحدية الى شبه الجزيرة ، ويضطرد تقدمها نحو أواسط الأندلس ، يعمل من جانبه على توطيد سلطته في منطقة الشرق الشاسعة ويستعد للصراع مع الموحدين بكل ما

وسع وكان خلال الاضطراب العام الذي شمل القواعد الوسطى قد استطاع أن يدفع فتوحه غربا حتى بسطة وادي آش ، وان يواجه بذلك القوات الموحدية في غرناطة . وهنا بدأ الصراع بين ابن مردنيش والموحدين ، وكان الموحدون يقدّرون ما كان عليه ابن مردنيش رحليفه ابن همشك من قوة وبأس وموارد ضخمة ، ولكنهم لم يكونوا قد استعدوا بعد للمعركة تمام الاستعداد ، ومن ثم فقد استطاع ابن همشك في البداية أن ينتزع منهم غرناطة ، ثم اشتبكت قوات ابن مردنيش وابن همشك وحلفاؤهم من النصادرى في معركة طاحنة مع الموحدين هزم فيها الموحدون ، ومزقت صفوفهم ، وهلك قادتهم ، وذلك في مكان في فحص غرناطة يعرف ببرج الرقاد (٥٥٦ هـ - ١١٦١ م) .

بداية الهزيمة

وحزت هذه النكبة في نفس الخليفة عبد المؤمن ، فبعث في الحال جيشا موحديا كبيرا ، عبر الى شبه الجزيرة ، واستعد ابن مردنيش ومعه فرقة من حلفائه النصارى وصهره ابن همشك للقاء الموحدين ، وهنا نشبت بين الفريقين معركة طاحنة اخرى فوق جبل السبيكة المشرف على غرناطة ، وكان النصر فيها للموحدين (سنة ٥٥٧ هـ) فارتد ابن مردنيش وابن همشك منهزمين في قواتها وسار الأول صوب مرسية ، وسار الثاني الى جيان .

وانتقل الصراع بين ابن مردنيش والموحدين ، بعد ذلك الى قطاع قرطبة ، وكانت حملات ابن مردنيش المتوالية تهدد سلطان الموحدين في عاصمة الخلافة القديمة . ونشبت بين الفريقين معارك متوالية ، وكان فيها التفوق للموحدين ، واستمرت الجيوش الموحدية في زحفها نحو الجنوب الشرقي ، خلال المنطقة التي يسيطر عليها ابن مردنيش ، ما بين بسطة ولورقه . وكان ابن مردنيش يرقب

هذا التقدم الموحدي المضطرد صوب عاصمته مرسية بمنتهى الجزع ، ويبذل كل ما وسع للقاء خصومه وردهم ، ولكن الموحدين استطاعوا الوصول الى فحص مرسية دون مشقة ، واخذت بوادر الانفصال عن طاعة ابن مردنيش وقضيته تبدو شيئا فشيئا ، وتدخل الحصون والبلاد الخاضعة لسلطانه في طاعة الموحدين . وكان ابن مردنيش قد حشد سائر قواته ومنها فرقة من النصارى على مقربة من غرب مرسية ليحول دون تقدم الموحدين الى عاصمته . وفي يوم الجمعة السابع من ذي الحجة سنة ٥٦٠ هـ (١٥ اكتوبر سنة ١١٦٤ م) .

وصلت القوات الموحدية الى موضع قريب من محلة ابن مردنيش يعرف « بفحص الجلاب » وسرعان ما انقض ابن مرديش بقواته على الموحدين ، ونشبت بين الفريقين معركة هائلة استمرت طوال اليوم وقاتل الفريقان أروع قتال ، ثم رجحت كفة الموحدين في النهاية ، ففتكوا بجيش ابن مردنيش وقتلوا منه مقتلة عظيمة ، وسقط من الموحدين كذلك عدد جم من القتلى ، ومنهم عدة من القادة والأشياخ ، وارتد ابن مردنيش في فلوله الى تل قريب ، ثم فر تحت جنح الظلام مسرعا الى مرسية ، فامتنع بها .

ابن همشك يعلن الطاعة للموحدين

وكانت موقعة فحص الجلاب بداية النهاية في ثورة ابن مردنيش وصراعه مع الموحدين ، بيد انه لم يجنح الى مهادنة أو مسالمة ، بل ظل صامدا متمسكا بموقفه ، وهو يتأهب لاستئناف الصراع مع الموحدين ، ولكن تيار الحوادث كان أقوى من أن يجارى ، ذلك أن الموحدين ، بعد أن شغلوا حينا بحروبهم في البرتغال عن متابعة الصراع مع ابن مردنيش ، عادوا فقرروا القيام بضربتهم

الحاسمة ضد مملكة الشرق . وكان قد حدث عندئذ تصدع خطير في الجبهة الشرقية التي يقودها ابن مردنيش وصهره وقائده الاول ابراهيم بن همشك .

وذلك لاقدام ابن مردنيش على طلاق زوجته صبيحة بنت ابراهيم بن همشك بعد أن بالغ في ايلامها واهانتها ، فلجأت الى كنف ابيها ، وخشى ابن همشك نوق ذلك من غدر ابن مردنيش وانتقامه ، فالتجأ الى الموحدين ، واعلن دخوله في طاعتهم (سنة ٥٦٤ هـ) ، وكان ذلك أكبر مشجع للموحدين على اتخاذهم قرارهم بمهاجمة ابن مردنيش وتحطيم سلطانه .

وكان ابن مردنيش منذ هزيمته في فحص الجلاب ، قد اضطربت شئونه وأخذت تخبو قواه وموارده . وكان من أهم العوامل في تضعضع قوى ابن مردنيش ، أولا مبالغته في الاعتماد على محالفة النصارى ، وثانيا خروج قادته ووزرائه عليه . فأما العامل الأول ، فقد كان امرا طبيعيا تمليه الظروف المحيطة بابن مردنيش وتمرده على الموحدين . وقد كان تمرد ابن مردنيش ، فضلا عما يجرى من الاطماع السياسية ، تمليه بواعث محلية هي التي دفعت سائر القواعد الأندلسية الى التمرد على المرابطين ، وقد كان الموحدون خلفاء المرابطين في التغلب على الأندلس ، فكان تمرد ابن مردنيش على الموحدين امتدادا لنفس التمرد ونزولا على نفس البواعث . وكان النصارى الاسبان حلفاء طبيعيين لابن مردنيش ، في هذا الصراع ضد الموحدين ، والوافدين على شبه الجزيرة من وراء البحر . ولم يغفل ابن مردنيش أهمية هذا العامل في اجتذاب النصارى الى محالفته وحشدهم في صفوفه . وأما العامل الثاني في تضعضع قوى ابن مردنيش فهو خروج قادته ووزرائه عليه ، وفي مقدمتهم ابراهيم بن همشك ، أعظم قادة الأندلس في ذلك العصر . وقد خرج عليه أيضا عدة من قرابته ووزرائه ، الذين أضناهم كفاحه وعناده ، وصموده المستمر ضد هذه القوى المتزايدة من الموحدين .

موت ابن مردنيش

كان ابن مردنيش يعاني من هذه الظروف والمتاعب المضنية ، حينما وضع الموحدون خطتهم لانزال ضربتهم الأخيرة به . وفي أوائل سنة ٥٦٦ هـ (١١٧١ م) سارت الجيوش الموحدية ثانية صوب مملكة الشرق ، ومعهم حليفهم الجديد ابن همشك . خلال ذلك كان ابن مردنيش يبذل أقصى جهوده للدفاع الأخير ، ولكن بوادر الانهيار أخذت تتوالى في مملكة الشرق ، وأخذت قواعدها وبلادها المختلفة تتسابق الى طاعة الموحدين :

بسطة ، لورقة ، الش ، الجزيرة وغيرها ، ثم ضرب الموحدون الحصار حول مرسية . وكان ابن مردنيش يخرج منها بقواته من آن لآخر ويشتبك مع الموحدين في معارك طاحنة ، وكان أخوه الرئيس أبو الحجاج يوسف بن سعد يتولى الدفاع عن بلنسية . ولكن نذر الخاتمة ، كانت تبدو خلال هذه الجهود الأخيرة لمتابعة صراع طال أمده ، ونضبت موارده . وكان ابن مردنيش مع ذلك

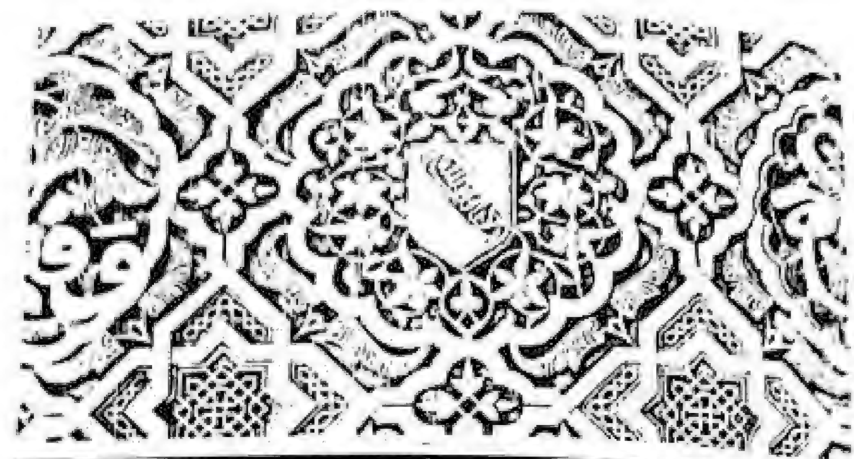
قد صمم أن يموت مدافعا عن تمرده ، وعن سلطانه وعن شعاره ، فلم تمض بضعة أشهر أخرى حتى جاء الموت محققا لأعز أمانيه . وتوفى محمد بن سعد بن مردنيش داخل عاصمته مرسية . في العاشر من شهر رجب سنة ٥٦٧ هـ (٦ مارس سنة ١١٧٢ م) وهو في الثامنة والأربعين من عمره . وقد ثارت حول وفاته عدة روايات نضرب عن ذكرها لضعفها من الناحية التاريخية .

وكان موت ابن مردنيش نذيرا بانهيار دولته الشامخة ، وسيطرة الموحدين عليها واستكمالهم بذلك لسيادتهم على سائر اراضي الأندلس - تلك الدولة التي استطاع ابن مردنيش بعزمه وجرأته وشجاعته ، أن ينشئها في شرقي الأندلس ما بين طرطوشة شمالا ، والمرية جنوبا ، وما بين شاطىء البحر شرقا ، وجيان

غربا ، والتي لبثت زهاء ربع قرن تمثل سلطان الأندلس ، واستقلالها المحلي وتتحدى سلطان الموحدين وجيوشهم ، من وراء البحر . ولقد كان ابن مردنيش في الواقع يمثل بثورته ضد الموحدين كل ما كانت تبطنه الأندلس القديمة من الآلام والآمال التي لبثت تجيش بها منذ استولى المرابطون على قواعدها ، وفرضوا سيادتهم عليها ، وهي تلك السيادة التي ورثها الموحدون عنهم ، وعملوا على توطيد دعائمها . ولم يك ثمة ما ينتقص من أفعال ابن مردنيش ، من الناحية المعنوية ، سوى عامل واحد ، هو اسراف ابن مردنيش في مصادقة النصارى ومحالفتهم ، واعتماده على عونهم ، بيد أن هذا العامل كانت تبرره من بعض النواحي ، وتلطف من وقعه ومؤثراته ، أحداث العصر وظروفه ، التي سبق أن أشرنا اليها ، ومن ثم فان المؤرخ يستطيع على ضوء هذه الاحداث والظروف ، ان يصف ابن مردنيش بزعيم التيار الاندلسي .

وقد كان تمرد ابن مردنيش آخر محاولة لتحدي سلطان الموحدين وسيادتهم على الأندلس ، ولم يبق بعد انهياره للموحدين منازع ، وامتد سلطانهم بذلك على سائر انحاء شبه الجزيرة الأندلسية ، واستمرت تحت حكمهم زهاء ثمانين عاما أخرى .







ابو عبدالله محمد آخر ملوك الأندلس عن الصورة التي كانت محفوظة من قبل بمتحف جنة العريف بغرناطة .

أبو عبد الله محمد .. آخر ملوك الأندلس

هي قصة مؤسية ، تثير كل الشجن ، تلك هي قصة مصرع غرناطة ، آخر حواضر الإسلام بالاندلس ، وشخصية محزنة ، هي شخصية أبي عبدالله محمد ، آخر ملوك الاندلس .

هي مأساة تتكرر عبر التاريخ ، فسقوط الأسر والدول ظاهرة طبيعية . تتوالى منذ فجر التاريخ في الشرق وفي الغرب . ولكن قصة مصرع الأندلس ، تكاد تنفرد بظروفها المؤسية . ذلك لأنها لم تكن فقط نهاية لأسرة ، لكنها كانت بداية النهاية لدولة عظيمة ، وحضارة زاهرة . غاضت ، واندثرت كلتاهما إلى الأبد .

ونحن نعرف أن العرب افتتحوا (الاندلس) في سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) . على يد موسى بن نصير وطارق بن زياد . وقامت بها دولة اسلامية شامخة . لبثت عصورا تعيش في مجد وسؤدد . وتتقلب بين مختلف الحظوظ والجدود . وتنشيء صرح حضارتها العظيمة ، وتعيش في نفس الوقت في صراع مستمر مع خصيمتها الأبدية ، اسبانيا النصرانية ، وتتضاءل رقعتها

العربي العدد ٢٣٥ يونيو ـ حزيران ١٩٧٨ م .

تباعا . حتى لم يبق منها سوى مملكة غرناطة الصغيرة التي عاشت مع ذلك أكثر من مائتي عام . وشاء القدر أن تختتم حياتها بسقوط غرناطة آخر حواضرها في يدي ملكي اسبانيا فرناندو ايزابيلا ، وذلك في ربيع الأول سنة ٨٩٧ هـ (يناير ١٤٩٢م) .

وشاء القدر ، في نفس الوقت ، أن يكون الملك المنكود الذي تقع على يديه هذه المحنة المؤلمة ، هو السلطان ابو عبدالله محمد بن السلطان علي أبي الحسن بن سعد النصرى . والسلطانة عائشة الحرة ابنة السلطان أبي عبدالله الأيسر .

وليس من موضوعنا أن نتحدث عن تاريخ مملكة غرناطة في تلك الأونة الاخيرة من حياتها ، ولكنا نود أن نقول فقط ، إنها كانت مسرحا لحروب أهلية مستمرة ، بين السلطان أبي الحسن وبين أخيه الامير محمد بن سعد المعروف بالزغل ، أي الباسل ، ثم بينه وبين ولده أبي عبدالله محمد . وقد أسفرت هذه المعارك عن تغلب أبي عبدالله على أبيه ، وتربعه على عرش غرناطة لأول مرة سنة ٨٨٧ هـ (١٤٨٣م) ، ثم تطورت الحوادث ، واشتبك أبو عبدالله مع القوات الاسبانية في معركة هزم فيها وأسر ، وتولى العرش عمه الامير محمد بن سعد . ولبث أبو عبدالله في أسر ملكي أسبانيا فرناندو وايزابيلا زهاء عامين ، ثم أطلق الملكان سراحه ، بعد أن تعهد لهما بالخضوع ، وبأن يحكم غرناطة باسمهما وتحت حمايتهما ، وساعده الملكان بعد ذلك على استرداد عرشه من عمه ، فتبوأ عرش غرناطة للمرة الثانية في سنة ٨٩٠ هـ (١٤٨٥ م) .

تحول فرناندو بعد ذلك إلى محاربة الامير محمد ابن سعد ، الزغل ، وكان بعد أن غادر عرش غرناطة قد استقر ملكا في وادى آش ومالقة . واستمر في دفاعه ضد ملكى اسبانيا حتى سقطت في يدهما مالقة وسائر القواعد الشرقية الاخرى ، واضطر الزغل في النهاية أن يذعن إلى التسليم ، وعبر البحر إلى المغرب ليقضى هناك بقية حياته .

كان ذلك في سنة ٨٩٥ هـ (١٤٩٠م) ، وكان أبو عبدالله محمد في تلك الأثناء يعيش في ظل الهدنة الخادعة التي عقدها مع ملكي اسبانيا ، ويشهد سقوط القواعد الاندلسية تباعا في يدهما ، فلما تم لفرناندو افتتاح سائر القواعد الشرقية - مالقة والمرية وبسطة ووادي آش - ولم يبق الا مدينة غرناطة وما اليها ، بعث فرناندو وايزابيلا الى أبي عبدالله يطلبان اليه تسليم مدينة الحمراء (قاعدة الملك) وأن يحكم في غرناطة باسمهما وتحت طاعتهما ، فثار أبو عبدالله لذلك الغدر ، وأدرك فداحة خطئه في الانصياع إلى فرناندو ، وانقلب الامير الضعيف الخانع إلى خصم عنيد ، يعتزم الكفاح للذود عن ملكه ودينه ووطنه ، وأجمع القادة والكبراء على رفض التسليم والدفاع حتى الموت ، واعتزم فرناندو من جانبه أن يحصل على غرناطة بأي ثمن ، فطوقها بقواته الكثيفة ، وبدأ حصارها في جمادى الآخرة سنة ٨٩٦ هـ (١٤٩١ م) . وطال الحصار ، واستنفذ أهل غرناطة كل وسيلة للدفاع والمقاومة ، وخرجوا من مدينتهم مرارا ، واشتبكوا مع الجيش المحاصر في معارك عديدة ، ثم اشتدت وطأة الحصار وأخذت موارد المدينة المحصورة في النفاذ ، واشتدت وطأة الجوع والحرمان على الناس ، وأدرك أبو عبدالله والقادة أنه لا محيص من المفاوضة مع العدو ، والحصول منه على الأمان قبل أن يفوت الوقت ويقتحم الجيش الفاتح المدينة ، فتقع في داخلها المذابح المروعة ، وتغدو أطلالا دارسة .

وتمت المفاوضة بين فرناندو وممثلي أبي عبدالله والشعب الغرناطي ، وتم الاتفاق بعد جهود مضنية على أن تسلم غرناطة بشروط كثيرة ، أهمها أن يؤمن المسلمون في أنفسهم وأموالهم ، وأن يحتفظوا بشريعتهم وقضاتهم ، وأن يتمتعوا أحرارا بشعائر دينهم ، وأن تبقى المساجد حرما مصونة ، وألا يولى عليهم نصراني أو يهودي ، وأن يجوز منهم من شاء الى المغرب ، الى غير ذلك من الشروط والضمانات الخلابة . وجمع أبو عبدالله الفقهاء وأكابر الجماعة في بهو

الحمراء الكبير (بهو قمارش) وبعد مناقشات طويلة عاصفة ، تمت الموافقة على معاهدة التسليم .

ولم يرتفع لمعارضتها سوى صوت واحد ، هو صوت موسى بن أبي الغسان قائد فرسان غرناطة الذي اشتهر برائع بسالته ، وحملاته الدفاعية المظفرة ضد العدو ، فقد حث مليكه ومواطنيه على الدفاع حتى الموت ، وحذرهم من خداع ملك قشتاله وغدره قائلا : « لا تخدعوا انفسكم ، ولا تظنوا أن النصارى سوف يوفون بوعدهم ، ولا تركنوا إلى شهامة ملكهم . ان الموت اقل ما نخشى ، فأمامنا نهب مدننا وتدميرها ، وتدنيس مساجدنا ، وتخريب بيوتنا ، وهتك نسائنا وبناتنا . أمامنا الجور الفاحش ، والتعصب الوحشي ، والسياط والأغلال ، وأمامنا السجون والانطاع والمحارق . هذا ما سوف تراه على الاقل تلك النفوس الوضيعة التي تخشى الآن الموت الشريف » . ثم غادر المجلس واخترق بهو الأسود (كورة السباع) عابسا حزينا ، وجاز إلى ابهاء الحمراء الخارجية . ثم ذهب إلى داره ، وغطى نفسه بسلاحه ، واقتعد غارب جواده المحبوب ، واخترق شوارع غرناطة ، حتى غادرها من باب البيرة ، ولم يره انسان أو يسمع به بعد ذلك قط .

وفي بعض الروايات أن موسى سار إلى ضفة نهر شنيل ، حيث التقى بثلة من الفرسان النصارى فاشتبك معهم في قتال عنيف ، وقتل عدداً منهم ، وأُثخن جراحا ، وخشى أن يقع في أيديهم ، فألقى بنفسه في النهر ، فابتلعته الأمواج .

ولم تؤثر معارضة موسى وكلماته في موقف « الجماعة » ، ولا في الاجماع على قبول المعاهدة وتوقيعها . وحملها مندوب الملك الاسبانى ممهورة بتوقيع أبي عبدالله .

وسلمت غرناطة

وهكذا أذعنت غرناطة وسلمت ، وانتهت بذلك دولة الاسلام في الاندلس ، وطويت إلى الأبد تلك الصفحة المجيدة من تاريخ العرب والاسلام

في أوروبا ، وقضى على تلك الحضارة الأندلسية الزاهرة وآدابها وعلومها وفنونها ، وكل ذلك التراث الباهر بالمحو والفناء . ودخل القشتاليون غرناطة في الثاني من ربيع الأول سنة ٨٩٧ (٢ يناير سنة ١٤٩٢) واحتلوا قصورالحمراء وحصونها ، وانتهى ذلك الحلم السعيد الذي استطال ثمانمائة عام ، أو كما قال أبو الطيب الرندي في مرثيته الشهيرة التى وضعها قبل سقوط الأندلس النهائي بنحو قرنين :

وكان ما كان من مُلك ومن مَلك   كما حكى عن خيال الطيف وسنان

أما الملك التعس أبو عبدالله آخر ملوك الإسلام بالاندلس ، فقد قضت معاهدة التسليم ، أن يغادر غرناطة مع أهله وأمواله إلى منطقة البشرات الشرقية ، وأن يحكم هذه المنطقة باسم ملك قشتالة وفي طاعته ، وأن يكون مقره في قرية أندرش القريبة من ثغر المرية . وتصف لنا الرواية ذلك المنظر المؤثر الذي لقى فيه أبو عبدالله عدوه الظافر ، على أثر مغادرته لقصر الحمراء ، وتقديمه مفاتيح الحمراء اليه قائلا « إن هذه المفاتيح هى الاثر الاخير لدولة العرب في اسبانيا ، وقد أصبحتِ أيها الملك سيد تراثناوديارنا وأشخاصنا . هكذا قضى الله ، فكن في ظفرك رحيما عادلا » .

زفرة العربي

هنا تقول الرواية أيضا ، إن أبا عبدالله أشرف أثناء مسيره الى مقره الجديد في شُعَب البذول على مناظر غرناطة ، فوقف يسرح البصر لآخر مرة في هاتيك الربوع العزيزة التي ترعرع فيها ، وشهدت مواطن عزه ، وسلطان آبائه وأجداده ، فانهمر في الحال دمعه ، وأجهش بالبكاء فصاحت به أمه الأميرة عائشة : « أجل فلتبك كالنساء ملكا لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال » . وتعرف الرواية الاسبانية تلك الاكمة التى كانت مسرحا لذلك المنظر المحزن

باسم شعري مؤثر هو : « زفرة العربي الاخيرة » ، وما تزال قائمة حتى اليوم يعينها سكان المنطقة للسائح المتجول .

ثم تقول الرواية ، إن باب الحمراء الذي خرج منه أبو عبدالله لآخر مرة ، وهو باب الطباق السبع ، قد سُد عقب خروجه منه برجاء منه الى ملك قشتالة ، وبُني مكانه ، حتى لا يجوزه انسان من بعده . وما زالت الرواية تعين لنا مكان هذا الباب بين الاطلال الدارسة ، وهو يقع في طرف الهضبة ، في الجنوب الشرقي منها على مقربة من « برج الماء » ، وقد رأيناه وقد سد فراغه حقيقة بالبناء [1] .

لم يطل مكوث أبو عبدالله بمقره في أندرش ، ولم يمض سوى عام وبضعة أشهر ، حتى أدرك انه يستحيل عليه البقاء في هذا الوضع المهين ، كعامل لملك قشتالة . وكان ملك قشتالة من جانبه ينظر الى وجوده بعين التوجس ، ويخشى أن يكون مثار الفتنة والقلاقل . وعول أبو عبدالله أن يحذو حذو عمه الزغل في الجواز إلى المغرب ، وتنازل للملكي قشتالة عن حقوقه نظير مبلغ كبير بمقتضى معاهدة خاصة ، أبرمت بينه وبين الملكين في ابريل سنة ١٤٩٣ ، وفيها تعهد ببيع أملاكه ، ومغادرة اسبانيا نهائيا . وما تزال هذه المعاهدة ، محفوظة في دار المحفوظات الاسبانية العامة في سيمانقا ، وقد ذيل عليها أبو عبدالله بخطه وتوقيعه بالقبول ، وبصمها بخاتمه ، وذلك بتاريخ ٢٣ رمضان سنة ٨٩٨ هـ (٧ اغسطس سنة ١٤٩٣ م) .

ويجري نص القبول كما يأتي :

« الحمد لله السلطان والسلطانة ، أضيافي . أنا الامير محمد بن علي بن

---

(١) ان ما تقصه الرواية علينا من هذه الوقائع وامثالها لا يدخل في حيز التاريخ المحقق ، وانما يجري على الارجح مجرى القصص والاساطير التي ذاعت في هذا العصر ، وسجلتها التواريخ القشتالية ، واخرجها بعض اكابر مصوري هذا العصر في صور تمثلها ، مازالت تحتفظ بها المتاحف والكنائس الغرناطية .

نصر خديمكم . وصلني من مقامكم العلي العتيد . وفيها جميع الفصول الذي عقدها عني وبكم . التقديم من خديمي القائد أبو القاسم المليح . ووصلت بخط يدكم الكريمة عليها . وبطابعكم العزيز كيف هيت مذكورة بهذا الذي هي تصلكم . واي نول ونحلف أن رضيت بها بكلام الوفا مثل خديم جيد . وترى هذا خط يدى وطابعى أرقيته عليها ، لتظهر صحة قولى ، ووصلت بتاريخ الثالث والعشرين من شهر رمضان المعظم عام ثمانية وتسعين وثمانمائة . أنا كاتبه محمد بن علي بن نصر رضيت وقبلت جميع ما في هذا المكتوب الثابت . وتقبل يدى . الى اضياق السلطان والسلطانة ، مُدّ لى هناكما » .

وتعرض صورة مكبرة من هذه الوثيقة بمتحف مدريد الحربي ، الى جانب رداء وصف بأنه عباءة (أبي عبدالله) ، وسيف فاخر وصف بأنه سيف أبي عبدالله .

وكان أبو عبدالله وقت أن سقطت غرناطة ، وانتهت دولة الاسلام في الاندلس فتى في نحو الثلاثين من عمره ، وذلك حسبما يستفاد من أقوال الرواية القشتالية المعاصرة ، وقد تركت لنا الرواية القشتالية المعاصرة أيضا وصفا لشخصه ، خلاصته أنه كان ممشوق القد ، حسن الطلعة ، شاحب اللون ، له عينان سوداوان نجلاوان ، ولحية قوية .

انصافا للرجل

هكذا اعتزم أبو عبدالله أن يغادر إلى الابد ، تلك الأرض التي نشأ فيها أجداده منذ عصور ، وأن يعبر الى المغرب في أهله وأمواله ، وذلك في سفن أعدها ملك قشتالة لجوازه . وكان ذلك في أواخر سنة ١٤٩٣ م . ونزل أولا بمليلة ، ثم قصد الى فاس ، واستقر بها ، وتقدم الى ملكها السلطان محمد شيخ بنى وطاس الذين غلبوا على بنى مرين مستجيرا به ، مستظلا بلوائه ورعايته ، معتذرا عما أصاب الاسلام في الاندلس على يده ، متبرئا مما نسب اليه من

ضروب التفريط والخيانة . وقد بسط أبو عبدالله دفاعه في كتاب طويل مؤثر ، كتبه عن لسانه ، كاتبه ووزيره محمد بن عبدالله العربي العقيلي وسماه « بالروض العاطر الأنفاس في التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس » . وهذا الدفاع الشهير الذي يقدمه الينا أبو عبدالله عن موقفه وتصرفه ، هو قطعة رائعة من الفصاحة السياسية ، وهو يدل في روحه وقوته على فداحة التبعة التى شعر آخر ملوك الاندلس ، انه يحملها أمام الله والتاريخ ، وعلى أن هذا الامير المنكود ، لم يرد أن ينحدر الى غمر النسيان والعدم محكوما عليه دون أن يبسط للتاريخ قضيته .

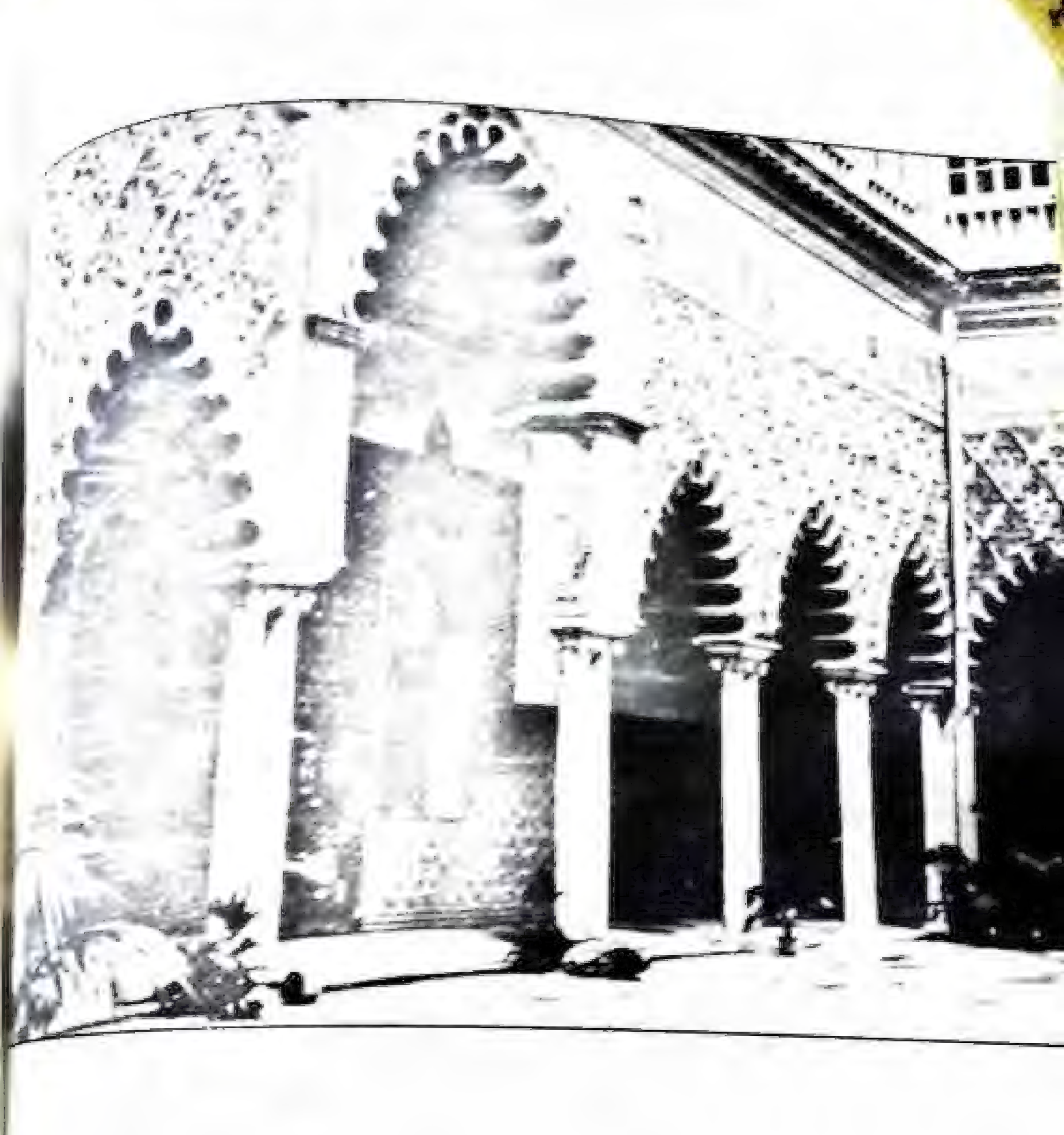
وان آخر ملوك الاندلس ، بالرغم من كل ما يحيطه به التاريخ من المسئوليات الخطيرة والاوزار الفادحة ، ليستحق مع ذلك في نظرنا من التاريخ كلمة ثناء وتقدير ، تجب لمن خاض مثل ما خاضه من الغمار ، ومثل ما تعرض له من صنوف الاغراء . فقد عاش مسلما ومات مسلما ، واستطاع أن يحتفظ بدينه الحنيف ، بالرغم من فداحة المحنة التى نزلت به ، وظروف الاغراء القوية التى كانت تحيط به ، وبالرغم مما شهده من تطارح معظم وزرائه وقادته ، بل وأقاربه الاقربين على قدمي الملكين الكاثوليكيين ، ودخولهم في دين النصرانية . وكان في مقدمة هؤلاء أخواه لابيه الاميران سعد ونصر ، ولدا السلطان أبي الحسن من زوجه النصرانية اليزابيت دى سوليس .

وكان فرناندو الكاثوليكي يستعمل كل الوسائل لاغراء الوزراء والقادة المسلمين على التنصر ، ويعرض عليهم أن يكون تنصرهم داخل خيمته الخاصة حماية لهم من السقوط الأبدى في نظر مواطنيهم . هذه الظروف كلها كانت خليقة بأن تحمل أبا عبد الله على الاستجابة الى دواعى التحريض والإغراء الخطيرة . ولكنه استطاع أن يخرج من هذه الغمار معتصما بدينه المتين . ولم يفته أن يلمح الى ذلك باعتزاز في دفاعه حيث يقول مشيرا الى وعود ملك قشتالة وعروضه المغرية : « فلم نر ونحن من سلالة الأحمر مجاورة الصفر ، ولا سوغ لنا الإيمان الإقامة بين ظهراني الكفر » .

استقر أبو عبدالله في فاس في ظل بني وطاس ، وشيد بها قصورا على الطراز الاندلسي ، رآها وتجول فيها المقرى مؤرخ الاندلس بعد ذلك بنحو قرن ١٠٣٧ هـ (١٦٢٨ م) . وعاش الملك المنكود في منفاه طويلا يتقلب في غمر الحسرات والذكريات المفجعة . وتوفي بعد المأساة بنحو أربعين عاما في سنة ٩٤٠ هـ (١٥٣٤ م) ، ودفن بفاس ، وترك ولدين هما يوسف وأحمد . واستمر عقبه متصلا معروفا بفاس مدى أحقاب ، ولكنهم انحدروا قبل بعيد الى هاوية البؤس والفاقة ، ويذكر لنا المقرى ، في كتابه نفح الطيب ، انه رآهم في سنة ١٠٣٧ هـ ، فقراء معدمين يعيشون من أموال الصدقات .

ويعرف أبو عبدالله آخر ملوك الاندلس بالملك الصغير وبالاسبانية El Rey chico تمييزا له من عمه أبي عبدالله الزغل ويلقب بالزغيبي ، أو عاثر الحظ ، تنويها بما أصاب الاسلام على يده من الخطوب والمحن .





الفصل الثاني

قبل السقوط



نبوءاتٌ أندلسيَّة قبلَ السقوطِ !

لم تستطع جماعة اسلامية أن تتنبأ بمصيرها سوى الأندلس ، فهي قد شعرت به منذ أيام الطوائف في أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ، وأخذت تترقبه من حين الى آخر في صبر وفزع ، مستسلمة الى قدرها ، مجاهدة ما استطاعت في الدفاع عن نفسها ، ملتجئة منذ أوائل القرن السابع الهجري ، الى معاونة شقيقتها المسلمة عبر البحر - المغرب .

وهي لم تنس مطلقا ، أن اخوانها ، هؤلاء البواسل ، فيما وراء البحر ، قد أنقذوها من الفناء المحقق ، وذلك حينما اشتدت وطأة الجيوش الاسبانية عقب سقوط طليطلة (٤٧٨ هـ - ١٠٨٥ م) على ملوك الطوائف ، وشعروا بأن الكارثة قد أضحت على وشك الوقوع ، واستنجدوا يومئذ باخوانهم فيما وراء البحر ، بالمرابطين ، سادة المغرب ، واستجاب المرابطون الى غوث اخوانهم أهل الأندلس ، وعبروا البحر الى اسبانيا ، والتقوا بالجيوش الاسبانية الى جانب الطوائف الضئيلة ، في موقعة الزلاقة الكبرى ، وأحرزوا فيها نصرهم الباهر بسحق الجيوش الاسبانية (٤٧٩ هـ ١٠٨٦ م)

العربي العدد ٢٥٧ ابريل - نيسان ١٩٨٠ م .

وانقذت الأندلس بذلك من الفناء المحقق . ثم استولى المرابطون على الأندلس ، وحكموها زهاء نصف قرن . وخلفهم في حكمها الموحدون الذين خلفوهم في سيادة المغرب ، وحكموها زهاء قرن آخر . ثم جاشت الأندلس بالثورة ضد حكامها المغاربة ، واجتمعت فلول الثورة آخر الأمر في الجنوب ، حيث قامت مملكة غرناطة آخر الممالك الأندلسية ، وقدر لها أن تعيش مائتين وخمسين عاما اخرى .

بل لقد ورد هذا النذير بالخطر على الأندلس ، قبل سقوط طليطلة ، في اقوال ابن حيان مؤرخ الأندلس الكبير في تعليقه على موقعة بربشتر من أعمال الثغر الأعلى (أرجوان) وسقوطها في يد الاسبان في سنة (٤٥٦ هـ - ١٠٦٣ م) ، في وابل من القتل والسبي وشنيع الاعتداء . حيث يقول : « وقد أشفينا بشرح هذه الحالة الفادحة مصائب جليلة ، مؤذنة بوشك القلعة ، طالما حذر اسلافنا لحاقها ، بما احتملوه عمن قبلهم من آثاره . ولا شك عند ذوي الألباب أن ذلك مما دهانا من داء التقاطع ، وقد أمرنا بالتواصل والألفة ، فاصبحنا من استشعار ذلك والتجاري عليه ، على شفا جرف يؤدي الى الهلكة لا محالة » .

ولما سقطت طليطلة ، وارتجت الأندلس فرقا ورعبا ، قال شاعرهم :

يا أهل أندلس شدوا رحالكم ... فما المقام بها الا من الغلط
السلك ينثر من أطرافه وأرى ... سلك الجزيرة منثورا من الوسط
من جاور الشر لا يأمن بوائقه ... كيف الحياة مع الحيات في سفط

وبعد سقوط طليطلة ، ونصر الزلاقة الساحق ، أحرز الموحدون بقيادة عاهلهم الخليفة يعقوب المنصور ، نصرهم الحاسم على اسبانيا النصرانية وذلك في موقعة الأرك المشهورة (٥٩٣ هـ - ١١٩٥ م) ، فكانت زلاقة أخرى ،

ولكن الأندلس ما لبثت أن لقيت هزيمتها الحاسمة بعد ذلك بقليل ، على يد اسبانيا النصرانية في موقعة العقاب المشئومة (٦٠٩ هـ - ١٢٠٢ م) . وكانت هزيمة العقاب ضربة شديدة لسلطان الموحدين ولاسبانيا المسلمة ، فعاد شبح الفناء يلوح للأندلس قويا منذرا . وسرى هذا التوجس الى كتاب العصر وشعرائه ، وظهر واضحا في رسائلهم وقصائدهم . ومن ذلك ما قاله أبو اسحق ابراهيم بن الدباغ الاشبيلي ، معلقا على موقعة العقاب :

وقائلة أراك تطيل تفكرا | كأنك قد وقفت لدى الحساب
فقلت لها أفكر في عقاب | غدا سببا لمعركة العقاب
فما في أرض أندلس مقام | وقد وصل البلا من كل باب

هذا ، وقد كانت مملكة غرناطة ، آخر الممالك الأندلسية ، بالرغم من العمر الطويل الذي قدر لها . تستشعر الخطر الداهم دائما ، وترقب نمو جارتها ، المملكة النصرانية الاسبانية في جزع وخوف . أجل إنها لقيت في اخوانها وراء البحر ، وهم بنو مرين سادة المغرب ، العون والانجاد باستمرار ، وعقد التحالف المستمر بين المملكتين ، وترك ملوك غرناطة لبني مرين ثلاث قواعد أندلسية ، لتكون مراكز للدفاع وتدفق القوى المنجدة ، هي جبل طارق (جبل الفتح) ورندة والجزيرة الخضراء . وأبدى بنو مرين في هذه المهمة الدفاعية ، اهتماما واخلاصا ومقدرة ، واستعادوا جبل طارق من يد الاسبان ، وكانوا قد استولوا عليه مدى حين . غير أن مملكة بني مرين ما لبثت منذ أواخر القرن الثامن الهجري ، أن أصابها الضعف ، وكثرت بها الانقلابات ، ولم يبق في وسعها أن تهرع الى انجاد شقيقتها فيما وراء البحر . وشعرت مملكة غرناطة ، أنه لم يبق في وسعها أن تعتمد على هذا الجانب الذي كان ينجدها ، وأيقنت أنها لا بد أن تعتمد على نفسها في الدفاع عن مصيرها ، إن كان ثمة دفاع يجدي .

ومنذ أواسط القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) نرى حساسية الشعور بخطر المصير ، تشتد لدى غرناطة ، وتصدر النبوءات بالخطر من أكابر رجاها ، فنرى الوزير لسان الدين ابن الخطيب مثلا يقول على لسان مليكه السلطان يوسف أبي الحجاج في رسالة كتبها الى السلطان أبي سالم المريني ملك المغرب بأنه « اذا انحلت عروة تأميلكم عن هذا الوطن (أي الأندلس) استولت عليه يد عدوه » . ونرى نفس الوزير ابن الخطيب يكتب في وصية لأولاده ما يأتي ، وقد كتبها حوالي سنة (٧٧٠ هـ - ١٣٦٨ م) : « ومن رزق « ومن رزق منكم مالا بهذا الوطن القلق المهاد ، الذي لا يصلح لغير الجهاد ، فلا يستهلكه أجمع في العقار، فيصبح عرضة للمذلة والاحتقار، وساعيا لنفسه ان تغلب العدو على بلده في الافتضاح والافتقار ، ومعوقا عن الانتقال أمام النوب الثقال . واذا كان رزق العبد على المولى ، فالاجمال في الطلب أولى » . وقد كان ذلك قبل سقوط غرناطة بنحو مائة وعشرين عاما .

اعتذار للرسول

وكان من دلائل الشعور بهذا الخطر الداهم على مصاير الأندلس ، أن ملوك غرناطة لم يقم أحد منهم بالسفر الى المشرق لقضاء فريضة الحج ، لأنهم كانوا يخشون أن يقع المكروه في غيابهم الطويل عن المملكة ، وأن ينتهز الاسبان الفرصة للقيام بالهجوم على غرناطة والاستيلاء عليها . ومن ثم فقد ابتدعوا فكرة الاستنابة بتوجيه الرسائل الملوكية الى الضريح النبوي الشريف . وقد كتب الوزير ابن الخطيب الى التربة النبوية من ذلك رسالتين ، الأولى عن السلطان يوسف أبي الحجاج الذي حكم الأندلس من سنة ٧٣٣ الى سنة ٧٥٣ هـ والثانية عن ولده السلطان محمد الغني بالله الذي حكم من سنة ٧٥٣ الى سنة ٧٩٣ هـ ، ومع كل رسالة قصيدة مديح نبوي . والرسالتان آيتان في البلاغة ، ورقة التوسل النبوي ، الذي يذيب دموع العين تأثرا وخشوعا .

ويعتذر السلطان يوسف أبو الحجاج في القصيدة التي نظمها عنه ابن الخطيب الى ضجيع التربة المقدسة الرسول صلى الله عليه وسلم ، في الأبيات الآتية :

عدتني بأقصى الغرب عن تربك العدا ... جلالقة الثغر الغريب ورومه
أجاهد منهم في سبيلك أمة ... هي البحر يعي أمرها من يرومه
ولولا اعتناء منك يا ملجأ الورى ... لريع حماه واستبيح حريمه
ولما نأت داري وأعذر مطمعي ... وأقلقني شوق يشب جحيمه
بعثت بها جهد المقل معولا ... على مجدك الأعلى الذي جل خيمه

وجاء في الرسالة المنثورة التي كتبت باسم السلطان المذكور ما يلي :

« أستنبت رقعتي هذه اليك ، لتطير بجناح خافق ، وتشعر نيتي التي تصحبها برفق مرافق ، ليؤدي عن عبدك ويبلغ ، ويعفر الخد في تربك ويمرغ ، ويطيب بريا معاهدك الطاهرة وبيوتك ، ويقف وقوف الخشوع والخضوع تجاه تابوتك ، ويقول بلسان التملق ، ارحم غربتي وانقطاعي ، وتغمد بطولك قصر باعي ، وقابل بالقبول نيابتي . وعجّل بالرضا إجابتي »

« هذه يا رسول الله وسيلة من بعدت داره ، وشط مزاره ، ولم يجعل بيده اختياره . فإن لم تكن هذه للقبول أهلا ، فأنت للإغضاء والسمح أهل ، وان كانت الفاظها وعرة ، فجنابك للقاصدين سهل . واذا كان الحب يتوارث ، كما اخبرت ، والعروق تدسس حسبما اليه أشرت ، فلي بانتسابي الى سعد عميد أنصارك مزية ، ووسيلة أثيرة حفية ، فلا تنسني ومن بهذه الجزيرة التي افتتحت بسيف كلمتك على أيدي خير أمتك » .

بديلا عن الحج

ونفتتح الرسالة الثانية ، في المديح والاستعطاف النبوي ، وهي التي وجهها ابن الخطيب الى التربة المقدسة ، عن ملكيه السلطان الغني بالله ،

بقصيدة نبوية عصماء تستهل بما يلي :

دعـا بـأقصى المغـربـين غـريب	وأنت عـلى بعـد المـزار قـريب
مـدل بـأسبـاب الرجـاء وطـرفـه	غضيض عـلى حكم الحيا ويهيب
يكلف قـرص البـدر حـمل تحيـة	اذا مـا هوى والشمس حين تغيب

ومما جاء في الرسالة المذكورة قوله : « فقد سارت الركاب اليك ، ولم يقض مسير ، وحومت الأسراب عليك والجناح كسير ، ووعدت الأملاك فأخلفت ، وحلفت العزائم فلم تف بما حلفت ، ولم تحصل النفس من تلك المعاهد ذات الشرف الأمثل ، إلا على التمثيل ، ولا من المعالم الملتمسة التنوير ، الا على التصوير ، مهبط وحي الله ، ومتنزل أسمائه ، ومتردد ملائكة سمائه ، ومرافق أوليائه ، وملاحد أصحاب خيرة أنبيائه ، رزقني الله الرضا بقضاية على جاحم البعد ورمضايه . ثم يقول بلسان سلطانه : « واستنبت هذه الرسالة مانحة بحر الندى الممنوع ، ومفاتحته بابداء الهدى بفتح الفتوح ، وقارعة المظاهر والصروح ، وباقية الرحل بمتنزل المليكه والروح ، لتمد الى قلبك يد استمناح ، وتطير اليك من الشوق الحثيث بجناح ، ثم تقف موقف الانكسار ، فان كان تجرها آمنا من الخسار ، وتقدم بأنس ، وبحجم بوحشة الغربة ، ويجبس لطول الغيبة ، وتقول ارحم بعد داري ، وضعف اقتداري ، وانتزاح أوطاني ، وعلق أعطاني ، وقلة زادي ، وفراغ مزادي ، وتقبل وسيلة اعترافي ، وتغمد صفوة اقترافي ، وعجل بالرضا انصراف تحملي لا انصرافي » .

وهذه الرسالة طويلة ضمنها ابن الخطيب قصة الغزوات الناجحة التي قام بها سلطانه ضد مدن جيان وأبده وقرطبة واطريرة وحصن أشر ، وما فتح الله به على المسلمين من تخريب وانهاب هذه المدن التي انتزعها الكفر من الأندلس المسلمة . وبعث السلطان رفق رسالته بعض أجزاء النواقيس التي انتزعت من كنائسها المخربة .

ونحن نعرف ، أنه الى جانب الرسائل السلطانية التي كانت ترسل الى التربة النبوية الشريفة ، كانت ترسل كذلك مصاحف مذهبة فاخرة يكتبها السلطان ، أو الأمير بنفسه ، وتوضع في أطار مذهب فاخر . وكان من ذلك المصحف الشريف ، الذي كتبه السلطان الكبير أبو الحسن المريني ملك المغرب ، وأرسله الى حرم التربة النبوية عن طريق مصر في سنة (٧٣٩ هـ - ١٣٣٨ م) .

غير ان الرسائل النبوية الغرناطية ، كانت ترمي الى غرض أهم وأبعد ، وهو قيامها بالنسبة لمرسليها مقام أداء الزيارة ، وقضاء فريضة الحج ذاتها ، وذلك لعجزهم وتوجسهم ، حسبما أشرنا عن القيام بالرحلة الشخصية الى المشرق .

وهذا الشعور بالقصور عن أداء الرحلة المشرقية ، حسبما بينا من قبل ، انما هو الشعور بالخوف من وقوع المصير المحزن ، الذي لبثت الممالك الأندلسية ترقبه وتخشاه دائما ، خلال مراحل حياتها الطويلة .





حكومة الجماعة الأندلسية

في شهر اكتوبر من سنة ١٩٧٥ احتفلت وزارة الثقافة المغربية بالذكرى الألفية لمولد شاعر الأندلس الكبير ابي الوليد ابن زيدون . وشهد هذا الحفل الأدبي الكبير جمهرة من أكابر الباحثين والأدباء والشعراء ، وألقيت فيه عدة بحوث وقصائد تدور حول حياة الشاعر الكبير وحول شعره وعصره . وبالاخص حول حياته الغرامية ، وهيامه الشهير بولادة ابنة الخليفة الاموي (المستكفي بالله) . ولكن النواحي الأدبية وبالاخص النواحي الغرامية في حياة ابن زيدون وحبيبته (ولادة) غلبت على جو الندوة ، فلم يتحدث أحد من الباحثين بصورة شافية عن الخواطر التاريخية ، والاجتماعية للعصر الذي عاش فيه الشاعر وهو عصر الطوائف ، وهو من أواخر عصور التاريخ الأندلسي بالخواص المبتكرة المميزة

العربي العدد ٢٠٨ مارس - آذار ١٩٧٦م

واذا كان ابن زيدون - بالرغم من توليه الوزارة في ظل دولتين من أعظم دول الطوائف ، وهما دولة بني جهور في قرطبة ، ودولة بني عباد في اشبيلية . واشتراكه اشتراكا فعليا في الحياة السياسية - لم يترك لنا لا في نثره ولا في شعره أية آثار او تعليقات سياسية على نحو ما فعل بعض زملائه من الشعراء المعاصرين . امثال ابي بكر ابن عمار ، وابي بكر الداني (ابن اللبانة) ، وابن عبدون - حيث ينعكس في قصائدهم صدى الاحداث التاريخية المعاصرة ، وحيث يستطيع المؤرخ أن يستخرج كثيرا من الشواهد التاريخية الهامة ، فان شعره يفقد بذلك الاغفال كثيرا من القيم المعنوية ، وذلك على الرغم من روعته الادبية والفنية

ولقد عاش ابن زيدون في قرطبة ، وعمل في ظل حكومة الجماعة الجمهورية سفيرا ووزيرا ، ومع ذلك فان هذه الظواهر الفذه في تاريخ الاندلس ، بل وفي التاريخ الاسلامي كله ، لم تلفت نظره ، ولم تستثر قلمه باية كلمة او اشارة او تعليق . . وقد كان حريا به ان يترك لنا عنها الكثير في رسائله وقصائده العديدة .

دويلات عديدة

لما انهارت دعائم الخلافة الاندلسية في فاتحة القرن الخامس الهجري (القرن الحادي عشر الميلادي) وتمزقت الدولة الاسلامية الكبرى بالاندلس الى دويلات عديدة ، هي دول الطوائف ، كانت هذه الدول الصغيرة المتنافسة ، تقدم الينا بالرغم من تفرقها وضعفها ، صورا خلابة شائقة . ففي اشبيلية يسطع بلاط بني عباد بهاء وفخامة ، وفي قرطبة حكومة ارستقراطية من طراز مبتكر . وفي المرية يقوم ابن صمادح على راس دولة من الشعر والشعراء، وفي بطليوس يقيم الامير العالم المتوكل ابن الافطس دولة للعلم والادب

وينافس ابن ذي النون في طليطلة ، ودولة بني عباد في اشبيلية ، في البهاء والفخامة . . وهكذا نستطيع أن نلمح في جنبات اسبانيا المسلمة ، في هذه الفترة العصيبة من تاريخها ، كثيرا من تلك المناظر الفخمة التي اجتمعت من قبل حول بلاط قرطبة الاموي في عصور القوة والمجد .

ولقد كان مثل قرطبة ، عاصمة الخلافة القديمة فريدا بين دول الطوائف . . . ذلك انه لم تقم بها دول بالمعنى المفهوم ، ولم يقم بها بلاط على نحو ما وقع في سائر قواعد الاندلس الكبرى . ولكن قامت بها حكومة او بعبارة اخرى هيئة ادارية من نوع جديد سميت « بحكومة الجماعة » . وكان على راس هذه الحكومة الشورية المبتكرة رجل من ابرع رجالات الاندلس في الادارة والسياسة ، هو ابو الحزم جهور بن محمد بن جهور . وكان قيامه في حكم قرطبة في سنة ٤٢٢هـ ، خاتمة سلسلة طويلة من الثورات والانقلابات المتوالية ، التي استمرت - منذ انهيار الدولة العامرية وعود الامر الى بني امية - زهاء عشرين عاما .

وينتمي ابو الحزم بن جهور الى بيت من اعرق بيوتات الموالي الاندلسية . وقد تعاقب اجداده في مناصب الدولة الكبرى من الحجابة والوزارة وغيرها . وكان جده جهور بن عبيد الله بن ابي عبدة ، من وزراء عبدالرحمن الناصر . وتقلب ابو الحزم في مناصب الدولة ، وولي الوزارة غير مرة في ظل من تقلب في خلافة قرطبة ايام الفتنة من امراء بني امية ، وامراء بني حمود الأدارسة . وكان الحكم في تلك الأونة المضطربة من حياة العاصمة الاندلسية سجالا بين البربر وبني امية . وكانت رياسة بني امية احب الى نفوس القرطبيين والشعب الاندلسي قاطبة ، لما كان يغلب على زعماء البربر من العنف والخشونة . وكان آخر من تولى الحكم من بني امية في خاتمة هذه الحقبة ، الامير هشام بن محمد بن هشام ، استدعاه ابو الحزم ، وهو يومئذ زعيم « الجماعة » بقرطبة ، فدخلها في سنة ٤٢٠هـ . وتلقب بالمعتضد بالله . ولكن حكمه لم يطل سوى عامين ، ثم ثار عليه الجند ،

ففر من قرطبة ، والتجا الى بني هود في سرقسطة . ثم توفي بعد بضعة اعوام دون عقب ، وانقطعت بوفاته الدعوة لبني امية . وعفا ذكرهم وانتهت دولتهم .

حكومة الجماعة

ولما انهار حكم بني امية في قرطبة لآخرمرة ، كان الشعب القرطبي قد سئم تعاقب الحكومات والدول على هذا النحو المضطرب . ولم يحدث من جهة اخرى في قرطبة ما حدث في قواعد الاندلس الاخرى من قيام زعيم محلي يقيم لنفسه دولة جديدة على غرار ما حدث في اشبيلية وطليطلة وبطليوس وغرناطة والمرية وغيرها . وكان ابو الحزم ابن جهور كبير زعماء قرطبة يحظى من الشعب القرطبي بكل عطفه وثقته . وكانت لديه كل فرصة ليقيم لنفسه مثل هذه الدولة . ولكنه لم يجنح الى مثل هذه الغاية . وآثر ان يشق لنفسه طريقا فذا . فلما اختاره الزعماء والكبراء للرياسة أبى أن ينفرد بها دونهم ، وآثر أن يدعو صفوة الرؤساء الى مشاركته في الحكم وتوجيه الشئون ، وان يجتمع الرؤساء جميعا في شبه مجلس للدولة او حكومة للجماعة ، تتولى الحكم باشرافه وتوجيهه ، وتصدر باسمها القرارات الهامة . فاذا طلب منه مال او قضاء امر من الامور ، قال ليس لي عطاء ولا منع إنما هو « للجماعة » وانا امينهم ، واذا عرض له امر عظيم او اعتزم تدبير مسالة خطيرة استدعاهم وشاورهم . واذا خوطب بكتاب لا ينظر فيه الا ان يكون باسم الوزارة . وهكذا كان جهور يتحدث في كل امر ، ويمضي كل امر لا باسمه ولكن باسم « الجماعة » ، وقرن جهور ذلك كله باجراء بارع ، هو انه لم يفارق رسم الوزارة ، ولم ينتقل من داره الى قصور الخلفاء ، واكتفى بان رتب عليها الحجاب والحَشم على ما كانت عليه ايام الخلافة ، وجعل نفسه ممسكا للموضع الى ان يجيء مستحق يتفق عليه فيسلم اليه . وجعل ما يرتفع من الاموال السلطانية ، بايدي رجال رتبهم لذلك ، وهو المشرف عليه . ولم يتخذ اي عنوان او اجراء يبرز رياسته او يجبط

نفسه باي مظهر من مظاهر الابهة والفخامة ، بل لبث على سابق عهده من الانزواء والتواضع ، والقناعة ، وخفض الجناح ، ومعاملة الجميع بالرفق والحسنى .

وكان جهور في اتباعه لهذا الاسلوب في الحكم يتسم بضرب من بعد النظر والدهاء البارع ، وكان يرمي بذلك كله الى اكتساب تاييد الزعماء الاقوياء واتقاء ما قد تثيره الاطماع المتضاربة من الخصومات والمعارك ، وتاييد الامن والنظام بجمع الكلمة وتوحيد الراي ، وتوزيع التبعات ، وهكذا أنشأ جهور بقرطبة نوعا من « حكم الشورى » في صورة حكومة دستورية . وقد عرفت هذه الحكومة الفريدة في صحف التاريخ الاسلامي « بحكومة الجماعة » . واليك كيف يصف لنا ابن حيان ـ عمدة مؤرخي الاندلس ، ووزير الدولة في ظل رياسة ابي الوليد بن جهور ولد الرئيس جهور ـ اجتماع الملأ من اهل قرطبة على تقديم جهور وإنشائه حكومة الجماعة :

« اعطوا منه قوس السياسة باريها ، وولوا من الجماعة داهيتها ، فاخترع لهم لاول وقته نوعا من التدبير حملهم عليه ، فاقترن صلاحهم به ، واجاد السياسة ، فانسدل به الستر على اهل قرطبة مدته ، وحصل على كل ما يرتفع من البلد بعد اعطاء مقاتلته ، وصير ذلك بايدي ثقات من الخدمة ، ومتى سئل : قال : ليس لي عطاء ولا منع ، هو للجماعة ، وانا امينهم » واذا رابه امر عظيم اوعزم على تدبير احضرهم وشاورهم . واذا خوطب بكتاب لا ينظر فيه الا ان يكون باسم الوزارة . فاعطى السلطان حقه من النظر ، ولم يخل من ذلك من ربحه لمعيشته حتى تضاعف ثراؤه وصار لا تقع عينه على اغنى منه .

الرئاسة العليا

« وللجماعة » من الناحية الاصطلاحية ، في نظم الاندلس ، مكانة ملحوظة ، فهي تعني « الرياسة العليا » او جماعة الزعماء ممثلة في الصفوة من اهل

المدينة او الدولة . وفي نظام القضاء الاندلسي يقال لرئيس القضاة الاعلى « قاضي الجماعة » ويقابله في نظام القضاء الشرقي « قاضي القضاة » . ومن ثم فانه من الخطأ ان توصف « حكومة الجماعة » الاندلسية بانها جمهورية لان الجمهورية تنصرف الى حكم الشعب ممثلا في هيئة نيابية ، بينما كانت « حكومة الجماعة » هي حكومة الزعماء المختارين او الحكومة « الاقلية الارستوقراطية » الشورية . التي نراها شعارا لكثير من حكومات العصر القديم ، ولا سيما في المدن اليونانية . وهي في الواقع حكم « الارستوقراطية » متى وجه الى خير الشعب المحكوم ، او حكم الصفوة او الاقلية المختارة اذا اتجهت سياستهم في نفس الوقت الى تدعيم سلطانهم وانماء ثرواتهم ، وعندئذ تغدو حكومة « الاوليجارشية Oligarchy » وهي اقل اصلاحا من الحكومة الارستوقراطية .

ويمكننا ان نتبين ملامح هذا النوع من حكم الجماعة او حكم الاقلية الارستقراطية ، الذي ابتدعه ابو الحزم بن جهور في بعض الحكومات التي قامت فيها بعد ، في بعض الولايات والمدن الايطالية ايام عصر الإحياء مثل حكومة « الكوموني » (الجمعية العامة) في جنوة ، وحكومة « السنيوريا » « مجلس السادة » في فلورنس . ايام حكم آل مديتشي . وقد كان هذا النظام في الواقع اقرب النظم الى حكومة الجماعة . فقد كان آل مديتشي يحكمون وفق ارادتهم حكما مطلقا ، ولكن يحتجبون في نفس الوقت وراء هيئة منتخبة من النبلاء والزعماء الذين يعملون بوحيهم تسمى « السنيوريا » اي جماعة الحكام او السادة . وكانت حكومات « الدوجات » الدكتاتورية ، تقوم في البندقية وتحتجب وراء « مجلس العشرة » الشهير الذي غدا - فيما بعد - هيئة مطلقة رهيبة . ولسنا نود ان نقول ان هذه الحكومات الايطالية كانت مأخوذة او مقتبسة من نظام حكومة الجماعة الاندلسية ، فليس ثمة دليل على ذلك ، ولكنا نود ان نقول فقط : انها قامت في ظروف مشابهة ، ولمثل البواعث والظروف التي اوحت بقيامها في قرطبة

وقد استطاع جهور ان يحقق في ظل حكومة الجماعة لقرطبة ولقطرها الذي كان يمتد شمالا حتى جبل السارات وشرقا حتى منابع الوادي الكبير ، وغربا حتى « استجة » ، وجنوبا حتى ولاية غرناطة ، والذي كان يشمل من المدن - عدا قرطبة جيان وابدة ، وبياسة والمدور وارجونة واندوجر - استطاع ان يحقق لها نوعا من الاستقرار والسلام والامن . وان يعيد اليها لمحة من رخائها الذاهب . ويشيد ابن حيان بخلال جهور وبخاصة في مهمته بقوله :

(وكان مع براعته ورفعة قدره ، وحكمة حديثه من اشد الناس تواضعا وعفة ، واشبههم ظاهراً بباطن ، وأولاً باخر ، لم تختلف به حال من الفتاء الى الكهولة ، واستمر في تدبير قرطبة ، فانجح سعيه بصلاحها ، ولم شعثها في المدة القريبة ، وأثمر الثمرة الزكية ، ودب دبيب الشفاء في السقام ، فنعش فيها الرفات ، والحفها رداء الأمن ، ومانع عنها من كان يطلبها من امراء البربر المتوزعين اسلافها ، بخفض الجناح ، ومعاملة الرفق ، حتى حصل على سلمهم ، واستدرار مرافق بلادهم ، وداری القاسطين من ملوك الفتنة حتى حفظوا حضرته ، واوجبوا لها حرمة) .

ويقول الحميدي : «وكان يشهد الجنائز ، ويعود المرضى ، جاريا على طريقة الصالحين ، وهو مع ذلك يدبر الامر بتدبير السلاطين المتغلبين . وكان امنا وادعا ، كانت قرطبة في ايامه حريما يأمن فيه كل خائف من غيره » .

واستطال حكم الوزير ابو الحزم جهور وحكومته الشورية الارستوقراطية ، حكومة الجماعة زهاء اربعة عشر عاما نجت فيها قرطبة من اهوال الحرب الاهلية المخربة ، ومن عدوان الطامعين في امتلاكها من الامراء الاقوياء ، وتمتعت بفترة من الامن والرخاء لم تعرفها منذ انهيار الدولة العامرية وبداية الفتنة . ثم توفى الوزير النابه في اوائل سنة ٤٣٥هـ (١٠٤٣م) تاركا

حكومة الجماعة تحت اشراف ولده ابي الوليد محمد بن جهور . وكان بالرغم من عدله ورفقه ضعيفا لا يستطيع النهوض باعباء الرياسة . وفي ظل حكومة الجماعة ، وفي عهد ابي الوليد عمل في الوزارة المؤرخ الكبير ابو مروان ابن حيان ، حسبما يذكر لنا في حديثه عن الدولة الجهورية ، وكان عمله « ديوان السلطان » . وعمل في ظلها ايضا الكاتب والشاعر الكبير ابو الوليد بن زيدون ، وعهد اليه الرئيس ابو الوليد اولا بالنظر في شئون اهل الذمة ، ثم رفع مكانته وعهد اليه بالسفارة بينه وبين رؤساء الاندلس والترسل اليهم . فلمع في منصبه واشتهر ببارع رسائله ومحاوراته ، كما اشتهر برائع نظمه ، ولكنه كان يحيا حياة نكدة مضطربة ترتبت قبل كل شيء على هيامه بولادة ابنه الخليفة المستكفي .

حب ابن زيدون لولادة

والواقع ان حب ابن زيدون لولادة كان اعظم حدث في حياته . وكان اعظم وحي لروائع شعره . . وكانت ولادة من اجمل نساء عصرها . وكانت ابنة جارية نصرانية ، وكانت ناصعة المحيا ، زرقاء العينين ، حمراء الشعر ، رائعة الحسن . ويصفها ابن بسام يقول : « وكانت في نساء اهل زمانها واحدة اقرانها ، حضور شاهد ، وحرارة اوابد ، وحسن منظر ومخبر ، وحلاوة مورد ومصدر ، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار العصر . وفناؤها ملعبا لجياد النظم والنثر ، يعشو اهل الادب الى ضوء غرتها . . ويتهافت افراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها ، الى سهولة حجابها ، وكثرة منتابها ، تخلط ذلك بعلو نصاب ، وكرم أنساب ، وطهارة اثواب ، على انها ـ سمح الله لها وتغمد زللها ـ طرحت التحصيل ، واوجدت للقول فيها السبيل ، بقلة مبالاتها ، ومجاهرتها بلذاتها » .

وكانت ولادة قد ظهرت يومئذ في مجتمع قرطبة ببهوها الادبي ، الذي يزينه جمالها الرائع ، وشعرها الرائق . وكان ابن زيدون من المع فرسان هذا المنتدى الساحر ، يضطرم شغفا بسيدته ، وكان هيامه البالغ بها ، وشعره المتيم بها ، يثير حول سيرته الوزارية كثيرا من الفضائح الغرامية . وكان خصومه فوق ذلك يثيرون حول حياته وحول سلوكه ، كثيرا من الدسائس لدى بني جهور ، ويتهمونه لديهم بنقص في ولائه ، وبأنه يجيش بمشاريع لا تتفق مع اهدافهم . وقد اثار ذلك كله سخط ابي الوليد بن جهور على وزيره الشاعر ، فامر بالقبض عليه والقاه الى السجن . وانفق ابن زيدون في ظلمات السجن عاما وبعض عام ، وهو يستعطف ابا الوليد بقصائد ورسائل تذيب الجماد دون ان يتأثر بها . وفي النهاية حزم امره على الفرار ، وفر من سجنه بمعاونة بعض الاصدقاء الأوفياء . وقصد الى اشبيلية (سنة ٤٤١ هـ - ١٠٤٩م) والتجأ الى اميرها المعتضد ابن عباد ، فولاه وزارته ، والقى اليه مقاليد الامور ، وعلت مكانته لديه . ولما توفي المعتضد ، استمر في خدمة ولده المعتمد ، وتوفي (سنة ٤٦٣هـ - ١٠٧١م) وقد ترك لنا ابن زيدون ثروة كبيرة منوعة من نظمه الرائق ، ومنها قصائد تعتبر من اروع ما يحتويه الشعر الاندلسي ، وفيها يبلغ النسيب ذروة الابداع الروحي والحسي ، وكان لحبه لولادة بلا ريب اعمق تاثير في نفسه وروحه . . .

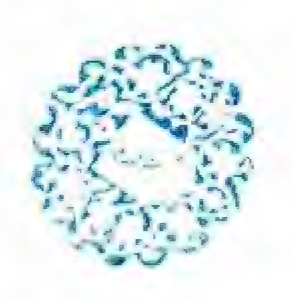
نموذج مثالي

وما نود أن ننوه به في ختام هذا المقال ، وهو ما سبق أن اشرنا اليه في بدايته ، من ان ابن زيدون وقد خدم في ظل حكومة الجماعة القرطبية وزيرا ، واتصل بعملها ووسائلها واهدافها أوثق الاتصال ، وقد كانت بنظامها وروحها النيابية الاصلاحية مثلا فريدا في نظم الحكم الاسلامية لم تلفت نظره ، ولم تستثر اهتمامه ، ولم يبد لها اي ذكر او أثر في نثره او شعره ، وقد كان حريا به ، أن

يحذو حذو زميله في الوزارة ، المؤرخ ابن حيان ، فينقل الينا بعض آرائه ومشاعره . ولكنه القى بجل اهتمامه ومناحي تفكيره وغايات حياته في حب ولادة ، ولم يترك لنا في ذلك سوى بعض مدائحه لبني جهور ، ومنها الابيات الآتية ، من احدى القصائد :

لولا بنو جهور ما اشرقت هم
غيد السوالف في اجيادها تلع
قوم متى نحتفل في وصف سؤددهم
لا ياخذ الوصف الا بعض ما يدع
ابو الوليد قد استوفى مناقبهم
فللتفاريق منها فيه مجتمع
مهذب اخلصته اوليته
كالسيف بالغ في اخلاصه الصنع
ان السيوف متى طاب جوهرها
في اول الطبع لم يعلق بها الطبع

هذا ، ولقد كان حريا ان تغدو حكومة الجماعة القرطبية في نفس الوقت ، نموذجا مثاليا يحتذى لدول الطوائف فتغدو وقت الفتنة ملاذا لاتفاق الراي ، واجتماع الكلمة ضد العدو الخالد ـ اسبانيا ، ولكن الاطماع والاهواء الجامحة ، كانت اقوى من ان تروضها دعوة الاتحاد والتفاهم ، وكان المصير المحزن الذي لقيته دول الطوائف غير بعيد ، ابلغ جزاء ، لتفرقها وتخاذلها



مَرثيَةُ الرندي الأندلسيَّة

مضى زهاء خمسة قرون ، منذ سقطت قواعد الأندلس الأخيرة في يد اسبانيا النصرانية . ولكن مضى زهاء سبعة قرون على صدور مرثية الاندلس المسلمة كقضية واحدة قومية واسلامية ، وهي المرثية التي عرفناها وحفظناها صغارا ، وهزت مشاعرنا الفتية أجدادنا ، والتي مطلعها :

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش انسان [1]

قبل السقوط أم بعده ؟

لقد لبثت أجيال من العلماء والأدباء تظن أن هذه المرثية البليغة ـ التي ما زالت حتى يومنا تحتفظ برنينها المحزن ، وعبرتها المبكية ـ قد نظمت عقب سقوط

العربي العدد ٢٢٧ اكتوبر ـ تشرين الاول ١٩٧٧ م .

(١) لم نر ضرورة لنشر هذه المرثية باكملها ، فهي معروفة ذائعة ، ويمكن مراجعتها في كتاب « نفح الطيب » للمقري ، ج ٢ ص ٥٩٤ و٥٩٥ (وكذلك في كتابه « أزهار الرياض » ج ١ ص ٢٧ ـ ٥٠) وفي كتاب « نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين » الطبعة الثالثة ، ص ٤٩ و ٥٠ .

الأندلس النهائي رثاة لها ، وكنا صغارا نؤمن مثلهم بهذه النظرية ، ولكني حينما بدأت دراستي الأندلسية ، منذ أكثر من ثلاثين عاما ، وأخرجت أول طبعة من كتابي « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين » كانت هذه السحب التي أسبلت على حقيقة رثاء الأندلس ، قد أخذت تتبدد ، وانتهيت في كتابي الى تحديد الوضع التاريخي لهذه المرثية ، وبينت بالاستناد الى نصوص ودلائل عديدة ، أنها قد نظمت في فترة معينة من تاريخ الأندلس ، في العصر الذى عاش فيه ناظمها ، وهو عصر يسبق سقوط الأندلس النهائى بنحو قرنين . وقد خاطبني يومئذ صديق من كبار أدبائنا ، مبديا دهشته من هذا التحليل قائلا ، كيف انتهيت الى ذلك ، ونحن نعتقد طول العمر ، أن مرثية الأندلس قد نظمت بعد السقوط ؟ وقد كان لهذا الصديق ، ومن كان يجاريه في اعتقاده بعض العذر ، لأن المقرى مؤرخ الأندلس نفسه ، لم يستطع تحديد العصر الذى نظمت فيه القصيدة ، وكانت حسبما يبدو من بعض تعليقاته أنها نظمت في عصر السقوط الأخير ، وقبل سقوط غرناطة . ولم يكن هذا الرثاء معروفا في الأوساط المشرقية ، قبل عصر المقرى . ذلك أن المقرى قد كتب ، حسبما نعرف ، كتابه الشهير « نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب » بمدينة القاهرة المعزية في سنة ١٠٣٩هـ (١٦٣٠م) ، حيثما كان يقيم منذ مقدمه اليها من المغرب في سنة ١٠٢٧هـ (١٦١٧م) ، وعرفت منه قصيدة الرثاء يومئذ ، كما عرفت أشياء ونصوص كثيرة أخرى عن الأندلس ، وعن تاريخها وجغرافيتها وآدابها مما دونه في كتابه الجامع « نفح الطيب » . وقد استقى معظم ما دونه في كتابه من مصادر مغربية مما كانت تزخر به خزائن المغرب ، في فاس وتلمسان وبجاية والجزائر ، مما نقل اليها من آثار التراث الاندلسي في عصر السقوط ، وقد حمل مسوداتها معه من المغرب الى القاهرة ، وانتفع الى جانبها بما كان مودعا في عصره من تراث الادب الاندلسي والمغربي ، بمكتبة رواق المغاربة بالجامع الأزهر . ومازال توجد بها الى اليوم بعض أوراق مخطوطة تحمل تعليقات المقرى وتوقيعاته . أما رثاء الاندلس فقد نقله المقرى حسبما يقول لنا « من خط من يوثق به على ما

كتبه » . واذا كنا لا نعرف هذا الذى « يوثق به » فانه قد نقل القصيدة على أرجح الفروض ، من أحد المصادر القليلة التي تسربت اليها ، مثل كتاب « الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية »[٢] وهو لمؤلف مجهول . ويبدو من اختتامه أن مؤلفه قد توفي في أواخر القرن السابع الهجري ، لأن حوادث الكتاب المعاصرة تقف عند سنة ٦٧٤هـ ، عند حادث بناء المدينة البيضاء أو البلد الجديد ، بناحية فاس على يد السلطان أبي يوسف المريني . هذا مع ملاحظة أنه توجد بين النص الذي ورد في الذخيرة السنية والنص الذي نقله المقرى ، بعض تغيرات يسيرة في بعض الأشطر ، وأن نص القصيدة في الذخيرة السنية يحتوي على ثلاثة وأربعين بيتا بينما هو في نفح الطيب اثنان وأربعون ، هذا وقد نقل المقرى القصيدة في نفس الوقت في كتابه « أزهار الرياض » بزيادة بيت واحد عنها في نفح الطيب .

القصيدة وكاتبها

يأتي الحديث بعد ذلك عن ناظم هذه القصيدة الشهيرة ، وعن ظروف نظمها . وبالرغم مما هو معروف ومحقق من أن ناظمها هو صالح بن يزيد بن صالح بن موسى بن شريف النفزي ، المكنى بأبي الطيب الرندي المولود بمدينة رندة في سنة ٦٠١هـ والمتوفى بها سنة ٦٨٤هـ ، فانه يوجد بعض الغموض حول ظروف نظم القصيدة ، وحول ظروف تداولها ، واختفائها من بين تراث ناظمها ، وعدم تداولها زهاء قرن من الزمان ، ولا سيما بالأندلس موطن ناظمها ، قبل أن تذاع في المغرب على يد المؤرخين المغاربة في أواخر القرن السابع الهجري .

ويرجع هذا التساؤل الى عدة أسباب ، أولها أن الوزير ابن الخطيب ، صاحب كتاب « الاحاطة في أخبار غرناطة » ، وقد عاش قريبا من عصر

---

(٢) نشر هذا الكتاب بعناية المرحوم العلامة الجزائري الشيخ محمد أبو شنب في سنة ١٩٢٠م .

الرندى ، قد أورد له في « الاحاطة » ترجمة ضافية ، وأورد خلالها عدة من عيون قصائده ولكنه لم يورد الى جانبها شيئا من قصيدة رثاء الاندلس ، بل ولم يشر اليها بكلمة واحدة ، مع أنها أبلغ وأروع القصائد التي نظمها الرندي[3] وثانيها ، أن الرندي نفسه لم يشر الى قصيدته ولم ينشر منها شيئا في كتابه « الوافي في نظم القوافي » ، الذي يتحدث فيه عن الشعر وفضله وآدابه وأغراضه ، ويورد فيه عدة من قصائده ومنها قصيدتان في الرثاء ، أولاهما رثاء لأمير المسلمين ابن الاحمر ، وثانيتهما قصيدة في رثاء أبيه[4] وثالثها ، أن القصيدة لم تظهر في تراث الادب الاندلسي خلال العصر الغرناطي كله ، من بدايته في أواخر القرن السابع الهجري ، حتى نهايته في أواخر القرن التاسع ، بالرغم من ظهور قصائد أخرى في رثاء الاندلس أو بعض قواعدها الذاهبة أقل روعة ورنينا من مرثية أبي الطيب الرندي .

ومن ثم فانه يتعين علينا أن نتساءل عن أسباب هذا الغموض الذى يحيط بمرثية الاندلس ، والتي قضت باحتجابها عصورا من بين أعيان روائع المراثي الاندلسية التي ظهرت خلال العصر الغرناطي نفسه ، ومن بعد ذلك حتى السقوط النهائي . وعلينا أن نتقصى أسباب هذا الغموض في حياة ناظمها أبي الطيب ذاته ، وفي الظروف التي أحاطت به في الفترة التي عاش فيها .

عصر الفتنة الكبرى

لقد عاش الرندى في عصر الفتنة الكبرى ، التي اضطرمت بها الاندلس في أواسط القرن السابع الهجري ، والتي تمخضت عن سقوط القواعد الأندلسية

---

(٣) راجع هذه الترجمة ، وقد ظهرت أخيرا في المجلد الثالث من كتاب « الاحاطة في أخبار غرناطة » المنشور بتحقيق محمد عبدالله عنان (القاهرة سنة ١٩٧٦) ص : ٣٦٠ - ٣٧٦

(٤) توجد عدة نسخ مخطوطة من كتاب « الوافي بدار الكتب العامة بالرباط ، وقد اعتمدنا في على مراجعة النسخه رقم (١٧٣٠ك) ولم ينشر الكتاب حتى الآن .

الكبرى في أيدي الأسبان وتمخضت في الوقت نفسه عن قيام مملكة غرناطة . وكان الرندي شاعرا وكاتبا عظيما ، بارعا في النثر والنظم معا ، وله مقامات بديعة في أغراض شتى . ويصفه القاضي ابن عبدالملك في « التكملة » بأنه « خاتمة أدباء الاندلس » وكان كثير الوفود من بلده رندة على الحاضرة غرناطة ، والتردد الى بلاطها . وكان من خاصة المقربين الى الغالب بالله ـ السلطان محمد بن الاحمر الكبير مؤسس مملكة غرناطة ـ وشاعره الأثير . وكان الغالب بالله يطرب لشعره ، ويغمره بعطفه وتكريمه .

ومن اشهر قصائده في مدح السلطان المذكور ، قصيدته التي مطلعها :

سرى والحب أمر لا يرام وقد أغرى به الشوق الغرام
وأغفى أهلها الا وشاة اذا نام الحوادث لا تنام

وكتب الرندى برسم السلطان كتابه المسمى « روضة الأنس ونزهة النفس » . ونثره لا يقل روعة عن شعره .

ونحن نعرف أن ابن الاحمر الكبير ، كان بالرغم من عبقريته وشجاعته وعزمه ، وهى التي تمخضت عن ظفره بانشاء مملكة غرناطة من ركام التمزق والفوضى ، كان يعيش في دوامة من الصعاب السياسية والعسكرية ، ويخشى على مملكته الفتية الناشئة من عدوان قشتالة وأطماعها . وكانت حركة الاسترداد الأسبانية بعد الاستيلاء على قواعد الأندلس الكبرى : قرطبة ، بلنسية ، مرسية ، شاطبة ، جيان ، اشبيلية في نحو خمسة عشر عاما فقط ٦٣٣ ـ ٦٤٦هـ (١٢٣٦ ـ ١٢٤٨م) تندفع بعنف نحو الاستيلاء على قواعد وأراض جديدة . ولم يكن أمامها من القوى الأندلسية المتماسكة سوى مملكة غرناطة الناشئة ، التي اجتمعت حولها أشلاء الاندلس الباقية ، فيما بين نهر الوادي الكبير والبحر المتوسط ، وبين نهر المنصورة ونهر وادى لكه . وكان ابن الاحمر يرقب هذا التيار الجارف جزعا ، ويحاول أن يقف في سبيله بسائر الوسائل ، ومنها وفي مقدمتها

مصانعة ملك قشتالة القوى فرناندو الثالث . وقد ذهب ابن الاحمر في هذه المصانعة الى حد أن ارتضى في معاهدة المهادنة والصلح التي عقدها مع هذا الملك القاهر ، أن يعترف بحمايته وان يحكم أراضيه باسم ملك قشتالة ، وان يؤدي له الجزية ، وأن يشهد اجتماع مجلس قشتالة النيابي (الكورتيس) باعتباره من الأمراء التابعين للعرش ، وأخيرا أن يعاونه في حروبه ببعض قواته . بل لقد ارتضى ابن الاحمر ، تنفيذا لهذا الاتفاق أن يعاون قشتالة ببعض قواته في محاصرة اشبيلية ، وأن يشترك بذلك في افتتاح هذه الحاضرة الاندلسية التالدة لحساب النصارى . وقد كان هذا التصرف مهينا ومشينا معا للامير المسلم . ولكنه لم يجد مندوحة من اتباعه حرصا على صون مملكته الفتية وحمايتها من المصير الذي انتهت اليه الاندلس الكبرى . وقد تضمنت معاهدة الهدنة والصداقة فوق ذلك كله ، أن يتنازل الملك المسلم الى ملك قشتالة عن عدد كبير من البلاد والحصون ، منها شريش ، والمدينة ، والقلعة ، وقادس ، وغيرها . وقيل ان ما نزل عنه ابن الاحمر يومئذ للنصارى قد بلغ اكثر من مائة موضع ، معظمها في غربي الاندلس . وكان ذلك في سنة ٦٦٥هـ (١٢٦٧م) .

وبقيت غرناطة

وهكذا فقدت الاندلس معظم قواعدها التالدة في نحو ثلاثين عاما فقط (٦٢٧ - ٦٥٥هـ) في وابل مروع من الأحداث والمحن . واستحال الوطن الاندلسي الذي كان قبل قرن فقط يشغل نحو نصف الجزيرة الأسبانية ، الى رقعة متواضعة ، هي مملكة غرناطة الصغيرة . وقد اثارت هذه المحن التي توالت على الأندلس في تلك الفترة المظلمة من تاريخها لوعة الشعر والأدب . وهنا وفي هذه الأونة بالذات ، وعلى ضوء هذه الظروف المؤسية التي نزل فيها ابن الأحمر عن عشرات البلاد والحصون الاسلامية للاسبان : هنا نظم شاعر العصر ، ابو الطيب الرندى مرثيته الشهيرة . التي ما زالت تعتبر حتى اليوم من

أعظم المرثى القومية وأبلغها تأثيرا في النفس ، وفيها يبكى قواعد الاندلس الذاهبة ، ويستنهض همم المسلمين أهل العدوة ، لانجاد الاندلس وغوثها .

ولدينا لتأييد هذه الحقيقة في توقيت نظم القصيدة الشهيرة ، وظروف نظمها ، نصان تاريخيان معاصران ، الأول : وهو نص صاحب « الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية » وقد عاش في أواخر القرن السابع معاصرا لابن الاحمر الكبير ، وابي الطيب الرندى وفيه يقول :

« ولما أعطى ابن الاحمر البلاد المذكورة للاذفونش قال الفقيه ابو محمد بن شريف الرندى يرثى الاندلس ، ويستنصر بأهل العدوة ، من مرين وغيرهم » . ثم يورد قصيدة الرثاء بأكملها[٥] والثاني ، وقد كتب بعد ذلك بقليل ، في اواخر القرن الثامن ، هو نص ابن عذارى المراكشى ، حيث يقول في نهاية الجزء الثالث من كتابه الجامع « البيان المغرب » ، ما يأتي :

« وفي هذه السنة » وهي سنة خمس وستين وستمائة صالح الامير أبو عبدالله بن الاحمر ملك النصرانية ، الاذفونش ، على يد ولده الأمير أبي عبدالله . وقيل ان الصلح انعقد بينهما على نحو أربعين مسورا من بلاد المسلمين ـ أعادها اليه ـ وقيل ان أكثرها بغرب الاندلس ، ومن جملة تلك البلاد مدينة شريش ، والمدينة والقلعة ، وبجير وغير ذلك . . . وقد رثى الاندلس كثير من الادباء . فمن ذلك قول صالح بن شريف من قصيدة . ثم أورد من القصيدة سبعة عشر بيتا مع تغييرات في نصوص بعض الأشطر . ووردت منها الأبيات المشهورة :

أصابها العين في الاسلام فامتحنت ... حتى خلت منه أوطان وبلدان
فسل بلنسية ما شأن مرسية ... وأين شاطبة أم أين جيان

---

(٥) الذخيرة السنية ص ١٢٧ وما بعدها .

وأين حمص وما تحويه من نزه ... ونهرها المذب فياض وملآن
قواعد كن أركان البلاد وما ... عسى البقاء اذا لم تبق أركان[6]

مرثية قبل السقوط الاخير

واذن فالحقيقة التاريخية هي أن مرثية الأندلس ، لم تنظم لرثاء سقوط الأندلس النهائي ، كما كان الاعتقاد شائعا لدى معظم الدوائر الأدبية والتاريخية ، حتى عصر المقرى (القرن الحادي عشر الهجري أو السابع عشر الميلادي) وانما نظمت رثاء لسقوط القواعد الأندلسية الكبرى ، في النصف الأول من القرن السابع الهجري ، حسبما بينا من قبل ، وهي التي ذكرها أبو الطيب في قصيدته صراحة على النحو الآتي :

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية ... وأين شاطبة أم أين جيان
وأين قرطبة دار العلوم فكم ... من عالم قد سما فيها له شأن
وأين حمص وما تحويه من نزه ... ونهرها العذب فياض وملآن
قواعد كن أركان البلاد فما ... عسى البقاء اذا لم تبق أركان

وقد حرك الشاعر الى نظم مرثيته المبكية ما فعله ابن الأحمر في النزول عن عديد من المدن والحصون الاسلامية الى ملك قشتالة ، وجاء بذلك نظمها متأخرا عن سقوط القواعد الأندلسية الكبرى بنحو خمسة وعشرين عاما .

على أن هذه المرثية المبكية ما كادت تظهر في دوائر الشعر والأدب الغرناطية ، حتى اختفت بسرعة ، ولكن بعد أن تسربت الى عدوة المغرب . وهنا يكمن السر في احتجابها بالأندلس موطن نظمها . ذلك أن الرندى كان ، حسبما تقدم شاعر ابن الأحمر الاثير ، يشيد بعهده وعبقريته وأعماله ، في قصائد

---

(٦) البيان المغرب - المجلد الثالث - المنشور بعناية الأستاذ هويثى ميرانده ص ٤٧٠ .

عديدة . واقدامه على نظم هـذه القصيدة البليغة المؤثرة يثير كوامن الاسى والشجن ، فى نفوس أولئك الذين شهدوا وعاصروا تصرف ابن الاحمر في النزول عن الاراضى الاسلامية الى النصارى طواعية ، واختيارا ، وبلا حرب خسرها . وتداول مرثية تبكى قواعد الأندلس الذاهبة ، يذكر الشعب الغرناطى دائما بهذا التصرف الفاجع ، الذي أقدم عليه مؤسس مملكة غرناطة ، وأنه ليصعب علينا أن نفترض أن أبا الطيب قد نظم قصيدته سرا ، لتكون نفثة مصدور خاصة ، وهو قد نظمها ليهيب بمسلمي العدوة والمسلمين عامة ، واذن فلا بد أن تحجب هذه القصيدة ، وأن يخمد هذا الصوت الذي يثير الألم والاسى ، صونا لسمعة السلطان ، وهيبة المملكة . ومن ثم فقد أسبل على مرثية الرندى حجاب كثيف من الصمت والنسيان ، طوال العهد الغرناطي كله . فقلما تجد لها ذكرا في السير الغرناطية أو الأدب الغرناطي . وحتى في المغرب حيث تسربت وقت نظمها ، الى بعض الدوائر ، فقد كان تداولها محدودا جدا . ولعل ذلك يرجع الى نفوذ البلاط المرينى ، راعي الأندلس ، وحليف بني الأحمر .

وأغفل ذكر القصيدة

وهذا يفسر لنا في نفس الوقت موقف ابن الخطيب في تناسي هذه القصيدة ، وعدم الاشارة اليها بأية كلمة في الترجمة الفياضة التي كتبها للرندي في « الاحاطة » ، وأورد بها عدة من عيون قصائده ومقطوعاته الشعرية . ولسنا نعتقد أن ناسخ مخطوط الاسكوريال هو الذي أغفل ذكرها اختصارا ، أو ظنا منه أن شهرتها تغنى عن ذكرها ، فهو لم يغفل ذكر العديد من قصائده الاخرى . ولكن التفسير الطبيعي لهذا الصمت من جانب صاحب « الاحاطة » ، هو أن ابن الخطيب ، وهو من أولياء بني نصر (بني الأحمر) ملوك غرناطة ، ووزيرهم الاثير ، وربيب نعمتهم ، قد رأى ، كما راى غيره من كتاب العصر وأدبائه ،

أن يغفل ذكرها ، لان وجودها في مؤلفه الى جانب ترجمة ابن الاحمر الكبير ، وآخرين من ملوك غرناطة ، قد يسيء الى ذكريات مؤسس مملكة غرناطة ، الذي وقعت المحنة الاندلسية في عهده ، ونظمت القصيدة لبكائها .

تلك هي الظروف التي أحاطت بنظم مرثية الرندى الأندلسية ، والتي قضت أن تحجب عن التداول ، وأن يسبل عليها مدى عصور ، ستار من الصمت والنسيان ، حتى جاء المقرى في القرن الحادي عشر الهجري (السادس عشر الميلادي) ، فنقلها كاملة في كتابيه نفح الطيب وأزهار الرياض ، وأخذت من ذلك الحين تبدو في كتب التاريخ والأدب ، نفثة من نفثات النظم المبكية ، التي لا يمكن أن تخمد حرارتها ، أو تنسى بلاغتها وآثارها الشجية ، على تعاقب الأجيال .



تاريخ بلنسيّة الإسلاميّة

صدر في اسبانيـا كتاب بالاسبانية عن « التاريخ الاسلامى لبلنسية وأحوازها » بقلم العلامة المستشرق الاسبانى الأستاذ أمبروزيو هويثى ميرانده .

وصوْغ عنوان « تاريخ بلنسية الاسلامية » على هذا النحو الذى اختاره المؤلف ، يرمز الى غرض جوهرى ، هو الذى حمل المؤلف على وضع كتابه ، وهو عرض المصادر والروايات الاسلامية لتاريخ بلنسية وشرق الأندلس .

عميد الاستشراق الاسباني المعاصر

ويعتبر الأستاذ هويثى ميرانده عميد الاستشراق الاسباني المعاصر ، وقد لبث في شبابه أعواما طويلة أستاذا للغة اللاتينية بجامعة بلنسية ، ولكن نشاطه الحقيقي كان متجها الى دراسة العربيـة ، ودراسة التـاريخ الأنـدلسي ، من المصـادر العربيـة . وبدأ جهـوده في هذا الميـدان ، بتـرجمـة كتـاب « روض القرطاس » لابن أبي زرع الفاسي ، وترجم الجزء الثالث من كتاب « البيان

العربي العدد ١٦٢ مايو- أيار ١٩٧٢م .

المغرب » لابن عذارى ، عن مخطوطته الاولى ، التي كانت معروفة « بمخطوط مدريد وكوبنهاجن » المجهول . ثم قام بعد ذلك بنشره بنصه العربي (تطوان سنة ١٩٦٣) عن عدة مخطوطات مغربية كاملة . كما ترجم الى الاسبانية كتاب « المُعجب » لعبد الواحد المراكشي ، وكتاب «الحُلل الموشية » لأبي العلاء ابن سماك المالقي . وساهم بقسط كبير في « دائرة المعارف الاسلامية » فكتب بها عن سائر المدن والأعلام التاريخية ، الواقعة في الشرق الأندلسي .

مؤلفان كبيران

على أن جهود الأستاذ هويثي ، في ميدان التاريخ الأندلسي والمغربي ، تتمثل في مؤلفيه الكبيرين اللذين وضعهما باللغة الأسبانية ، أولهما عن « معارك عهد الاسترداد الكبرى » وهي المواقع العظيمة الحاسمة ، التي وقعت بين المسلمين من المرابطين والموحدين وبني مُرين ، وبين الاسبان في شبه الجزيرة الاسبانية ، والثاني عن « التاريخ السياسي للامبراطورية الموحدية » في مجلدين كبيرين . (سنة ١٩٥٦ و ١٩٥٧) . عدا بحوث وتحقيقات عديدة ، نشرت في مختلف مجلات الاستشراق مثل مجلة « الأندلس » الأسبانية ، وهيسبريس الفرنسية وغيرها .

وقد نشر الأستاذ هويثي منذ أعوام قلائل ، كتاب طريفا عنوانه « كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين » لمؤلف مجهول ، وقام على نشره معهد الدراسات الاسلامية المصرى بمدريد سنة ١٩٦٥ .

هويثي في مؤلفه الجديد

ويأتي كتاب « التاريخ الاسلامي لبلنسية واحوازها» ليتوج جهود الأستاذ هويثي ، في ميدان التاريخ الأندلسي (سنة ١٩٧٠) وهو مؤلف ضخم يقع في

ثلاثة مجلدات كبيرة ، تشغل نحو ألف صفحة . وينوه الأستاذ هويثي في مقدمته ، بعدم معرفة الباحثين الأسبان المعاصرين ، في تاريخ العصور الوسطى ، للغة العربية ، وعجزهم بذلك عن الانتقاع المباشر بالمصادر العربية ، وهي الوحيدة للوقوف على ما كان يجري في أسبانيا المسلمة . وحتى فيما يتعلق باتصال الجهتين النصرانية والمسلمة ، فان الرواية المسلمة أكثر تفصيلا من النصرانية ، ومن ثم فإنه بدون العربية ، لا يمكن أن يكتب تاريخ اسبانيا المسلمة في معظم الأحيان إلا كتابة قاصرة . ويدلل الأستاذ هويثي على ذلك بكتاب المؤرخ الاسباني الكبير ، الأستاذ منديث بيدال ، عن « أسبانيا في عصر السيد » فإنه قد استوعب المصادر الأسبانية وعرضها أبدع عرض ، ولكنه لم يستطع أن يتفوق على المترجمات والفصول النقدية ، التي قدمها اثنان من أعظم علماء العربية المستشرقين ، هما دوزى ، وليفى بروفنسال ، وظهر عجزه عن دراسة المصادر العربية ، ومن ثم كان تحامله وانحيازه ضد المسلمين .

ويقول لنا الأستاذ هويثى عن مهمته في مقدمة كتابه : انه أخذ على نفسه أن يجلي النقط الغامضة في هذا التاريخ ، بالاستفادة من المصادر الجديدة التي لم تدرس ، وأن يلتزم الحيدة التاريخية في الحكم على علائق النصارى والمسلمين . بيد أنه لم يجد في نفسه مقدرة لدراسة النشاط الفكري ، والحياة الاقتصادية والزراعية والفنية ، فهذه تنتظر اليد السحرية التي تستطيع معالجتها .

أوصاف بلنسية

ويخصص الاستاذ هويثي الجزء الأول من مؤلفه للتحدث عن أوصاف الجغرافيين والمؤرخين المسلمين لبلنسية منذ الرازى والعذرى ، وعن خططتها وابوابها وقناطرها ، حسبما سجلتها اوصاف المؤرخين المسلمين والنصارى ، وحسبما حققها عن عصر ما بعد الفتح مباشرة ، باحثون مثل ديرا ، وسنبيرا ، وشاباس ، وينوه بمعاهدها وحدائقها ومنتزهاتها الجميلة ، ولا سيما « المُنية »

« والرصافة » وهي التي تغنى بها شاعر بلنسية الكبير ابن خفاجة . ولقد أشاد شعراء الأندلس بجمال قصور قرطبة والزاهرة ، والزهراء ، والصمادحية في المرية ، وقصور بني ذى النون في طليطلة ،.والحمراء في غرناطة ، ولكنهم تغنوا في بلنسية بحقولها وحدائقها النضرة ، وبحيرتها ، واعتبروها جنة من الجنات .

ويتحدث بعد ذلك عن اوضاع بلنسية الادارية في عهد الامارة ، ثم الخلافة الأموية ، ويقول لنا انها لم تكن تقدم في ذلك صورا غير عادية . ثم يتحدث عن النظم المالية والعسكرية ، ولا سيما في عهد المرابطين والموحدين ، وعن الأحوال الزراعية .

ثم يحدثنا عن الحياة العائلية الاسلامية داخل المنزل ، وكونها كانت حياة محافظة ، وعن الاطعمة والمطبخ الاسلامي في القرن الحادي عشر ، ولا سيما في منطقة بلنسية . ثم عن شوارع بلنسية وميادينها في العهد الاسلامي ، ويقول لنا إنها كانت ضيقة وغير منتظمة ، وكذلك كانت الحوانيت صغيرة وضيقة ، وكانت هذه الحالة تسود بلنسية طوال العصور الوسطى .

العرب والبربر والنصارى

أما عن عناصر السكان ، فقد كانت الخلافة الاموية ، ومن قبلها الامارة ، تحرص دائما على ضمان ولاء العناصر الثلاثة التي يتكون منها السكان ، وهم العرب والبربر والنصارى . وكان المنصور بن ابي عامر من بعد الخلافة ، اشد حرصا على ذلك ، ولكن هذا الهيكل الاجتماعي ، لم يلبث أن تحطم بعد وفاته ، وثارت الفتنة الغامرة في قرطبة بين العرب والبربر . أما في بلنسية وشرق الأندلس ، فلم يك ثمة بغض بين الطوائف ، لبعدها من مسرح الفتنة . وقد استطاع الزعماء والفتيان العامريون ، أن يقيموا في شرق الاندلس حكومات متحررة من نفوذ البربر ، تحتفظ في نفس الوقت ، بصورة النظم الاندلسية التقليدية . وكان شعب شرقي الأندلس يتكون من أبناء الفاتحين

العرب ، ومن اكابر الاسر والاشراف ، والمولدين أو المسلمين الأسبان . وقد كان امتزاج هؤلاء المسلمين الجدد (المولدين) بأسر الفاتحين الاوائل سواء من العرب أو البربر ، مفضيا الى قيام طبقة أرستقراطية ، كان نفوذها في الاقاليم اقل منه في العاصمة . والى جانب هذه الطبقة كانت توجد الطبقة الوسطى من الصناع والعاملين ، من البربر والمولدين المتحررين ، وتكون مع النصارى واليهود المماثلين ، اغلبية الشعب ، كما كان الشأن في معظم مدن الأندلس الكبرى ، وكان معظم المزارعين من المستعربين (النصارى المعاهدين) وقد كانت اكثر الطبقات محافظة ، وكان نشاطها في الشرق ، من أهم العوامل في اثرائه ورخائه عن طريق الزراعة .

وكان سكان شرق الأندلس ، أكثر عددا في الولايات الوسطى ، نظرا لتقدم زراعاته ورخائه، وكان عدد المسلمين الداخلين وفيرا . وكان المستعربون يدرسون اللغة العربية بسرعة ، ويستبقون في نفس الوقت لغتهم الرومانية اللاتينية . وقد ادخلوا منها في اللغة العربية كثيرا من الكلمات ، ولاسيما في محيط الزراعة . وقد اسفر هذا المزيج بين أبناء الفاتحين وبين زملائهم الداخلين في الاسلام ، عن قيام نوع من السكان الجزائريين Peninsular ، يمتاز بصفاته الخاصة . وكان الاصل النصراني للزوجات الشرعيات ، والخلائل ، والرقيق ، والمحررين ، والمترزقة ، مما يدعم عواطف التسامح التي كانت سائدة بين المسلمين والنصارى .

فتح الأندلس

يحدثنا المؤلف بعد ذلك عن فتح الأندلس ، وتسليم تيودمير أمير الشرق للفاتحين ، وكيف تمت المصاهرة بين هذا الأمير القوطي وبين بني خطاب ، اعيان مرسية ، حيث تزوج ابنهم خطاب من ابنته . وقد نسل من هذا الزواج ، بنو خطاب ، الذين لبثوا دهرا ، من اكابر سادة مرسية ، وهم الذين استضافوا

المنصور وسائر جيشه عند مسيره الى غزوة برشلونة ، مدى ثلاثة عشر يوما ، وذهبت قصة هذه الضيافة ، مثلا على بذخ هذه الأسرة الشهيرة وجودها .

وقد لبث الشرق ، أيام الامارة ، مسرحا لكثير من الحوادث الخطيرة ، فقد كان ايام عبدالرحمن الداخل حدا بينه وبين ثوار الشمال ، ومحاولات الفرنج في الثغر الاعلى ، وقد تحطمت على شواطئه حملة ابي العلاء بن مغيث ، مبعوث الخليفة العباسي ، وفشلت محاولة الامير عبدالله البلنسي ابن عبدالرحمن الداخل ليقيم لنفسه في بلنسية سلطانا ، يناوىء به سلطان ابن اخيه الامير الحكم بن هشام .

في أيام الطوائف

وفي أيام الطوائف غدت بلنسية ومنطقة الشرق مسرحا لتطورات هامة ، فقد وفد عليها الزعماء والفتيان العامريون ، هربا من الفتن والثورات التي اجتاحت الاندلس . وحكم بلنسية ، الفتيان مظفر ومبارك ، ثم حكمها عبدالعزيز بن عبدالرحمن المنصور ، وجدد حصونها ، وأنشأ بها المُنية الشهيرة ، التي اتخذها منزلا لنزهاته وحفلاته ، والتي افتنَّ الادباء والشعراء في وصفها ، والتغني بمحاسنها . وخلفه في رياستها ولده عبدالملك ، ثم ابو بكر بن عبدالعزيز . وقامت في نفس الوقت ، في الشرق ، الى جانب بلنسية ، مملكة دانية البحرية الشهيرة ، وعلى رأسها مجاهد العامرى ، أعظم بحار أندلسي في عصره ، وسيطر منها على الجزائر الشرقية (البليار) ولبثت أساطيله عصرا ، تسيطر على هذه المياه ، وخلفه في رياستها ولده علي . ولكنه لم يلبث حتى غلب عليه صهره المقتدر بن هود ، صاحب سرقسطة ، وانتزع رياستها منه .

ولما سقطت طُليطلة في ايدى النصارى ، لجأ صاحبها القادر بن ذى النون الى بلنسية . وكان ملوك الطوائف قد استغاثوا في تلك الأثناء ، باخوانهم المرابطين في المغرب ، وعبر المرابطون الى شبه الجزيرة ، وهزموا النصارى في

معركة الزلاقة الشهيرة (٤٧٩هـ - ١٠٨٦م) هزيمة ساحقة ، وخبت بعد ذلك موجة العدوان النصراني ، على أراضي الاندلس ، مدى حين .

ولكن حدثت عندئذ في الشرق تطورات خطيرة ، وظهر على مسرح الحوادث ذلك المغامر القشتالى الجرىء - السيد الكمبيادور - وأخذ يجول بقوانه المرتزقة في انحاء الشرق ، ويستولى على حصونه واراضيه . وانتهى بالاستيلاء على بلنسية التي مزقتها الفتن الداخلية (٤٨٧هـ -١٠٨٦م) . وكان استيلاء السيد على بلنسية من أشهر حوادث العصر ، وكان له أعظم وقع في الأندلس . واستمر السيد يسيطر على بلنسية حتى وفاته (١٠٩٩م) ومن بعده القشتاليون مدى ثلاثة اعوام اخر . ثم استردها المرابطون من النصارى ، وعادت الى حظيرة الاسلام (١١٠٢م) .

احتلال السيد لبلنسية

وتشغل حوادث الشرق ، واحتلال السيد لبلنسية ، وما صاحبه من الحوادث من مؤلف الاستاذ هويثي جزاءا بأسره هو الجزء الثانى . وقد تحدث فيه طويلا عن الاعوام الأخيرة من حياة السيد ، وكل ما قيل عنها من الروايات والاساطير ، وعرض فيه سائر الروايات العربية والقشتالية ، المتعلقة بحوادث بلنسية في تلك الفترة ، وما عاناه الشعب البلنسي خلالها من المصائب والمحن . ويورد لنا المؤلف خلال هذه الفترة من حياة بلنسية الاسلامية كثيرا من الصور الأخاذة ، والمواقف المؤثرة .

في عهد المرابطين والموحدين

وفي الجزء الثالث يستعرض المؤلف تاريخ بلنسية والشرق ، في عصري المرابطين والموحدين ، فيحدثنا عن حكام بلنسية ومرسية من المرابطين ، ثم عن سقوط سرقسطة ، وعن حملة الفونسو المحارب ملك ارجون (ابن رذمير) الى بلنسية ، ثم الى الاندلس وما وقع بين الفونسو والمرابطين من صراع مستمر ،

ووقائع متوالية ، انتهت بهزيمته الساحقة ، ومصرعه في موقعة افراغة الشهيرة (١١٣٤م) . ثم يحدثنا عن انحلال المرابطين وسقوطهم ، وقيام الثورة ضدهم في معظم أنحاء الاندلس ، وخاصة في بلنسية ، حيث استطاع اهل بلنسية طرد الحاكم المرابطي ابن غانية ، وعهدوا برياستها الى قاضيها مروان بن عبدالعزيز . ولجأ بنوغانية الى الجزائر الشرقية (البليار) وسيطروا عليها ، وأقاموا لهم دولة صغيرة ولكن قوية ، واستطاعوا فيما بعد ، أن يغزوا افريقية الموحدية ، وأن يسيطروا على كثير من قواعدها .

ولما انهار سلطان المرابطين ، وخلفهم الموحدون ، في ملك المغرب والأندلس ، تطورت الحوادث في بلنسية كرة اخرى ، وقام في رياستها زعيم أندلسي جديد ، هو محمد بن سعد بن مردنيش ، يخاصم الموحدين ، ويدعو الى تحرير الأندلس من سلطانهم ويحدثنا المؤلف طويلا عن ابن مردنيش ، ونشأته وصفاته ، ثم عن صراعه المستمر مع الموحدين ، واستيلائه على وادي أش وغرناطة ، بمعاونة صهره القائد الشهير ابن هَمُشْك . وقد بذل الموحدون جهودا فادحة . في محاربة ابن مردنيش ، وانتهوا بهزيمته في موقعة فحص الجلاب (١١٦٤م) ثم بحصاره في مرسية . واستمر الحصار طويلا ، وتوفي ابن مردنيش خلال الحصار (١١٧٢م) وانهارت بذلك ثورته ، واستولى الموحدون على بلنسية ومرسية ، واستسلم آل مردنيش جميعا ، الى الخليفة الموحدى ، وتمت بذلك سيطرة الموحدين على سائر انحاء الاندلس .

الفصل الأخير

وهنا يأتي الفصل الأخير في قصة بلنسية الاسلامية . ذلك أن الجيوش الموحدية ، لقيت هزيمتها الساحقة في الاندلس على يد النصارى ، في موقعة العقاب الشهيرة ، (٦٠٩هـ - ١٢١٢م) وتضعضع بذلك سلطانهم في

الاندلس والمغرب . وقامت في شرق الاندلس ثورات جديدة ، أسفرت عن قيام المتوكل بن هود في مرسية ، وزيان بن مردنيش في بلنسية ، وهو من احفاد ابن مردنيش الكبير . وكان ملك أراجون في ذلك الوقت خايمي الفاتح ، يزحف بجيوشه جنوبا نحو أراضي الشرق . ويقاومه زيان جهد استطاعته ، وهزم البلنسيون أخيرا في موقعة أنيشة (١٢٣٧م) فارتدوا الى مدينتهم وتحصنوا بها ، ووضع خايمى الحصار على بلنسية ، وصمم الايتركها حتى يستولى عليها . وأبدى المسلمون منتهى البسالة في الدفاع عن مدينتهم ، وفي تحمل ويلات الحصار . وبعث الامير زيان بصريخه الى ملك تونس (افريقيا) الامير ابى زكريا الحفصى ، على يد سفيره الكاتب والشاعر الكبير ، ابن الابار القضاعى ، وبعث ابو زكريا لإنجاد بلنسية بأسطول مشحون بالعتاد والأقوات والاموال ، ولكنه لم يوفق الى الاتصال بالمحصورين ، وانتهت المأساة بأن سقطت بلنسية في يد خايمى الفاتح ، وذلك في صفر سنة ٦٣٦هـ (اكتوبر سنة ١٢٣٨م) . وسيطر الأرجونيون بعد ذلك تباعا على مدن الشرق ، شاطبة ، دانية ، مرسية ، أوريولة ، وغيرها ، وانتهى بذلك سلطان الاسلام في تلك المنطقة من شبه الجزيرة الاسبانية ، واجتمعت اشلاء الأندلس الجريح بعد ذلك في جنوبي الاندلس ، حيث قامت مملكة غرناطة الصغيرة لتحمل علم الاسلام والحضارة الأندلسية ، مئتين وخمسين عاما اخرى .

هذه خلاصة وافية ، للمؤلف الكبير ، الذى يعالج فيه الاستاذ هويثى ميرانده ، تاريخ بلنسية الاسلامية ، بافاضة ممتعة وأسلوب جزل . ويعتمد فيه أكبر الاعتماد على المصادر الاسلامية . وهذه الميزة الهامة التي يمتاز بها الكتاب ، تجعله يقدم الينا صورةً جديدة ، وثيقةً ، وضَاءة ، عن تاريخ بلنسية الاسلامية ، وعن علائق الاسلام والنصرانية في شرقي الأندلس ، وهي غير الصورة المشوهة المبتورة ، التي تقدمها الينا معظم التواريخ الأسبانية ، التي كتب معظم من جانب واحد ، والتي يطبعها بذلك كثير من التحيز ضد المسلمين ، وضد مظاهر الحضارة الاسلامية .

بين دول الطوائف الاندلسية ودول عصر الاحياء الايطالية

يقدم الينا التاريخ مثلين تجمع بينهما نفس المظاهر والصفات والعوامل السياسية والفكرية والاجتماعية ، يقع أحدهما في العصر الوسيط ، ويقع الثاني في مطلع العصر الحديث ، بيد أنهما رغم التباعد في الفارق الزمني ، يقتربان في أصول التكوين السياسي والطبقي ، وفي صور الحياة الاجتماعية اللامعة في مظاهرها الخارجية ، والتي يقضم الترف أسسها الداخلية ، ويدفعها التنافس الى سلسلة من الحروب الصغيرة ، تقضي على سيادة بعضها ، وتضاعف حجم البعض الآخر وينتهي بها الأمر الى أن تنهار أخيرا أمام القوى الغازية من الخارج .

هذان المثلان هما أولا ، دول الطوائف الاندلسية المسلمة ، وثانيا دول عصر الإحياء الايطالية النصرانية في شمال ايطاليا . وقد عاشت دول الطوائف

العربي العدد ٢٧٢ يوليو - تموز ١٩٨١ م

الاندلسية زهاء قرن من الزمان منذ سنة ٣٩٩ ـ ٤٨٣ هـ (١٠٠٩ ـ ١١٠٨ م) ، وعاشت دول الإحياء الايطالية زهاء قرنين منذ بداية القرن الرابع عشر الى اوائل القرن السادس عشر من الميلاد .

تشابه في النهضة

أول وأعظم وجوه الشبه بين دول الطوائف ودول الإحياء هو تعاظم النهضة العلمية في كل منهما بشكل أخاذ ساطع ، وذلك بالرغم من سائر العوامل الهدامة السياسية والاجتماعية التي كانت تمزق كلتا الكتلتين يومئذ . ويكفي أن نذكر في دول الطوائف بعض الأسماء الامعة في عالم الآداب والعلوم ، مثل المعتمد بن عباد ، وعمر بن الأفطس ، وابن زيدون ، وابن عمار ، وابن بسام ، وابن باجة وابن حيان ، ومن ظهر في أعقاب هذه النهضة مثل بني زهر وابن رشد وابن طفيل . وفيما يتعلق بدول الإحياء يمكننا ان نذكر كثيرا من الاسماء العظيمة اللامعة مثل دانتي وبترارك وبوكاشيو وميكيافللي وميكل انجلو ودافنشي ورافايللو وتشلليني ، وعشرات بل ومئات من أقطاب الفنون ، التي لم تزدهر في اي عصر من العصور مثل ما ازدهرت في ذلك العصر ، وفي مجتمع الإحياء بالذات .

وكما اضطرمت بين الطوائف طوال الوقت تلك الحروب الأهلية الصغيرة ، ووقع فيها تبادل المدن والاراضي ، فكذلك كان الشأن بين دول عصر الاحياء . فقد كانت الحرب تندلع من آن لآخر بين الأسر المختلفة ذات العصبية والشأن مثل آل مديتشي ، وآل فسكونتي ، وآل جلفا ، وآل البزي ، وغيرهم من أكابر الأعيان والاسر .

وقد كان آل مديتشي من ألمع هذه الاسر وأغناها ، وأقدم الأسر الفلورنسية وأعرقها . وقد ظهرت منذ القرن الثالث عشر في فلورنس أزهر

مدن الاحياء ، وتقدمت سراعا بين صفوف الشعب ، وأحرزت ثروة طائلة من ممارسة التجارة والأعمال المالية . ثم نزلت الى ميدان السياسة باصولها العائلية وثرائها ، واستطاعت ان تحوز الرياسة وأن تضطلع بحكم المدينة العظيمة ، وكان أول من حكمها منهم جوفاني دي مديتشي فتولى رياسة الجمهورية . ولما توفى في سنة ١٣٩٣ خلفه في الرياسة ولده كوزيمودي مديتشي ثم ولده بيترو ، ثم خلفه ولده لورنزو الملقب بالمجيد ، وكان فتى كثير الاطماع رفيع المثل العليا ، وكان أعظم واشهر من حكم من آل مديتشي . وتوطد سلطان آل مديتشي وقامت في عهده ثورات ضدهم ، وفقدوا الحكم غير مرة ، ثم اعيدوا الى الرياسة مرتين . وفي عهدهم بلغت فلورنس ذروة العظمة والرخاء ، وقامت بها القصور والكنائس التاريخية العظيمة ، ونبغ الكثير من اعلام الفنانين والمصورين والعلماء ، وحكم آل مديتشي جمهورية فلورنس زهاء قرن من الزمان من سنة ١٤٣٤ الى سنة ١٥٢٧ م .

وتماثل في المجون

وكانت الحياة الاجتماعية متشابهة كل الشبه بين العصرين . فقد كان مجتمع الطوائف يحيا حياة حرة مرحة ، سواء في القصور او لدى الطبقات العليا . وكان الفساد يغشى كل جوانب المجتمع ، والملاذ الدنيا تغلب على كل الطبقات ، وتنتشر الخمور والشراب بين سائر الناس،فكانت حياة مادية يغلب عليها الترف ، وتحقيق الشهوات بكل الوسائل . وكانت حياة الجنس تسيطر على كل الطبقات ، وكان انتشار الجواري والغلمان ظاهرة عامة سواء في القصور أو لدى الطبقات الخاصة ، بل الطبقات الدنيا . فكانت حياة مادية حرة مترفة طليقة بكل الوسائل والمعاني .

وكانت مثل هذه الموجة من الحياة المادية ، والفساد الاجتماعي الشامل ، تسود مجتمعات عصر الأحياء الايطالية ، التي كان يجرفها تيار الشهوات الدنيا

بسائر طبقاتها . ولنا في قصص بوكاشيو نماذج قوية للحياة الاجتماعية المترفة الطليقة المرحة ، التي كانت تحياها مختلف الطبقات يومئذ ، دون استثناء لرجال الدين والأديرة . فقد كانت حياة متاع ومرح وفسق بكل ما في هذه الكلمات من معاني الشهوات والملاذ المادية والجنسية .

على أن هذا الانغماس في الحياة المادية والشهوات الدنيوية ، لم يمنع من أن يضطرم مجتمع الاحياء حسبما أشرنا - بحركة علمية زاهرة . وكانت فلورنس في نفس الوقت هي منبت هذه الحركة ، ومنذ ايام بترارك والبحث يجري عن العلم القديم . وكان بوكاشيو وزملاؤه يتخذون نفس الطريق في اكتشاف كتابات الكتاب اليونان واللاتين . وكان سقوط القسطنطينية عاملا في نمو هذه الحركة واتجاهها الى اكتشاف الكنوز القديمة ونقلها . وكان للتراث اللاتيني آثاره ولا سيما لدى الكتاب السياسيين مثل مكيافللي وجيشارديني . وكانت فلورنس تقود هذه الحركة وتدعمها . وكان فن التصوير يجند بخاصة ميدانه في الحرية وحب الجمال ومرح الطبيعة والانسانية ، كما كان يغذيه حب الحياة المادية في نفس الوقت . ومن ثم كانت هذه الجمهرة الكثيفة من عباقرة هذا الفن بصورة لم يحدث مثلها في أي عصر من العصور .

نفس الظواهر

وقد كان الملوك والامراء ، بل والبابوات في عصر الإحياء ، حماة للعلوم والآداب ، وكان من اعظم امراء هذا العصر آل مديتشي حكام فلورنس وعلى رأسهم قطب الاسرة العظيم لورنزو المجيد . وكان البابوات وهم يومئذ من اقطاب السلطة السياسية ، يحكمون الى جانب الزعامة البابوية مملكة كبيرة تتوسطها مدينة رومة العظيمة ، ولهم سلطان سياسي واسع ويساهمون مساهمة فعالة في حماية العلوم والآداب والفنون . ومن عجائب عصر الاحياء ، أن يكون

آل بورجيا وعميدهم البابا اسكندر السادس من الابطال العاملين في ميدان الحرب والسياسة ، وميدان العلوم والفنون . بل من عجائب هذا العصر ان يكون هذا الحبر الفاجر المنهمك في غمار الشهوات والمفاسد من حماة العبقرية والفنون ، وان يسبغ حمايته على عدة من عباقرة الفنون في منشآت عالية فخمة ، مثل المصلى الستيني ، وجناح آل بورجيا بقصر الفاتيكان ، وان تكون لوكريزيا الحسناء ابنة هذا البابا ، بزواجها من دوق فيرارا ، وكونها قد غدت اميرة هذه الولاية ، قد غدت كذلك من حماة الفنون والآداب ، وأن يكون ابنه قيصر (سيزر) بورجيا قد غدا بالنسبة لمكيافيللي هـو « الامير » العبقـري الامثل ، الذي يجب أن يقتبس الامير الامثل من صفاته لكي يسود ويحكم ، وذلك بالرغم مما ارتكبه من جرائم القتل والسفك : كل ذلك من عجائب عصر الاحياء الذي شملت رعاية امرائه واقطابه ـ على اختلاف صفاتهم ومراكـزهم السياسية والاجتماعية ـ اكبر الكتاب والفنانين ، الذين قاموا في ظل هذه الرعاية بكثير من اعمالهم ومنشآتهم وصورهم الخالدة .

ونحن اذا استعـرضنا عصـر الطوائف الأنـدلسية ، استـوقفتنا نفس الظواهر ، من ازدهار العلوم والآداب في تلك الممالك الصغيرة التي غمـرها الترف والانحلال ، واستغرقت في حياة المتـاع واللهو ، وفي ميدان الشقاق والمعارك الاهلية . وما من شك في أنه كان في عهد الطوائف نهضة علمية وأدبية زاهرة ، زخرت بعدد كبير من اقطاب الشعر والادب ومختلف صنوف العلوم . وقد كانت قصور بني عباد في اشبيلية ، وبني صمادح في المرية ، وبني الأفطس في بطليوس ، وبني هود في سرقسطة ، موئل كثير من الشعراء والادباء ، مثل ابن زيدون وابن عمار ، وابن دراج القسطلي وغيرهم . وكان ثمة علماء عباقرة مثل الفيلسوف ابن حزم القرطبي ، وابن باجة ابو بكر الصائغ ، وابو اسحق بن يحيى الزرقالي ، وابو بكر الطرطوشي وغيرهم وغيرهم .

وكانت قصور الطوائف تشمل اولئك الأدباء والعلماء برعايتها . وكانت

نهضة الادب والشعر في عنفوانها في بلاط اشبيلية ، حيث كان بنو عباد ـ وعلى راسهم المعتمد بن عباد امير الشعر في عصره ـ يشملونها برعايتهم ، ويمدونها بعطائهم وتشجيعهم . وكان مختلف العلماء الذين ورد ذكرهم ، يقومون بدراساتهم تحت نفس الرعاية من مختلف قصور الطوائف . وقد كانت هذه النهضة العلمية المحلية التي ازدهرت في ظل الطوائف ، مبعث هذه النهضة العلمية والأدبية ، التي ظهرت فيما بعد في ظل الحكم الموحدي ، ولمع فيها علماء عباقرة مثل بني زهر ، وابن طفيل ، وابن رشد وغيرهم .

تلك هي أوجه الشبه بين عصر الطوائف الاندلسية ، وعصر الاحياء الايطالي ، وهي بلا ريب أوجه تحمل كثيرا من الظواهر المتماثلة ، السياسية والاجتماعية والفكرية . وهي ظواهر يمكن أن نلخصها فيما يلي :

سيطرة الامراء الطغاة وما تثيره من الحروب الاهلية الصغيرة ، والتخاذل في الدفاع عن الوطن ، والانحلال الديني والاخلاقي والاجتماعي الشامل ، وازدهار النهضة العلمية والادبية التي يرعاها الامراء الطغاة ويمدونها بالبذل الوفير ، وقد كانت هذه النهضة في عصر الاحياء اروع ما عرفته ايطاليا في تاريخها الطويل الحافل .





الفصل الثالث

بعد السقوط

حَتّى نفهَمَ قضيَّةَ الأنـدَلسْ

إن الذين يعالجون الاندلس (تاريخها أو جغـرافيتها) لايشعـرون على الأغلب بحقيقة المادة التى يعالجونها ، وانما يعالجـون مجموع أعصـار وحدود جغرافية مختلفة ، ثم يطلقون عبارة الاندلس على ذلك المجموع دون تحديد أو تعيين أو تمييز . واذا أردنا نحن أن نضع حدا معينا لعبارة الأندلس استطعنا أن نقول إن الأندلس فى سائر الأعصار أو الحدود الجغرافية هى « اسبانيا المسلمة » وذلك أينما كانت مواقعها الجغرافية أو مداها التاريخى .

الأندلس الكبرى

فقد شملت إسبانيا المسلمة عقب الفتح سائر شبه الجزيرة ما عدا ركنها الشمالى الغربى المسمى جليقية ، ومع ما افتتحه المسلمون فيها وراء جبال البرتة من الأراضى والمدن . وكانت هـذه هى الأندلس الكبرى التى خضعت للحكم الاسلامى ، أو بعبارة أخرى كانت هـذه الأراضى هى التى تشملها إسبانيا المسلمة أو الأندلس الكبرى .

العربى العدد ٢٨٨ نوفمبر - تشرين الثانى ١٩٨٢ م

ولما فقدت اسبانيا المسلمة أراضيها فيما وراء جبال البرنية ، أصبحت إسبانيا الكبرى الخاضعة للمسلمين تضم شبه الجزيرة الاسبانية ماعدا ركنها الشمالي الغربي المسمى جليقية .

ومن ذلك الحين تنقسم اسبانيا المسلمة الى اقطاعات أو ثغور ، فكان الثغر الأعلى يضم قطلونية . بعد أن خرجت منه نبرة واستقلت ، ثم يلي ذلك الثغر الأوسط ، فالثغر الأدنى ويقع وسط إسبانيا وجنوبها تحت حكم الامارة ثم الخلافة فيما بعد ، وذلك حتى البحر جنوبا وشرقا وهذه المنطقة هي التي تعتبر الأندلس من الناحية السياسية والتاريخية وهي التي يلتف حولها تاريخ الاندلس الكبرى . أما شمال الاندلس الشرقي فقد كان يكون ولاية سرقسطة التي لبثت زمنا تحت حكم الامراء الشماليين من بني هود وبني هاشم .

لبثت الأندلس الكبرى تحت حكم الإمارة ، ثم الخلافة منذ عصر الناصر ، وكانت هي الأندلس الحقيقية من الناحيتين الجغرافية والتاريخية ، حتى وقعت الثورة وسقطت الخلافة تحت ضربات البربر أواخر القرن الرابع الهجري ، وتمزقت الأندلس فيما بعد إلى الممالك الصغيرة المتنافسة التي عرفت بدول الطوائف واختفت الأندلس الموحدة أو الأندلس الكبرى زمنا حتى عبر المرابطون البحر الى الاندلس ، واستولوا على دول الطوائف وأصبحت الاندلس ولاية مغربية ، تقع تحت حكم الامبراطورية المغربية الكبرى فيما وراء البحر ، ثم كان بعد سقوط المرابطين نهوض الموحدين ، واستيلاؤهم على المغرب والاندلس . ولبثت الأندلس تحت حكم المرابطين ثم الموحدين أكثر من مائة وخمسين عاما محيت خلالها صحيفة الأندلس من الوجود ولبثت مستعمرة مغربية ، وأصبحت الأندلس لا تعرف إلا بأنها مستعمرة مغربية تحت حكم الموحدين ، ومحيت الأندلس من الوجود ككيان مستقل ، ولبثت تابعة في وجودها لحكومة الموحدين وهي التي تمثلها وتتحدث باسمها .

ولما ضعفت حكومة الموحدين ، كانت الأندلس قد تمزقت . وظهرت بها حكومات محلية ضعيفة . وشغل الموحدون بخلافهم الداخلي في المغرب

والأندلس ولف ستار من النسيان تلك المنطقة التى شغلت بحوادثها الداخلية كما شغل الموحدون بخلافاتهم فى المغرب وهى خلافات ظهر أثرها فى الأندلس ، بيد أن الأندلس لم تنس تماما ، بل لبثت تلمع بعلومها فى الاوساط العلمية الاوروبية ، وكانت أسماء مثل ابن رشد وابن طفيل وابن زهر وابن باجة وغيرهم من اعلام الاندلس الموحدية تسطع فى دوائر أوروبا العلمية ، وتدرس آثارها فى دوائر العلوم الأوروبية العالية .

الأندلس الحقيقية

خرجت الأندلس الجديدة من غمار الفوضى ، لتغدو مملكة غرناطة ، ولتحتل منطقة الأندلس الحقيقية من الناحية الجغرافية ، وذلك أن الأندلس هى قطر من أقطار أسبانيا الجنوبية ، ويطلق هذا الاسم على سائر الأراضى التى تقع جنوب نهر الوادى الكبير فى جنوبى إسبانيا وتمتد من مجراه حتى البحر الابيض المتوسط جنوبا ، وشمالا حتى اشبيلية وقرطبة ، وجنوبا حتى المرية وقرطاجنة غربا ، وهى الأندلس الحقيقية من الوجهة الجغرافية ، وهى التى كانت تقع تحت حكم مملكة غرناطة مع استثناء اشبيلية وقرطبة. ويسمى هذا الاقليم باللغة الاسبانية Andalucia أى الأندلس ، ومازال حتى اليوم فى الجغرافية الاسبانية محتفظا بأوضاعه الجغرافية والادارية القديمة . ولكننا مازلنا نطلق اليوم الأندلس التاريخية على أسبانيا المسلمة بسائر أقاليمها التى كانت تقع تحت حكم الحكومة الاسلامية ولا تقتصر هذه التسمية على إقليم الأندلس حسبما تحدده لنا الجغرافية الاسبانية ، وتعنى الأندلس .

محنة الأندلس

والآن فلنر بايجاز ما هى محنة الاندلس التى صارت فى التاريخ مثلا وعبرة من أروع العبر التاريخية :

كانت الأندلس الصغرى أو مملكة غرناطة تعيش فى عزة وفى رغد ولم يكن يزعجها سوى عدوها النصرانى الرهيب « مملكة قشتالة » التى كانت تعمل بكل ما وسعت للقضاء عليها . وعلى طمس معالم الاسلام فيما بقى من أنحاء الجزيرة . وكان رجال غرناطة الاسلامية ينتظرون هذه النهاية بتوجس وقلق ، ولم يكن يساورهم شك فى وقوعها عاجلا أو آجلا . وأخيرا فرغت قشتالة من مشاغلها الداخلية . وتأهب ملكاها فرناندو وايزابيلا لتحقيق هذه الأمنية العزيزة . أمنية القضاء على المملكة الاسلامية الصغيرة . والقضاء على ما بقى من آثار الاسلام فى إسبانيا . وشهرت قشتالة الحرب على غرناطة . وضربتها بكل ما وسعت . وقاومت المملكة الاسلامية الصغيرة ما استطاعت ولكن دون جدوى ،وسقطت غرناطة وما بقى من مدنها وقراها فى يد عدوتها الكبرى . لم يكن هذا كل ما تبقى . فقد كانت قشتاله تبغى القضاء على الاسلام وتحويل الشعب المغلوب الى أمة نصرانية . ووقع ذلك بالقهر والقوة ولم يفلت من هذا المصير من المسلمين الا من غادر الجزيرة وعبر الى المغرب وثغوره . واستعمل الملكان النصرانيان فرناندو وايزبيلا لتحقيق هذه الغاية كل ما وسعا من ضروب القهر والغصب ، واستعملا لذلك حبرهما الجبار المتعصب الكردينال خمنيس اسقف غرناطة . فأمر باعدام كل من أبى التنصر أو الخروج من الجزيرة ، وأصبحت الأندلس كلها نصرانية واختفى منها كل ظل للاسلام . ثم توالى الاضطهاد بعد التنصير . فأمر المسلمون أن يخلعوا ملابسهم العربية الاسلامية وان يرتدوا الملابس النصرانية ويحضروا بها القداس أسوة بالاسبان . وأن يتركوا عوائدهم الاجتماعية الخاصة مثل الرقص والموسيقا الأندلسية ، وان يقيموا حفلات زواجهم فى الكنيسة على الطريقة النصرانية . ثم تلا ذلك إرغام المسلمين على ترك لغتهم العربية . وعلى تعلم القشتالية لتكون لغتهم القومية . ولاتخاذها لغة الحديث والتعامل ، وأنشأ الاسبان للسهر على الشعب المتنصر ومراقبته سرا وجهرا ديوان التحقيق الكنسى أو (محاكم التفتيش) الشهيرة التى غدت سيفا مسلطا على أعناقهم ترميهم فى كل وقت بالمروق والردة ، وعدم

الاخلاص للدين الجديد ، وتقبض على الكثير منهم ، وتحرق من تحرق منهم وتجردهم من أمواهم الثابتة والمنقولة عقوبة للردة . وهكذا عاش الشعب الاندلسى المتنصر فى عذاب لا يوصف واضطهاد لم يلقه شعب فى التاريخ ، ومع ذلك فان الكنيسة الاسبانية لم تنجح فى القضاء على إيمانهم وتمسكهم سرا بالاسلام .

ورأت إسبانيا أخيرا أنها اخفقت فى سياستها العنيفة ، وقررت أن تخرج هذه البقية الشهيدة من العرب المتنصرين الذين سمتهم منذ التنصر «بالموريسكيين» من أرضها ، وكان ذلك فى سنة ١٦٠٩م ، (١٠١٨هـ) ، وكان عدد المتبقين من هذه البقية الشهيدة زهاء المليونين . وعبر معظم المتبقين البحر إلى معظم ثغور البحر الابيض ، لاسيما ثغور المغرب والجزائر وتونس ، وتركت حيث حلّت من ذكائها ونشاطها ومهارتها ، ماشهدت به كل الأمكنة التى نزلوا فيها . ومازالت بقاياها توجد حتى اليوم فى المغرب والجزائر وتونس ، وتوجد منها مدن وقرى كاملة مثل تستور بتونس ، وهى بلد موريسكى أصيل بمسجدها ومبانيها الموريسكية .

تلك هى المحنة المروعة التى عاناها الموريسكيون أو الاندلسيون المتنصرون ولا يعرف التاريخ محنة فى مثل روعتها وفظاعتها . ومن ثم فقد اصبحت من أروع العبر التى تضرب بها الأمثال .



الألخميادو لغة الموريسكيين السرية

على الرغم من إفاضة الرواية العربية في الحديث عن تاريخ الاندلس ، وجمال حواضرها ، وفضائل شعبها ، وسير ملوكها وخلفائها ، وآدابها ورقيق اشعارها وموشحاتها فإنها تخلو من الكلام عن تاريخ الشعب الذي غلب في الاندلس ، وتكتفي بالاشارة العابرة الى ما وقع من تنصيره ، ثم اخراجه آخر الأمر من اسبانيا في سنة ١٦٠٩ م (١٠١٨ هـ) ، ونزول البقية الباقية من أبنائه المنفيين في مختلف الثغور المغربية .

ونود هنا أن نتحدث عن احدى المسائل التي ارتبطت بالمرحلة الأخيرة من حياة الأندلس في تلك الفترة ، وهي مسألة الحالة الفكرية التي كانت تصطدم في نطاقها الضيق ، وعن اللغة التي اضطر الموريسكيون أو العرب المتنصرون الى ابتكارها للتعبير عن افكارهم ، ومشاعرهم ، والمحافظة على البقية الباقية من تراثهم الديني المكبوت في صدورهم .

ذلك أن العرب المتنصرين ، بالرغم من كل ما اتخذته اسبانيا النصرانية من وسائل القهر والارغام في تنصيرهم ، بقوا مسلمين في سرائرهم يذهبون الى

العربي العدد ٢٤٣ فبراير - شباط ١٩٧٩ م .

الكنائس مرغمين ، متوجسين مما ينالهم من سواء العذاب ، على يد محاكم التحقيق اذا لم يحضروا القداس ، أو اذا علقت بهم أية شبهة في صدق اعتناقهم للدين المسيحي . وكانت هذه الشبهات كثيرة لا حصر لها . وكانوا يشعرون دائما بالحرج من الدين الجديد . فاذا ذهبوا الى القداس أيام الآحاد ، فذلك فقط من باب مراعاة العرف والنظام . وفي يوم الجمعة يحتجبون ويغتسلون ، ويقيمون الصلاة في منازلهم المغلقة ، وفي أيام الآحاد يحتجبون ويعملون .

وكانت محاكم التحقيق (وهى المسماة خطأ بمحاكم التفتيش) قد وضعت قائمة طويلة بهذه الشبهات ، ومنها : أن الموريسكي أو العربي المتنصر ، يعتبر أنه قد عاد الى الاسلام ، اذا امتدح محمداً ، او قال إن يسوع المسيح ليس إلها . ومنها أن يحتفل يوم الجمعة بأن يلبس ثيابا انظف من ثيابه العادية ، او يستقبل المشرق قائلا « باسم الله » أو يختن اولاده ، او يسميهم باسماء عربية ، او يقسم بايمان القرآن ، أو يصوم رمضان ويتصدق خلاله ، أو يمتنع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر او يقوم بالوضوء والصلاة بأن يوجه وجهه نحو المشرق ، الى غير ذلك من الامور التي لا نهاية لها .

وقد ترك الموريسكيون عصرا يتحدثون بلغتهم العربية ، ويتعاملون بها ، ويكتبون بها سرا القرآن والحديث ، والادعية والصلوات ، وبعض الكتب الادبية . وقد فطنت الحكومة الاسبانية والكنيسة الاسبانية أخيرا الى أهمية اللغة القومية في تدعيم وحدة الموريسكين ، وضم شملهم ، وتقوية روحهم المعنوية ، فصدر في سنة ١٥٢٦ م في عهد الامبراطور شارلكان ، قانون يحرم على الموريسكيين التخاطب باللغة العربية ، وارتداء الثياب العربية ، واستعمال الحمامات واقامة الحفلات على الطريقة الاسلامية . ولكنه طبق يومئذ في كثير من الرفق والهوادة ولا سيما في المناطق التي يكثر فيها احتشاد الموريسكيين ، مثل منطقة غرناطة ، ومنطقة بلنسية .



الصفحتان الأوليان من كتاب في الأدعية النبوية مكتوب بالالخميادو ومحفوظ بمكتبة مدريد الوطنية برقم ٥٣٠٦

تحريم انشاد الاغاني !

ولما توفي الامبراطور شارلكان في سنة ١٥٥٥ م ، وخلفه ولده الملك فليب الثاني اخذت هذه الاوضاع في التغيير ، وكان فيليب الثاني ملكا شديد التعصب والتزمت ، ففي سنة ١٥٦٦ م ، حدد هذا القانون القديم بتحريم استعمال اللغة العربية وسائر ما هو عربي من العادات والتقاليد ، واليك

ملخص هذا القانون الهمجي .

« يمنح الموريسكيون ثلاثة اعوام لتعلم اللغة القشتالية ، ثم لا يسمح بعد ذلك لاحد منهم ان يتكلم أو يكتب او يقرأ اللغة العربية أو يتخاطب بها . وكل معاملات أو عقود تجري بالعربية تكون باطلة . ولا يعتد بها لدى القضاء أو غيره .

ويجب أن تسلم الكتب العربية ، من أية مادة ، لتقرأ وتفحص ، ثم يرد غير الممنوع منها لتبقى لدى اصحابها مدى الاعوام الثلاثة فقط . وكذلك الثياب العربية ، فلا يصنع منها أي جديد ، ولا يصنع إلا ما كان مطابقا لازياء النصارى . ويحظر على النساء الموريسكيات التحجب ، وعليهن أن يكشفن وجوههن وأن يرتدين المعاطف والقبعات عند الخروج . ويجب أن تجري سائر حفلاتهم طبقا لتقاليد الكنيسة وعرف النصارى . ويجب أن تفتح المنازل اثناء الاحتفال بأية مناسبة ، وكذلك ايام الجمع والاعياد ليستطيع القس ورجال السلطة أن يروا ما يقع بداخلها من المظاهر والرسوم المحرمة . ويحرم انشاد الاغاني القومية ، ويحرم الخضاب بالحناء ، ولا يسمح بالاستحمام في الحمامات ويجب أن تهدم سائر الحمامات العامة والخاصة .

اعلن هذا القانون في غرناطة في اول يناير سنة ١٥٦٧ م وهو اليوم الذي سقطت فيه غرناطة ، واتخذته اسبانيا عيدا قوميا تحتفل به في كل عام ، وعلق في ميدان باب البنود ، اعظم ميادينها القديمة ، وفي سائر ميادينها الاخرى ، فوقع لدى الموريسكيين وقع الصاعقة ، واجتمع زعماء الموريسكيين ، وتباحثوا فيما يجب عمله ازاء هذه المحنة الجديدة ، وحاولوا أن يسعوا بالضراعة والحسنى لالغاء هذا القانون او على الاقل لتخفيف وطأته ، ورفعوا ظلامتهم اولا الى الرئيس ديسا ، رئيس المجلس الملكي ، ثم رفعوها الى العرش على يد وفد من اعيانهم . وساعدهم في مسعاهم بعض أعيان غرناطة من الاسبان انفسهم ، ممن يعطفون عليهم . ولكن مساعيهم كلها ذهبت هباء ، وأكد لهم الكردينال

اسبنوزا كبير الوزراء ، بأن الملك مصمم على تنفيذ القانون ، وانه أصبح أمرا واقعا محتوما لا سبيل الى رده . فعندئذ بلغ اليأس بالموريسكيين ذروته ، ولجأوا الى الثورة ، وبدأت الثورة في منطقة « البشرات » في مناطقها الجبلية الوعرة، وامتدت الى سائر انحاء مملكة غرناطة القديمة . واشتد النضال بين الموريسكيين ، وبين قوات الجيش الاسباني في انحاء مختلفة ، ووقعت في الجانبين مذابح مروعة ، وجردت اسبانيا على مواقع الثوار ، قوى ضخمة ، تولى قيادتها الدون خوان الشهير اخو الملك ، وانتهى الامر باخماد الثورة في سيل من الدماء ، واستكان الموريسكيون في غمار من الذل واليأس ، ينتظرون ما تخبئه لهم الأيام من محن ومصائب جديدة .

كتبوا القرآن سرا

بيد أنهم فكروا في الوقت نفسه ، انه لا بد أن تكون لديهم كتب الأدعية والصلوات الاسلامية ، وكتب القرآن والتفسير والاحاديث النبوية . فكيف يعملون ، وقد اخذت منهم معظم كتبهم الدينية ، وحرمت عليهم الكتابة بلغتهم العربية العزيزة . فعندئذ وجد الموريسكيون في اللغة القشتالية ذاتها متنفسا لتفكيرهم وأدبهم القديم ، ولأدعيتهم وصلواتهم ، وكتبهم الدينية . واسفر ذلك بعد فترة من الوقت عن ابتكارهم للغة جديدة اشتقت أصلا من القشتالية ، اللغة المفروضة ، واختلطت بها الفاظ عربية ، واعجمية مختلفة من اللهجات القديمة والمعاصرة ، ولا سيما اللغة الرومانية . وكانت اللغة الرومانية لغة المستعمرين أيام الدولة الاسلامية ، معروفة ذائعة في قرطبة وغيرها من الحواضر الاندلسية التي تقيم بها طوائف كبيرة من النصارى المستعمرين ويعرفها بعض العلماء المسلمين ، وكان المسلمون الاندلسيون يستعملون احيانا بعض عبارات هذه اللغة الرومانية ، ويسمونها في كتبهم « باللطينية » وقد تسرب منها

بمضي الزمن كثير من الالفاظ في الزجل الاندلسي ، ولا سيما ازجال ابن قزمان ، وفي مملكة غرناطة كانت تتسرب بعض الفاظ اللغة العربية الشعبية إلى لغة الموريسكيين السريعة التي لجأوا الى ابتكارها ، حينما حرمت عليهم لغتهم الاصلية ، واحتفظوا لها بالأحرف العربية امعانا في اخفاء سرها عن اعدائهم .

وتعرف هذه اللغة التي اتخذها الموريسكيون بالاخص متنفسا لدينهم القديم « بالالخميادو » ، Aljamiado وهو تحريف اسباني لكلمة «الأعجمية» . وقد لبثت بعد نفي الموريسكيين من اسبانيا في سنة ١٦٠٩م ، سرا دفينا لا يعرفه احد ، حتى ظفر بعض العلماء الاسبان بمجموعة من مخطوطاتها في اوائل القرن الماضي . وعندئذ ظهرت عنها المعلومات الاولى . ويقول العلامة مننديث اي بلايو ، في تعريفها « بانها هي اللغة الرومانية القشتالية ، تكتب باحرف عربية » . وكان من أول الدارسين لها العلامة المستشرق الاسباني ساندرا ، وله في دراستها عدة بحوث .

وهكذا كتب الموريسكيون القرآن سرا باللغة العربية ، مقرونا بشروح وتراجم الخميادية ، وكتبوا سيرة الرسول والمدائح النبوية ، وقصص الانبياء ، وبعض كتب الفقة والحديث بالالخميادو - وهي رسم لغتهم العزيزة القديمة ، مع كتابة البسملة والآيات القرآنية دائما خلال هذه الشروح السرية ، باللغة العربية ، وقد كانت معظم الكتب الألخميادية ، تكتب دائما بالشكل الكامل ، حتى يمكن قراءتها بطريقة صحيحة .

وقد ترك الموريسكيون تراثا أدبيا من النثر والنظم استعملوا في كتابته « الالخميادو » وتوجد عنه مجموعات كثيرة في مكتبة مدريد الوطنية ، ومكتبة اكاديمية التاريخ . وكان من اشهر شعرائهم محمد ربدان ، الذي كان حيا في اوائل القرن السابع عشر ، واصله من روطة خالون ، من اقليم اراجون ، وله نظم كثير ، وقصائد قصصية ، واخرى دينية ، ومن شعرائهم أيضا ابراهيم دي بلغاد ، وخوان الفونسو ، ومحمد الخرطوشي من أهل بيانة . ومنهم اخيرا شاعر موريسكي مجهول ، عاش في تونس في اوائل القرن السابع عشر ، بعد النفي

بقليل ، واشتهر بنقله لمسرحيات لوبي دي فيجا ، شاعر أسبانيا الاكبر .

ومن اشهر كتاب الالخميادو ، الكاتب الفقيه المسمى « فتى ابيرالو » وهو مؤلف لكتب في التفسير ، وتلخيص السنة ، وقد طاف بمعظم انحاء اسبانيا ، وشهد مصائب قومه ، ووصفها باسلوب قوي مؤثر .

رغم الضعف والتواضع

ومن أشهر كتب الموريسكيين الألخميادية ، كتب الأدعية والمدائح النبوية ، والواقع ان كتابة المدائح النبوية باللغة القشتالية ، ترجع الى عصر مبكر ، فقد كتبها « المدجنون » بهذه اللغة منذ القرن الثالث عشر ، وانتشرت بعد ذلك بين طوائف المدجنين في مختلف مدن قشتالة واراجون ، ثم كتبها الموريسكيون بالألخميادو أو القشتالية العربية .

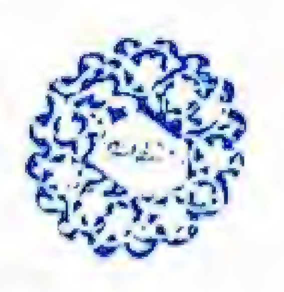
ويرى النقاد أن نثر كتّاب الألخميادو أفضل من نظمهم ، وانه نثر مطبوع ، خال من التكلف . والادب الموريسكي لا يتجه الى مراعاة الرونق والتنسيق ، ولكنه يرمي قبل كل شيء الى تصوير التاريخ والتقاليد القومية في اطار ديني . وبالرغم مما يغلب عليه من الضعف والركاكة بصفة عامة ، فانه يصل احيانا الى مرتبة الطلاوة بل يصل احيانا الى مرتبة البلاغة . وهو وان لم تكن له ثروة من الجمال ، او قيمة ادبية ذات شأن ، فان له قيمة تاريخية واجتماعية هامة ، في الكشف عن التقاليد والعادات . كما يرى النقاد انه قد ترك اثره في اللغة الاسبانية ، وفي الشعر الاسباني ، وفي الأفكار الدينية وغيرها .

وقد نوه واحد من الكتاب الاسبان ، بما كان عليه الادب الموريسكي ، بالرغم من ضعفه ، وضآلة شأنه ، من شاعرية ، وشعور بالجمال ، وخيال ممتع ، وذوق سليم ، ويعلق العلامة الاسباني ، الدون برونات في كتابه « الموريسكيون الاسبان ونفيهم » على اختفاء الموريسكيين ، واختفاء ادبهم

بعبارات شعرية يقول فيها : « ان السياسة الاسبانية لم تكتف بنفي الموريسكيين ، وما ترتب عليه من نضوب حقولنا ومصانعنا وخزائننا ، ولم يقتصر الامر على انتصار التعصب وبربرية « ديوان التحقيق » بل تعداه الى اختفاء الشعر ، وشعور الجمال الموريسكي ، والادب السليم ، الذي رفع سمعة تاريخنا » .

ثم يقول : « انه اختفى بنفي الموريسكيين » الادب المعطر ، والشاعرية الشعبية ، والخيال الممتع ، ومصدر الوحي ، الذي كانوا يمثلونه . وقد غاض باختفائهم من شعرنا هذا التلوين والفن والحيوية والالهام والحماسة ، التي كانت من خواصهم ، وحل محلها الظلام في الافق الادبي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر » .

هذا . وكم في قصة الموريسكيين او العرب المتنصرين من آلام ومآس مبكية ، تفيض بها صحف التواريخ القشتالية وتفيض بها وثائق محاكم التحقيق المكدسة في دار المحفوظات الاسبانية العامة في سيمانقا ، ولا تعرف مصادرنا العربية المعاصرة عنها شيئا ، ولا تتناول منها الا النزر اليسير ، في اشارات عابرة . هذا الى جانب طائفة من المصادر الاوروبية الحديثة ، التي تتناول « ديوان التحقيق » واجراءاته وأحكامه المروعة ، ففيها كثير من التفاصيل السابقة .



تراث الأندلس الفكري وخاتمته المؤسية

لبثت قصة الكتب الأندلسية ، بعد انهيار الأندلس ، عصورا تشغل العالم الاسلامى ، وتشغل المغرب بنوع خاص ، أولاً لقربه من مواطنها ، وثانياً لان المغرب منذ انتهت دولة الاسلام بالاندلس ، غدا هذا المستودع الطبيعى لتراث ، الأمة المغلوبة ، واليه تسرب الكثير من نفائس هذا التراث ولا سيما فى عصور الأزمات والشدة ، وثالثا لأن مكتبة مغربية عظيمة هى مكتبة مولاى زيدان الحسنى ، (١٦٠٧ ـ ١٦٢٧ م) قد امتزج مصيرها ـ بسبب حادث طارىء ـ بمصير الكتب الأندلسية .

المكتبة الأموية

لكى نقدر اهمية تراث الأندلس الفكرى ، يجب أن نعود الى عصور الخلافة الأندلسية ، حينما ازدهرت الحركة الفكرية بالاندلس ، واخذت ثمرات التفكير الاندلسى تملأ الغرب الاسلامى بروائع نفثاتها ، فى سائر ميادين العلوم والآداب ، وأنشئت المكتبة الأموية العظيمة التى لم تكن مقصورة على ثمرات

العربي العدد ٩٩ فبراير ـ شباط ١٩٦٧ م

التفكير الأندلسى ، ولكنها كانت تضم ثمرات التفكير الإسلامى فى المشرق والمغرب .

ويقترن ذكر المكتبة الأموية العظيمة بنوع خاص بعصر المستنصر ولد عبدالرحمن الناصر . ففى عصره (٩٦١ - ٩٨٦م) اتسع نطاقها اتساعا عظيما ، وتحولت من مكتبة قصر خاصة ، الى مكتبة قومية عظيمة ، وغدت بضخامتها وتنوع محتوياتها ، من أعظم مكتبات العصور الوسطى .

ويرجع أكبر الفضل فيما بلغته المكتبة الأموية من الضخامة والعظمة ، الى شخصية الحكم المستنصر ذاته ، والى صفاته العلمية الممتازة التى نوه بها أكثر من مؤرخ اندلسى ، والى شغفه العظيم بجمع الكتب ، وهو شغف كان له أكبر الأثر في ملء خزائن الأندلس بنفائس الكتب من كل قطر ، من اقطار العالم الاسلامى .

وقد اختلف المؤرخون فى تقدير محتويات المكتبة الاموية ، فقدرها البعض ، بأربعمائة الف مجلد ، وقدرها البعض الآخر بستمائة الف . وكانت توجد فى قواعد الأندلس الاخرى ، عدا مكتبة قرطبة العظيمة ، زهاء سبعين مكتبة اخرى . وهذا وحده يكفى للدلالة على مدى التقدم العظيم ، الذى بلغته الحركة الفكرية فى الأندلس ، فى هذا العصر الزاهر .

الفتنة الكبرى

بيد أن هذا التراث الفكرى العريض ، لم يلبث مع الأسف ان لحقته يد الدمار والمحن . ففى سنة اربعمائة من الهجرة (١٠٠٩م) وقعت الفتنة الكبرى ، وكان من حوادثها ان حاصر البربر قرطبة ، فأخرجت معظم الدخائر

والكتب من خزائنها خلال الحصار ، وبيعت بأمر الفتى واضح مولى المنصور بن أبي عامر ، ونهب ما تبقى منها حينما اقتحم البربر قرطبة ، وهكذا بددت فى لحظة محتويات المكتبة العظيمة التى تعاقب الخلفاء عصورا على انشائها .

على ان معظم هذا التراث المبدد بقى داخل شبه الجزيرة الاندلسية . وتلقى امراء الطوائف الكثير منه ، وزادوا عليه . وفى الفترة القصيرة التى حكم فيها امراء الطوائف ، زهت الآداب الأندلسية ولا سيما فى دولة بنى عباد فى اشبيلية ، وبنى الأفطس فى بطليوس ، وبنى صمادح فى المرية . ولم تقف حركة التفكير الأندلسى فى ظل المرابطين والموحدين ، وان كانت قد خبت فى بعض النواحى ، وعرضت من آن لآخر لعصف الثورات والفتن المتوالية . وكانت القواعد الأندلسية تزخر دائما بمجموعات من الكتب الخاصة . وكلما سقطت قاعدة منها فى ايدى النصارى ، نقلت ذخائرها الفكرية الى القواعد الأخرى ، حتى سقطت معظم القواعد الكبرى ، مثل قرطبة واشبيلية وبلنسية ومرسية وغيرها فى ايدى الاسبان ، واسفرت الفتن الغامرة التى سادت الأندلس الغاربة المتداعية ، فى أوائل القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) بعد احداث وتطورات جمة عن قيام مملكة غرناطة الاسلامية الصغيرة على أنقاض الأندلس الكبرى ، فى الركن الجنوبى من شبه الجزيرة الاسبانية ، فيما بين نهر الوادى الكبير والبحر على مقربة من الديار المغربية ، لتكون ملاذها وقت الخطر الداهم . وشاء القدر أن تنهض هذه الأندلس الصغرى وأن تسطع ، وأن تعيد دولة التفكير والأدب فى الاندلس عصرا آخر .

وفى وسعنا أن نقول ان هذه المرحلة الأخيرة من نهضة التفكير الأندلسى ، كانت من اخصب مراحله ، وأنها حفلت فى مختلف الميادين بطائفة من الشخصيات البارزة التى جعلت من مملكة غرناطة الصغيرة مستودعا غزيرا للتراث الأندلسي . ومن المعروف أن ذخائر الأندلس الكبرى ، وكل ما تبقى

من تراثها العلمى والفنى ، قد نقلت كلها فى أعقاب الفتنة الكبرى الى مملكة غرناطة ، واستقرت بها دهرا ، وزادت على كر الزمن بما أضيف اليها من انتاج أعلام التفكير والأدب الغرناطى .

سقوط غرناطة

وكانت مدينة غرناطة وباقى قواعد الأندلس الأخرى ، مثل وادى آش ولوشة ومالقة وبسطة والمرية وغيرها ـ تزخر بمختلف المكتبات والمجموعات الخاصة ، حينما شهر الملكان الكاثوليكيان ـ فرناندو وايسابيلا ملكا اسبانيا المتحدة ـ حربهما المدمرة للقضاء على مملكة غرناطة . وفى تلك الآونة المؤلمة التى شعر فيها أهل الأندلس ، بأن مصائرهم ومصائر وطنهم ودينهم ، أضحت تهتز فى يد القدر ، غادر الكثير منهم الوطن القديم ، وعبروا البحر الى عدوه المغرب ، وحمل الكثير معهم كتبهم .

ولكن مقادير عظيمة من ذخائر الأندلس الفكرية ، ظلت تثوى فى أماكنها الخاصة فى غرناطة وغيرها . فلما حم القضاء وسقطت غرناطة آخر القواعد الأندلسية فى يد الاسبان (يناير ١٤٩٢م) وانتهت بذلك دولة الاسلام فى الأندلس ، وغدت بقايا الشعب الاندلسي العظيم ، كالعبيد فى ظل الحكم الاسبانى ، لم يكن يدور بخلدهم شيء مما دبرته السياسة الاسبانية ، من مشاريع بعيدة المدى . للقضاء على وطنهم ودينهم وتراثهم ، وكل مقوماتهم الحضارية والروحية . وبدأت السياسة الاسبانية بفرض التنصير القهري على أبناء الامة المغلوبة .

ثم قرن الكاردينال خمنيس منفذ هذه السياسة ، عمله باجراء مدمر آخر ، هو انه امر بجمع كل ما يستطاع جمعه من الكتب العربية ، من اهالى غرناطة

وارباضها ، ونظمت اكداسا هائلة في ميدان باب الرملة ، أعظم ساحات المدينة ، وفيها كثير من المصاحف البديعة الزخرف ، وآلاف من كتب الآداب والعلوم ، واضرمت فيهاالنار جميعا ، ولم يستثن منها سوى ثلاثماية من كتب الطب والعلوم ، حملت الى الجامعة التي أنشأها في « قلعة هنارس » وذهب ضحية هذا الاجراء الهمجي عشرات الالوف من الكتب العربية هي خلاصة ما تبقى من التفكير الاسلامي في الاندلس .

قصة مكتبة الاسكوريال

واستمرت مطاردة السياسة الاسبانية للكتب العربية بعد فعلة خمنيس ، فجمعت منها خلال النصف الاول من القرن السادس عشر مقادير عظيمة اخرى ، من غرناطة ومن مختلف القواعد الاندلسية القديمة ، ولا سيما بلنسية ومرسية ، حيث كانت لدى المورسكيين والعرب المتنصرين منها مجموعات كبيرة . ولكنها لم تعدم ولم تحرق هذه المرة ، بل لقيت سبيلها الى المكتبة الملكية في الاسكوريال أيام الملك فيليب الثاني .

وفي سنة ١٦١٢م وقع حادث ترتب عليه ان ضوعفت المجموعة العربية بالمكتبة الملكية . وذلك ان اسطولا اسبانيا بقيادة دون بيدرو دي لارا ، كان يجوس خلال المياه المغربية تجاه ثغر آسفي ، ففاجأ قافلة من السفن المغربية كانت تصحب مولاي زيدان الحسني ، وكانت من بينها سفينة مشحونة بالتحف ، وبها نحو ثلاثة آلاف سفر من كتب الفلسفة والأدب والدين ، فاستولى عليها الاسبان . وكانت هذه الكتب من محتويات المكتبة الزيدانية الشهيرة . وكان مولاي زيدان قد اضطر تحت ضغط خصومه أن يغادر عاصمة مراكش ، وان يحمل معه تحفه وكتبه ، فاستلبهاالاسبان على هذا النحو ، وحملت غنيمة الى قصر الاسكوريال ، وبذلك بلغت المجموعة العربية في الاسكوريال في أوائل

القرن السابع عشر نحو عشرة آلاف مجلد ولبثت هذه الآلاف العشرة من المخطوطات الاندلسية والمغربية في قصر الاسكوريال زهاء نصف قرن ، وكانت اغنى وأنفس مجموعة من نوعها في اسبانيا ، وفي اوروبا كلها . ولكن محنة جديده أصابت هذه البقية الباقية من تراث الأندلس الفكرى . ففى سنة ١٦٧١ شبت النار في قصر الاسكوريال والتهمت معظم هذا الكنز الفريد ، ولم ينقذ منه سوى زهاء ألفين هي التى تثوى اليوم في اقبية الاسكوريال .

وهذه البقية الباقية ، من تراث التفكير الاندلسي ، وما اختلط به من بقايا المكتبة الزيدانية هى التى قام العلامة اللبنانى ميخائيل الغزيرى بدراستها بتكليف من الحكومة الاسبانية ، ووضع عنها فهرسه الشهير باللاتينية **Bibliothece Arabico- Hispana Escurialensis** في مجلدين كبيرين صدر أولهما في سنة ١٧٦٠ وصدر الثانى في سنة ١٧٧٠ . ويحتوى الاول على أبواب النحو وعلوم اللغة والشعر والفلسفة والاخلاق والسياسة والطب والتاريخ الطبيعى ، والرياضة ، والفلك ، والهندسة والفقه وعلوم الدين والقرآن . ويبلغ عدد الكتب التى تشملها هذه الأبواب ١٦٢٨ كتابا . ويحتوى المجلد الثانى على باب الجغرافيا والتاريخ ، ويمتد تعداد محتوياته حتى رقم ١٨٥١ ، وهو نهاية الكتب التى قام بدراستها الغزيرى . ويوجد فضلا على ذلك نحو مائة مخطوط أخرى لم يشملها فهرس الغزيرى ، وبذلك تصل مجموعة الاسكوريال الاندلسية الى نحو الفى كتاب .

وتوجد بين هذه المجموعة الاسكريالية طائفة كبيرة من كتب المكتبة الزيدانية ينوه عنها الغزيرى من آن لآخر في فهرسه ، ويذكر انها من كتب المكتبة المغربية الملكية السابقة ، ومنها عدة من الكتب المكتوبة بالخطوط المذهبة ، والمجلدة بجلود فاخرة لاتزال تحتفظ برونقها الملكى .

محاولات الاستعادة

ولم ينس ملوك المغرب الكتب الاندلسية ، ولم ينسوا بالأخص كتب المكتبة الزيدانية التى نهبت قسرا في عرض البحر ، فبذلوا في سبيل استردادها غير محاولة رسمية .

ففى سنة ١١٠٢ هـ الموافقة لسنة ١٦٩٠ م أرسل مولاى اسماعيل عاهل المغرب الكبير ، سفيرهُ الوزير محمد بن عبدالوهاب الغسانى الى كرلوس الثانى ملك اسبانيا ليقوم بمهمة مزدوجة هى الاتفاق على تبادل الاسرى ، والعمل على استرداد الكتب العربية . وكان حريق الاسكوريال قد وقع قبل مقدم الوزير الى اسبانيا بنحو عشرين عاما ، فزعم الاسبان للوزير ان الحريق قد أتى على سائر الكتب العربية ، وأخفوا عنه حقيقة ما تبقى منها . ولما قام الوزير بزيارة قصر الاسكوريال وشاهد آثار الحريق في المكتبة اقتنع بما ذكره الاسبان ، واكتفى بالاتفاق على تحرير الاسرى .

وبعد ذلك بنحو ثمانين عاما بعث مولاى محمد بن عبدالله ملك المغرب في سنة ١١٧٩ هـ الموافقة لسنة ١٧٦٦ م ، كاتبه احمد بن المهدى الغزال بسفارة مماثلة الى كرلوس الثالث ملك الاسبان ، تدور أيضا حول تحرير الاسرى ، واسترداد الكتب العربية . وقد استطاع السفير المغربى ان يصل الى اتفاق مرض مع الحكومة الاسبانية لمعاملة الاسرى وأن يحصل أيضا على قليل من الكتب العربية جمعت له من مدريد وغرناطة . ولكن الاسبان اخفوا عنه ، كما أخفوا من سلفه الوزير الغسانى ، حقيقة الأمر فيما يتعلق بمجموعة الاسكوريال

خاتمة تبعث الأسى

وهكذا كانت الخاتمة المؤسية لتراث الأندلس الفكرى . فقد تناولته يد التدمير المنظم منذ انهارت دولة الاسلام في الاندلس ، ثم التهمت النار بعد ذلك

معظم ما احتفظ به الاسبان منه ، ولم تبق منه سوى البقية القليلة التي مازال تثوى في أقبية الاسكوريال حتى يومنا .

بيد اننا ما زلنا نعتقد ، أو مازال يحدونا الأمل بأن المغرب ، وقد كان دائماً مستودعاً لتراث الاندلس ، وبخاصه أيام المحن والشدائد ، مازال يحتفظ في مجموعاته الخاصة ، سواء في حواضره أو في بواديه ، بكثير من الذخائر الاندلسية النفيسة ، التي قد يكشف عنها البحث ، وقد كشف لنا البحث بالفعل في الأعوام الاخيرة عن طائفة من الآثار الاندلسية الجليلة التي كان يظن انها قد هلكت واندثرت الى الابد .



العرب تركوا الأندلس وبقيت لغتهم

لم تسفر الفتوح الاسلامية في الغرب عن نتائج متماثلة ، فهي قد انتهت في شمال افريقية الى أن تخلق شعوبا عربية اسلامية في مصر والمغرب ، ما تزال حتى يومنا تحتفظ بكيانها وعروبتها واسلامها ، ولكنها لم تنته الى مثل هذه النتيجة في صقلية واسبانيا .

أجل لقد أقام جزء من أمة عربية اسلامية في صقلية وعاش زهاء قرنين ونصف قرن (٨٣٠ - ١٠٧٢ م) وأقام جزء من أمة عربية اسلامية في اسبانيا عاش زهاء ثمانية قرون (٧١١ - ١٤٩٢) ولكن صقلية ، واسبانيا لم تلبثا اخر الأمر أن عادتا أرضا أوربية نصرانية ، وقد دثرت حضارة الاسلام في صقلية ، ولم يبق منها حتى اليوم سوى آثار ضئيلة ، ولكن الأمر يختلف بالنسبة لاسبانيا . فقد تركت الحضارة الأندلسية في شبه الجزيرة الأسبانية آثارا عميقة ، ما تزال تمثل حتى اليوم قوة وضاءة ، في حياة الأمة الأسبانية ، وفي تكوينها العنصري والثقافي ، وفي تقاليدها ولغتها . ويرجع ذلك أولا الى ذلك المدى الزمني الطويل الذي عاشه الشعبان - الاندلسي والاسباني - معا في شبه الجزيرة ، وثانيا الى ذلك الامتزاج القوي الذي تميزت به حياتها المشتركة ، والى التفاعل الحضاري العميق بين حضارتين عاشتا في أرض واحدة ، وكانت احداهما وهي الحضارة الاندلسية تمتاز بتفوقها المادي والأدبي ، على الحضارة الاخرى .

ربي العدد ٢٧٤ سبتمبر - أيلول ١٩٨١ م .

وانك لتشعر بعمق هذه المؤثرات الحضارية بنوع خاص في جنوبي اسبانيا ، في تلك الربوع التي تضمها ولايات الاندلس القديمة ، والتي تقع فيها بين نهر الوادى الكبير والبحر المتوسط ، ذلك أن هذه المنطقة كانت مثوى العناصر المستقرة من الحضارة الاندلسية ، وقد بقيت تحت حكم المسلمين زهاء ثمانية قرون ، ولم تخرج من أيديهم الا في نهاية القرن الخامس عشر الميلادى . وحتى بعد أن سقطت غرناطة ، آخر القواعد الاندلسية في أيدي الأسبان ، في سنة ١٤٩٢ م ، فان المؤثرات الحضارية الأندلسية ، بقيت تعمل عملها عصورا أخرى ، على أيدي بقايا الشعب الاندلسي المغلوب ، الذي عرف عندئذ بالموريسكيين أو العرب المتنصرين .

المؤثرات الحضارية

ولقد شهدنا في الواقع بأنفسنا صدق هذه الخاصية،شهدنا بأعيننا وأحاسيسنا خلال رحلاتنا العديدة الى اسبانيا ، وتجوالنا في سائر نواحيها ومدنها الاندلسية ، بل ونواحيها الاسبانية الأصيلة ، شهدنا من أحوال الأمة الأسبانية ، ومن مظاهر حياتها المادية والمعنوية ومن تقاليدها وعاداتها ، كثيرا مما يدلى بعمق هذه المؤثرات التي خلفتها الحضارة الأندلسية الذاهبة ، في وريثة أرضها وحضارتها الأمة الاسبانية .

واذا كنا نلمح المؤثرات الحضارية الأندلسية بارزة في التقاليد والعادات الاسبانية ، فاننا من وجهة أخرى نعرف أن اللغة الاسبانية ، لم تكن بعيدة عن هذا التأثير الحضاري العميق ، وقد تطورت اللغة القشتالية (الاسبانية) عن أصولها الرومانية أو (الرومانثى **romance**) . أو اللاتينية المحلية ، وهي اللغة التي كانت سائدة في العصور الوسطى بين النصارى الاسبان ، سواء في الشمال ، أو بين النصارى المعاهدين (المستعربين) وهم الأقليات النصرانية الاسبانية ، التي كانت تعيش في المدن الاندلسية الاسلامية ، ولا سيما في القواعد

الكبرى مثل قرطبة وبلنسية ومرسية وجيان واشبيلية . وقد كان من الطبيعي أن يقع التفاعل اللغوي بين العربية ، وهي لغة الأكثرية المسلمة ، وبين الرومانشي ، وهي لغة الاقلية النصرانية،وأن ينقل المسلمون بعض الالفاظ اللاتينية الى لغة التخاطب فيما بينهم ، وأن ينقل النصارى المعاهدون كثيرا من الالفاظ العربية الى لغتهم الرومانشي . وقد ظل هذا التأثير ينمو ويشتد ولا سيما بالنسبة للرومانشي أو اللغة القشتالية فيما بعد . وهو ما يرجع بلا ريب الى قوة المؤثرات الحضارية الاندلسية المتفوقة ، والى حاجة اللغة القشتالية الى الاشتقاق من لغة أصحاب هذه الحضارة للتعبير عن كثير من الأشياء والمظاهر التي نقلت عنهم ، وذلك سواء في النظم الادارية أو العلوم أو الصناعة أو الزراعة أو العمارة أو غيرها .

تأثيرات لغوية

وقد ترك هذا الاشتقاق من العربية أثره القوي في اللغة القشتالية أي الاسبانية . ونحن نعرف أن اللغة الاسبانية هي اللغة اللاتينية الوحيدة التي توجد بين حروفها (الخاء) j. ge. gi ، و (الثاء) z. ce. ci وتمثل في كلمات بكثرة واضحة ، وذلك على غرار ما هو حادث في اللغة العربية . وتوجد في اللغة الاسبانية كلمات كثيرة جدا ترجع الى اصول عربية . ومن القواعد المسلم بها أن كل كلمة اسبانية تبدأ « بأل Al » هي عربية الأصل تبدأ بأداة التعريف العربية . ونحن نقدم الى القارىء فيما يلي نماذج من الكلمات الاسبانية التي ترجع الى أصول عربية واضحة ، ومنها ما هو رسم فقط للكلمة العربية بالحروف اللاتينية :

منها في التعابير النظامية :

القاضي العمدة Alcalde المشرف Almojarife

الفارس حامل العلم	Alferez
الامير	Alamin
الوزير	Alguacil

ومنها في أسماء الزهر والمحاصيل

الزهر	Alzahar	الزيتون	Aceituna
الريحان	Arravan	الأرز	Arroz
الياسمين	Jazmines	السكر	Azucar
الزيت	Aceite		

ومنها في أسماء أصحاب الحرف :

البناء	Albanil	الحجام	Alfageme
البيطار	Albeitar	الفخار	Alferero

ومنها كلمات أخرى منوعة :

القنطرة	Alcantra	المخزن	Almacen
البحيرة	Albufera	الخزانة	Alacena
القصر	Alcazar	الجوهر	Aljofar
الساقية	Acequia	الفندق	Alhondiga
البركة	Alberca	المسجد	Mezquita
الجب	Aljibe	القنديل	Candil
القرية	Alqueria	الشرفة	Axarfe
الربض	Arrabal	الشراب	Axarbe

وبعد فهذه نماذج قليلة من الكلمات الاسبانية المشتقة من أصول عربية ، منها ماهو منقول ـ كما ترى ـ عن أصله العربي بالأحرف اللاتينية . ويوجد في اللغة الاسبانية مئات بل آلاف من هذه الكلمات . ويكفي أن تعلم أن هذه الكلمات الاسبانية ذات الأصول العربية ، قد جمعت في معاجم خاصة ، ومنها معجم للعلامة المستشرق رينهارت دوزى ، ومعجم اخر للمستشرق الاسباني اجيلاث ، وفي ذلك ما يدل دلالة واضحة على مبلغ الآثار العميقة التي خلفتها اللغة العربية في اللغة الاسبانية ، منذ بدأت في صورة اللغة الرومانية (الرومانثي) في العصور الوسطى ، الى أن تطورت الى القشتالية أو الاسبانية الحديثة .

فاذا أضفنا الى هذه المؤثرات اللغوية البارزة ما نشهده اليوم حين التجوال في ربوع الاندلس من تماثل عجيب بين العادات والتقاليد الاسبانية ، وبين العادات والتقاليد العربية والشرقية ، سواء في الحياة المنزلية ، أو التصرفات الخارجية ، وسواء في تبادل التحية والحفاوة ، وفي آداب الطعام ، وفي ابداء الاستحسان ، وفي الوان المرح ، ولا سيما الرقص والغناء ، ادركنا عمق هذه الآثار الحضارية التي خلفها الاندلسيون في الأمة الأسبانية .

وقد اشاد البحث الأسباني الحديث بأهمية هذه المؤثرات الحضارية ، المادية والمعنوية التي ورثتها الأمة الاسبانية . وكما وضعت المعاجم الخاصة لتبيان الكلمات الاسبانية ذات الأصول العربية ، فكذلك تناول هذه المؤثرات الحضارية بالشرح والتحليل المقنع كتاب عظام مثل أندريس والتاميرا»وكونثالث بالنشيا وغيرهم . ويبدى الأستاذ بلنشيا بنوع خاص في رسالته المشهورة (تأثير الحضارة العربية) ، ابداعا في الشرح ، وقوة في التدليل ، وحماسة في العرض تضفي على بحثه كثيرا من الاصالة والروعة . ويقول لنا بالاخص فيما يتعلق بتأثير اللغة ، إن اللغة العربية تُمثل في الاسبانية في مصطلحات الجغرافيا والنظم والفنون ، واسماء الحيوان والنبات ، والحرف ، والالوان ، والادوات المنزلية وغيرها . وهو يجمل هذا التأثير في تلك العبارة الجامعة : « ان اللغة الاسبانية

تعرض بلا ريب للسائح الأمثل ، ذلك الأثر الخالد ، الذي تركته الحضارة العربية في أرضنا ».

وكفى بشهادة هذا العلامة تقديرا للأثر العظيم الذي خلفته الحضارة الأندلسية واللغة العربية في حضارة شبه الجزيرة الاسبانية وفي لغتها



لماذا تهمل الجامعات تاريخ الأندلس؟

تيسر لي خلال وجودي بالمغرب ، كتاب من نوع خاص عنوانه (محنة الموريسكوس في اسبانيا) (سنة ١٩٨٠) لمؤلفه الاستاذ محمد قشتيليو . والموريسكوس هم بقية الجماعة الاندلسية ، الذين ارغموا على التنصر ثمنا لبقائهم في الوطن القديم ، وأطلق الاسبان عليهم هذا الاسم **Los Moriscos** اعنى (العرب الأصاغر) ونفضل نحن أن نسميهم الموريسكيين او (العرب المتنصرين) . ومؤلف هذا الكتاب حسبما يخبرنا في كتابه هو مغربي من مدينة القصر الكبير ومن أصل أندلسي او بعبارة اخرى من اصل موريسكي حسبما يدل على ذلك اسمه . وقد كانت ثغور المغرب الشمالية ، ولاسيما مدينة تطوان ، والمناطق القريبة منها جنوبا وغربا حتى القصر الكبير وغيره ، منزل أعداد كبيرة من المهاجرين الاندلسين ، قبل سقوط غرناطة النهائى في يد الأسبان في سنة ١٤٩٤ ، اوبعده حينما تحولت بقايا الجماعات الأندلسية ، بعد التنصر

العربي العدد ٢٧٧ ديسمبر ـ كانون الاول ١٩٨١ م.

المفروض الى طائفة المورسكيين . وقد تلقى المؤلف في مدريد تربية اسبانية ، ونحن نعرف انه مازال حتى اليوم في مدينة تطوان ، وفي منطقتها ، عدد كبير من الاسر الموريسكية المحترمة ، ومنها الكثير ممن لايزالون يحملون اسماءهم الموريسكية القديمة ، مثل مليفة ومدينة ، ومرثين ، ومراريش (موراليس) والطريس ، وبرمنجو ، ومرشيتة وقشتيليو ، وركينة ، وراغون وغيرها

حدث أدبي وتاريخي مهم

ويقدم الينا الاستاذ قشتيليو في كتابه عرضا وافيا لحياة الجماعات الموريسكية ، وماتوالى عليها منذ سقوط غرناطة في سنة١٤٩٢ حتى نفيها النهائى من اسبانيا في سنة ١٦١٩ من ضروب الاضطهاد والمطاردات والمحن المروعة . ويشرح لنا كذلك موقف المدجنين الاندلسيين في شرقي الاندلس ، وهم الذين سبقوا الموريسكيين في تحديد اوضاعهم مع الملوك النصارى ، عقب سقوط اوطانهم في ايدى الاسبان ، وكانوا لظروفهم واعتماد النبلاء والسادة على جهودهم وأعمالهم في الزراعة والصناعة ، اسعد حظا واقل شقاء من الموريسكيين في منطقة غرناطة . وهو يعتمد قبل كل شيء على المصادر الاسبانية ، ولاسيما (مارمول) فيماكتبه عن ثورة الموريسكيين الكبرى ، وفلوريثيو خانير في كتابه (الوضع الاجتماعي للموريسكيين) ، وهو ينقل الينا معظم الاسماء التاريخية والجغرافية بصورها الاسبانية ، ولايقدم الينا منها سوي القليل بأسمائها العربية ، ويقدم الينا كتابا في اسلوب متواضع ولكنه مؤثر بالرغم من ذلك ، لروعة الأحداث والآلام التي يقصها علينا .

ومع ذلك فان صدور هذا الكتاب في موضوعه ، يعتبر حدثا أدبيا وتاريخيا . فانه لم يصدر في هذا الموضوع باللغة العربية في العصر الأخير سوى كتابي « نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين » منذ نحو ثلاثين عاما وظهرت طبعته الثالثة في سنة ١٩٦٦ ، والمصادر الاسبانيةهي وحدها عمدتنا في هذا

الموضوع ، لانه بالرغم من كثرة ماكتب بالعربية عن تاريخ الاندلس ، وعن آدابها وحضارتها ، فانه لم يكتب عن تاريخ الموريسكيين سوى القليل ، وهو عبارة عن شذور اوردها الينا المقرى في كتاب (ازهار الرياض في اخبار عياض) وعن فصل كتبه محمد بن عبد الرفيع الأندلسى الموريسكى عن احوال الموريسكيين ضمن مخطوط بالمكتبة الكتانية (مكتبة الرباط العامة) عنوانه : (الانوار النبوية في آباء خير البرية) . واما المؤرخون الاسبان فانهم تتبعوا تاريخ الموريسكيين ، منذ سقوط غرناطة حتى نهايته بصدور قرار النفى ، ومن بعد ذلك في مؤلفات عديدة متوالية تاريخية ووصفية ونقدية . وقد كانت مأساة الموريسكيين تجرى تحت اعينهم تباعا ، ولديهم كل مايريدون الوقوف عليه من الاحداث والوثائق والقرارات الملكية . ومن ثم فانه يوجد لدينا كل مايجب الرجوع اليه من مختلف المصادر ومنها مصادر كثيرة تسبغ عطفها على الموريسكيين ، وتاييدها لقضيتهم ، ونقد السياسة الاسبانية في اضطهاهم ومطاردتهم ، وتشيد بجميل خلالهم وبراعتهم بالرغم من محنهم المتوالية . ومن ثم فان كتابا يقدم الينا قصة الموريسكيين ملخصة عن المصادر الاسبانية ، يعتبر تصويرا حسنا لأدوارها واسبابها ونتائجها

صور رائعة . . لكن !

ولقد قلنا ان صدور هذا الكتاب يعتبر حدثا ادبيا وتاريخيا ، لانه يعالج موضوعا اندلسيا قلما عولج بالعربية . وهذا هو الامر الذي نريد ان نلفت اليه النظر . فان تاريخ الاندلس ، وجغرافيتها وادابها وجمال مدنها ، ومحاسن اهلها ، وحضارة الاندلس ، وروائع علومها وادابها : كل هذة قد لقيت من الاقلام العربية اعظم الجهود ، وعولجت بالعرض والدرس على اوسع نطاق ، وفي سائر العصور ، ولكن الموضوع الجوهرى ، وهو موضوع سقوط الاندلس ، لم يلتفت اليه البحث ، ولم تتناوله الاقلام والبحوث الغربية بناية

صورة جدية ، وكذلك لم تتناوله الأقلام العربية باية صورة وافية ، وهذاما يدعو الى أشد الأسف . فكثيرا ما نتمثل بمحنة الاندلس ونهايتها المحزنة ، ولكنا لم نبذل اية جهود للبحث عن اسباب هذه النهاية ، التي تعتبر اعظم مآسى التاريخ الاسلامى ومآسى التاريخ الحديث

لقد عرض علينا المقرى في (نفح الطيب) صورا من اروع وامتع الصور عن جغرافية الاندلس ، وعن حواضرها التالدة ، قرطبة واشبيلية وبلنسية ، ومرسية ، وطليطلة ، وغرناطة وغيرها ، وعن مروجها وحدائقها ، وعن اهلها وشعوبها ومحاسنهم . وعن ادابها وشعرها ، حتى ليكاد الانسان يعتقد ان المقري قد عاش في تلك الوديان والمروج والحواضر العظيمة ، والامر بالعكس فان المقرى بالرغم من كونه قد عاش بالمغرب ، في الضفة الأخرى من بحر الاندلس ، لم ير الاندلس ، ولم يحاول ان يرها ، ولم يكن قد بقي من جنة الاندلس عندئذ سوى الذكريات المؤلمة ، وسوى العرب المتنصرين (الموريسكيين) يعيشون محنتهم الغامرة ، ولم يحاول المقرى ،بعد ان حدثنا طويلا عن جنة الاندلس ، ان يحدثنا عن اسباب محنتها وسقوطها . ولم يحاول اى كاتب اومؤرخ اخر ممن كتبوا عن الاندلس وعن تاريخها العظيم ، ان يقترب من هذا البحث . واما الذين كتبوا عن تاريخ الاندلس من كتاب الغرب امثال كوندى ودوزى وسكوت ولاين بول ، وغيرهم ، فانهم تناولوا هذا الموضوع بصفة عابرة ، ولم يحدثنا احد منهم عن اسباب سقوط الاندلس بصورة واضحة ومقنعة . واما نحن الكتاب المشارقة ، فلم نحاول ان نعالج هذا الموضوع باية صورة ومازالت جهودنا تقف عند كتابة التاريخ الأندلسى والآداب الاندلسية .

وانه لمن المؤسف ألايوجد في اية جامعة من جامعاتنا كرسى خاص لتاريخ الاندلس وحضارتها ، وان دراسة هذا الفرع توضع دائما تحت كرسى التاريخ الاسلامى اوتحت كرسى تاريخ العصور الوسطى . ولعل هذا القصور في

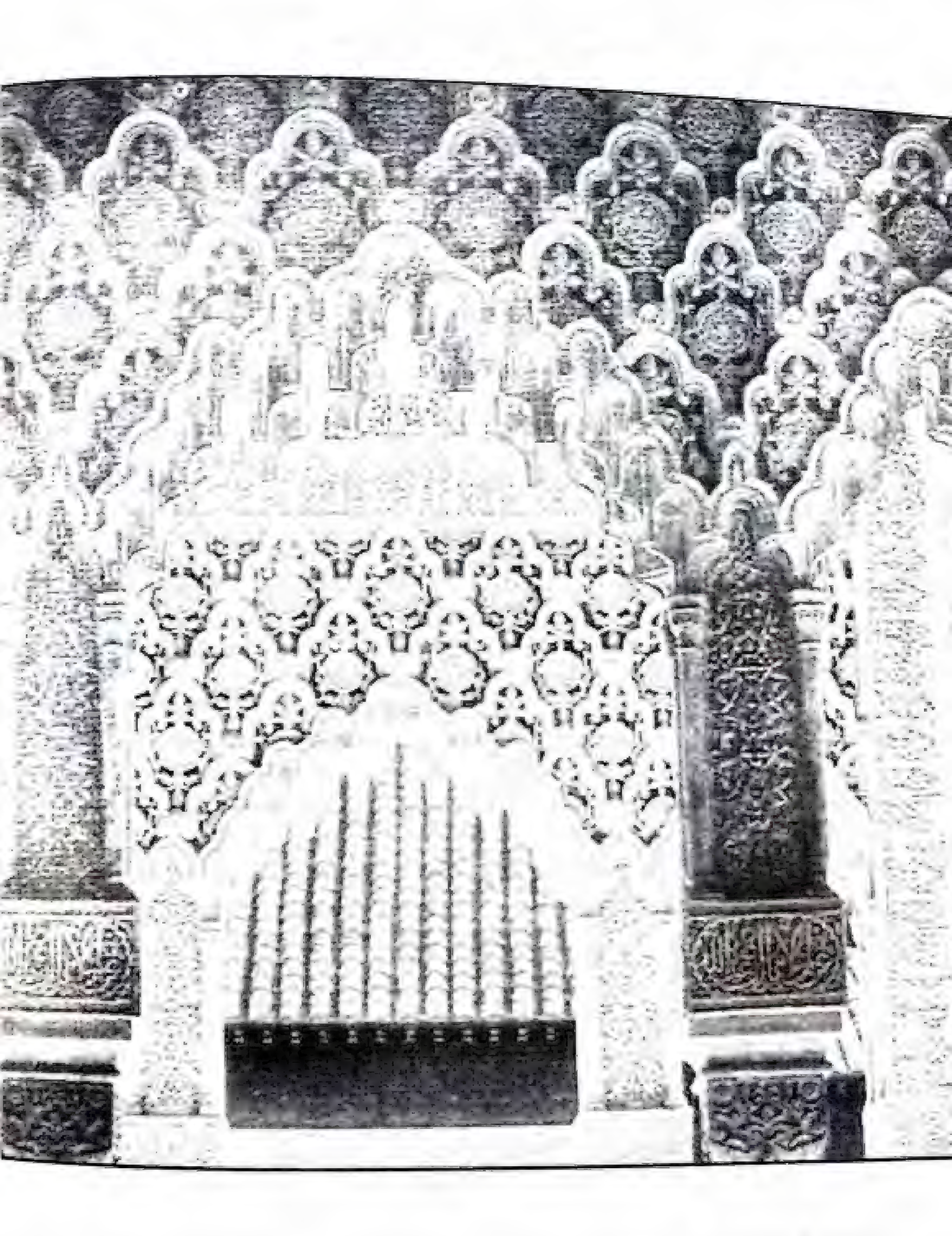
العناية بتاريخ الاندلس وحضارتها ، لايمكن ان يؤدى الى تهيئة اكابر العلماء المختصين في تاريخ الإندلس ، الذين يمكن ان يعهد اليهم بالدراسات العميقة المتخصصة ، التي يمكن ان نستخرج فى ظلها النتائج والحقائق العلمية المرغوبة .

دراسة عوامل السقوط

ان مثل هذا البحث في عوامل سقوط الاندلس وظروفها ، جدير بان يملأ كتبا ، وان يستغرق اعواما ، وهو موضوع غزير المادة ، غنى بالأصول والتفاصيل . والمهم هو أن تبدأ المحاولة ، والمراجع لدينا وفيرة بين مطبوع ومخطوط ، ووثائق تاريخية لانهاية لها ، تشمل سائر عصور التاريخ الاندلسي .

ولما كانت هذه المهمة العلمية الخطيرة تفوق طاقة المجهود الشخصى ، فانه من الممكن ان تندب لها لجنة خاصة من العلماء المتخصصين في تاريخ المغرب والاندلس ، تعمل تحت رعاية احدى الهيئات العلمية الجامعية تتولى امدادها بالاعتمادات والبرامج اللازمة،وتنظيم رحلات اعضائها الى المغرب واسبانيا للقيام هنالك ببحوثها ودراساتها العلمية والطبوغرافية .

ويجب أن يكون لهذه اللجنة طابع دولى عربى اسلامى ، وان تقوم بمهمتها العلمية ، لحساب الدول العربية والاسلامية ، التي كانت الاندلس المسلمة خير ممثل لها لدى الامم الغربية ، والتي كانت حضارتها الزاهرة اغزر مستقى لأمم الغرب ، وعالم العصور الوسطى . ومازالت امم الغرب تشيد حتى اليوم بدينها العلمى والحضارى للحضارة الاندلسية ، ومازالت اسماء ابن زهر وابن رشد ، وابن طفيل وغيرهم من اقطاب الحضارة والعلوم الاندلسية تثير لديهم اعظم الاجلال والتقدير .



الفصل الرابع

إنجازات حضارية



علماء الزراعة الأندلسيّون

إن تراث الآداب العربية ، غنى بكنوزه العلمية ، كما هو غني بكنوزه الأدبية . واذا كانت كتب الطب والفلسفة والكيمياء والرياضة والفلك العربية ، قد اشتهرت من بين هذه الكنوز العلمية بنوع خاص ، بنفاستها وطرافتها خلال العصور الوسطى ، فإن كتب النبات والزراعة ، قد حظيت كذلك بكثير من التقدير والإكبار ، لأنها كانت تتسم فى تلك العصور بطابع علمي لم يكن معروفا من قبل ، بل هي ما زالت حتى اليوم ، تحتفظ بكثير من طرافتها وقيمتها العلمية .

نبوغ في الزراعة

ومما هو جدير بالذكر أن معظم علماء النبات والزراعة المسلمين ، قد نبغوا في الأندلس ، وأن الزراعة ، لم تصل في اى بلد آخر في العالم الاسلامي ، بل في

العربي العدد ١٤٤ نوفمبر - تشرين الثاني ١٩٧٠م

سائر العالم المعروف يومئذ ، الى ما وصلت اليه في الأندلس من التقدم والازدهار . ويرجع ذلك أولا الى طبيعة شبه الجزيرة الأسبانية ، وكثرة انهارها ووديانها ، وبقاعها الخصبة وتنوع أقاليمها وتربتها ، وثانيا الى نبوغ أهل الأندلس في الفنون الزراعية ، وبراعتهم المثالية في فلاحة الأرض وغرسها واستخراج ثمراتها .

أجل ، كان أهل الأندلس من أنبغ الشعوب في فلاحة الأرض وتربية الماشية وغرس الحدائق وتنظيم طرق الرى والصرف ، ومعرفة أحوال الجو ، وكل ما يتعلق بفنون الزراعة وخواص النبات . وكانت مزارعهم وحدائقهم مضرب الأمثال في الجودة والنماء . وقد نقل العرب من المشرق وشمال افريقية الى اسبانيا كثيرا من المحاصيل والأشجار كالقطن والأرز وقصب السكر والزعفران والنخيل الذى ما زالت تزدان به الحدائق والمدن الأسبانية الجنوبية ، والزيتون الذى غدا فيما بعد ، وحتى اليوم ، أعظم محاصيل اسبانيا ، وكانت بسائط شبه الجزيرة الأسبانية في أيامهم رياضا نضرة ، وكانت حقول القمح وغابات الزيتون وحدائق البرتقال والرمان والكروم ، من أبدع ما ترى العين في وديان الأندلس ومروجها ، وأما نبوغ مسلمي الاندلس في تنظيم وسائل الرى والصرف واستجلاب المياه وتوزيعها بالطرق الفنية ، فما زالت تشهد به آثارهم الباقية الى الآن في وديان الأندلس ، من القناطر والجداول الدارسة ، وما زالت ثمة مناطق كثيرة ولا سيما في احواز بلنسية ومرسية ، تقوم في زراعاتها على مشاريع الرى الأندلسية القديمة . وكان لأهل الأندلس شهرة خاصة في غرس الحدائق وتنظيمها ، وقد كانت حدائق الرُصافة والزهراء والزاهرة وطليطلة واشبيلية بدائع تشهد لهم بوفرة البراعة وحسن الذوق ، وكانت روعتها مستقى لخيال الشعراء والكتاب ، وما زالت هذه البراعة حتى اليوم ، عَلَما على جمال الحدائق الأندلسية .

ويجب ألا ننسى أن الفنون الزراعية ، انتقلت على يد الرواد المسلمين ، وعلى يد المحلات الاسلامية المتعددة التى قامت خلال القرن العاشر الميلادى في جنوبى فرنسا ، وفي ليجوريا وجنوبى سويسرة ، الى شعوب هذه الأقطار . ويقال إن القمح الأسود الذى يعتبر اليوم من أهم محاصيل فرنسا الجنوبية إنما هو أثر من آثار اولئك الرواد ، فهم الذين نقلوا بذوره الى فرنسا ، وهم ايضا الذين نقلوا فسائل النخيل الذى ما زالت تزدان به شواطئ الريفييرا .

واذا كان علماء النبات الأندلسيون ، هم أعظم من نبغ في هذا الميدان ، في العالم الاسلامي - ويكفى أن نذكر في ذلك أبا العباس بن الرومية الأشبيلى المتوفى سنة ٦٣٧ هـ (١٢٣٩ م) وتلميذه ابن البيطار المالقي المتوفى سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) وهما يعتبران أعظم علماء النبات والعشابين بعد ديسقوريدس اليونانى - فان علماء الزراعة المسلمين ، هم كذلك أعظم الرواد في هذا الميدان في العصور الوسطى .

ولدينا من هؤلاء الرواد عدة من العلماء الأندلسين ، الذين انتهت الينا مؤلفاتهم في هذا الميدان . ونستطيع أن نذكر من هؤلاء اربعة ، من أنبغهم « ابو عبدالله بن بصال الطليطلي ، وابن مالك الطغنرى الغرناطى ، وابن العوام الأشبيلي وابن لونكو القرطبي .

ولسنا نعرف الكثير عن حياة اولئك العلماء الزراعيين ، وإن كانت كتبهم التى انتهت الينا تشهد بنبوغهم الفائق في هذا الميدان . فأما ابن بصال فقد عاش في طليطلة في عصر بنى ذى النون ، ملوكها من الطوائف ، في أواسط القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) وكان يعنى بالاشراف على حدائق بنى ذى النون الفخمة التى كانت « بالمنية » الشهيرة التى أنشأوها خارج طليطلة على

منحنى نهر التاجُه . وقد اشتهر ابن بصال يومئذ بتجاربه العلمية الناجحة في توليد الغراس ، ومكافحة الآفات الزراعية ، وكتابه «الفلاحة» الذى انتهى الينا ، والذى نشر بالمغرب من عهد غريب ، يشهد ببراعته وتفوقه في هذا الميدان . وهو يتناول فيه ذكر المياه والأرضين ، ومختلف أصناف النباتات وطبائعها وعلاجها من الآفات .

ولما سقطت طليطلة في ايدي الأسبان في سنة ٤٧٨هـ (١٠٨٥م) غادرها ابن بصال الى اشبيلية وهنالك عهد اليه بالإشراف على بساتين بنى عباد ، وكانت تنافس في روعتها بساتين بنى ذى النون .

واما الطغنرى ، فهو ابو عبدالله محمد بن مالك وهو غرناطى ، من قرية طغنر الواقعة شمال غربي غرناطة ، وقد عاش بمملكة غرناطة في اواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، وتتلمذ على ابن بصّال ، وأخذ عنه كثيرا من علمه وتجاربه ، ووضع كتابا في الفلاحة سماه « زهر البستان ونزهة الأذهان » ، وهو لا يزال مخطوطا لم ينشر .

وأما ابن لونكو ، فقد عاش في قرطبة في النصف الثاني من القرن الخامس الهجرى وكان ايضا من تلاميذ تلك المدرسة الزراعية الباهرة ، ولكنا لا نعرف شيئا عن حياته او مؤلفاته . وقد توفي سنة ٤٩٨هـ (١١٠٤م) .

فن الفلاحة

واما ابن العوام الأشبيلي ، فهو حسبما يرد ذكر اسمه في كتابه ، ابو زكريا يحي بن محمد بن احمد بن العوام الأشبيلي . ولكنا لا نعرف كذلك سوى القليل عن حياته ونشأته ، بل لا نعرف متى عاش بالضبط . وكل ما نعرفه انه عاش في اشبيلية في اواخر القرن الثاني عشر الميلادى ، في ذلك العصر الذى مالت فيه

شمس الأندلس الى الغروب ، بعد أن بلغت ذروة التقدم الفكرى والحضارى . وكانت الفنون الزراعية تزدهر بنوع خاص في هذه المنطقة ، منطقة الوادى الكبير ، وهى ما زالت حتى اليوم تمتاز بوفرة خصبها ونضرتها . ودرس ابن العوام الفنون الزراعية في مصنفات من تقدمه منذ العصر القديم واعتمد حسبما يذكر في مقدمته على كتاب ابى عمر بن حجاج المسمى « بالمقنع » وكتاب الفلاحة لابن بصال ، وكتاب ابن خير الأشبيلى وكتاب « زهر البستان » للطغنرى ،

وربما اشتغل إبن العوام بالزراعة ، ومارسها بصورة عملية . بيد انه ليس هنالك ما يدل على أنه قام مثل سلفه ابن بصال بتجارب علمية وعملية في الغراس والرى ، وفي توليد النباتات ومعالجة آفاتها ، ودراسة التربة ومعدن الأرض . وعلى اى حال فان ابن العوام ، يقدم الينا في مؤلفه الضخم - « كتاب الفلاحة » - عرضا مستفيضا للفنون الزراعية مشتقا من عيون الكتب المتقدمة .

وهو يعتبر الزراعة فنا ، ويقول لنا إن من يريد أن يتخذ هذا الفن صنعة يصل بها الى معاشه ، ويستعين بها على قوته وقوت عياله واهله ، فانه يجد في كتابه حاجته ويبلغ فيه ارادته . وأما فلاحة الأرض ، فان ابن العوام يوضح لنا معناها وموضوعها في مقدمته على النحو الآتي :

« ومعنى فلاحة الأرض هو اصلاحها ، وغراسة الأشجار فيها وتركيب ما يصلحه التركيب منها ، وزراعة الحبوب المعتاد زراعتها فيها ، واصلاح ذلك ، وامداده بما ينفعه ويجوده ، وعلاج ذلك بما يدفع الآفات عنه ، ومعرفة جيد الأرض ووسطها والدون منها ، ومعرفة ما يصلح أن يزرع او يغرس في كل نوع منها ، من الشجر والحبوب والخضر ، واختيار النوع الجيد من ذلك ، ومعرفة الوقت المختص بزراعة كل صنف فيها ، وكيفية العمل في الزراعة ، وفي الغراسة ، ومعرفة أنواع المياه التى تصلح للسقى ، ومعرفة الزبول وأصلحها ، وكيفية العمل في عمارة الأرض قبل زراعتها وبعد غرسها » .

ويقسم ابن العوام مؤلفه الى قسمين كبيرين ، يشتملان على خمسة وثلاثين بابا . ويتناول الأول معرفة اختيار الأراضي والأسمدة والمياه ، وصفة العمل في الغراسة والتركيب ، وما يتصل بذلك . والثاني يتضمن الزراعة وما اليها ، وفلاحة الحيوان ، او بعبارة اخرى ما يتعلق بتربية الماشية وعلاجها .

وينطوي تحت القسم الأول ، عدد من المسائل الزراعية العامة ، مثل دراسة تربة الأرض ، والوقوف على معدنها ، واختيار ما يصلح أن يزرع في كل نوع منها ، وتلحق بذلك دراسة الأسمدة وتجهيزها ، وبيان منافعها للأرض والشجر ، وسقي الأشجار والخضر ، ثم انشاء البساتين ، وتركيب غراسة الأشجار فيها على احسن وجه ، واختيار الأشجار وانواع الثمار ، وأوقات غراسها وتطعيم الأشجار وتلقيحها ، ثم علاجها من الآفات واختزان الحبوب والفواكه الغضة واليابسة وغير ذلك . وقد اندفع ابن العوام في هذا القسم المتعلق بالبساتين وغراستها ، بنظريات سلفه واستاذه ابن بصّال ، وتجاربه العديدة الناجحة في ذلك .

ويتناول القسم الثاني من مؤلف ابن العوام تربية الماشية وعلاجها ، ودراسة صفاتها التشريحية ، ومعالجة كل عضو من اعضائها ، وكل مرض من امراضها . ويخصص خلال هذه الدراسة فصلا عن الخيل ، وصفاتها وكيفية تربيتها ، وكيفية ركوبها ، بسلاح او بغيره ثم يتحدث بعد ذلك عن الدواجن وتربيتها ، والعناية بها ، ثم عن النحل والمناحل والخلايا ويبدي في ذلك كله كثيرا من الأستيعاب والدقة والوضوح .

مؤلفان قيمان

وقد لفت مؤلف ابن العوام نظر البحث الحديث ، وقدر له ان يرى الضياء في عصر مبكر ، فنشر في سنة ١٨٠٢ بمدينة مدريد عن نسخته

المخطوطة ، المحفوظة بمكتبة الأسكوريال في مجلدين كبيرين ، وقام على نشره العلامة المستشرق القس يوسف انطونيو بانكيرى وقرنه بترجمة اسبانية . ويشغل النص العربي والترجمة الفا واربعمائة صفحة كبيرة . ومن حسن الحظ أنه نشر حسبما نقدم بمدينة تطوان بالمغرب ، ايضا كتاب «الفلاحة» لابن بصال الطليطلي . وهكذا نجد بين ايدينا مؤلفين من اقيم المؤلفات العربية في فنون الزراعة يحمل كلاهما نفس الاسم .

وانه لما يلفت النظر ، أن هذين المؤلفين ، اللذين كتبا عن فنون الفلاحة في العصور الوسطى ، يمتاز كلاهما بنزعة علمية قوية ، وباستيعاب لمختلف المسائل والفنون الزراعية الحديثة ، وهو اثر من آثار الطابع العلمي الواضح الذى اتخذته الفنون الزراعية على يد علماء الزراعة الأندلسيين .



محكمة المياه ببلنسية

كان من حسن حظى اثناء وجودى بمدينة بلنسية فى شهر مارس سنة ١٩٧٠ ، أن أشهد جلسة « محكمة المياه »

ولهذه المحكمة الشهيرة ، تاريخ حافل ، يتصل أوثق صلة ، بنظم الرى الأندلسية ، والقضاء الاندلسي .

إنها هيئة من أغرب الهيئات القضائية وأقدمها ، تنحصر مهمتها فى معالجة مشاكل الرى ، فى منطقة اندلسية بذاتها ، هى منطقة الحدائق والحقول البلنسية اليانعة ، وهى من اخصب بقاع شرقى الاندلس ، وأغزرها انتاجاً للفاكهة .

أثر قديم

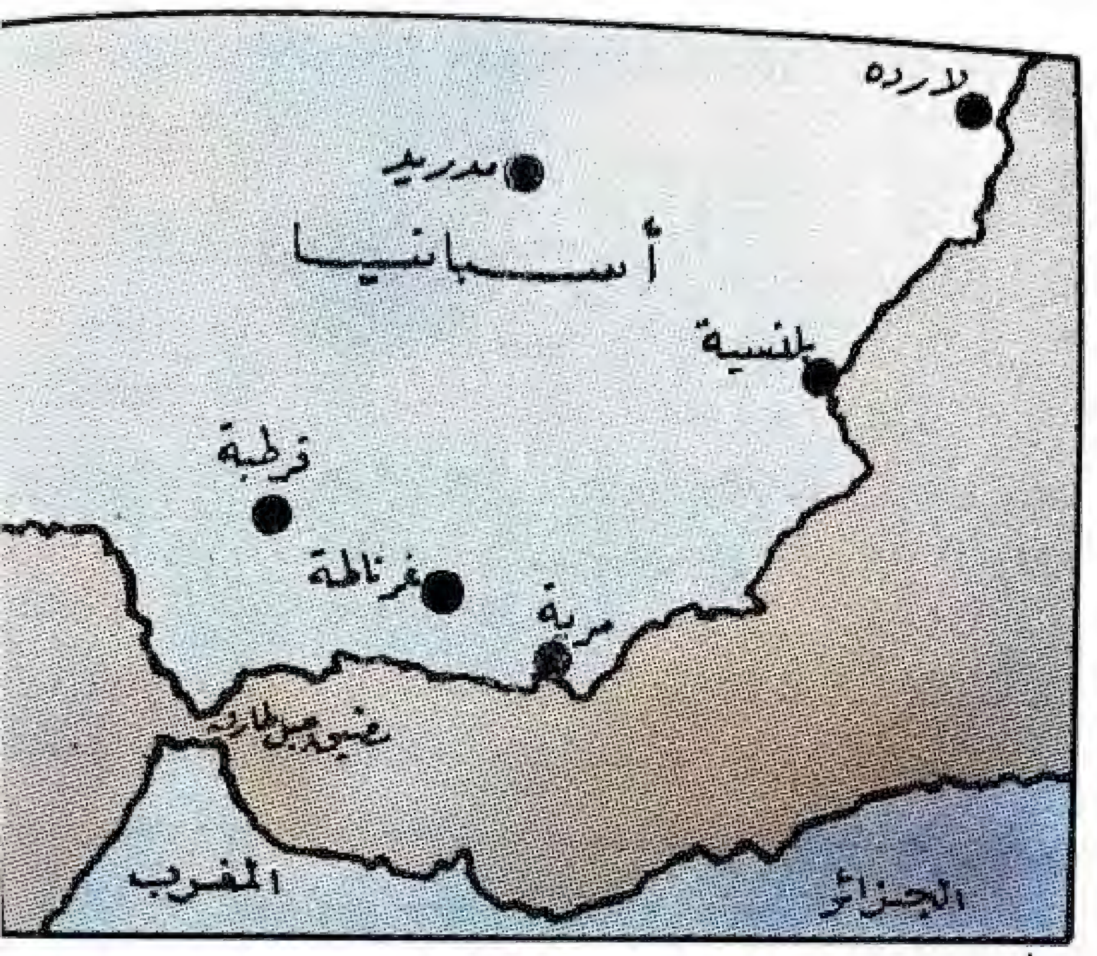
وبالرغم من ان محكمة المياه ، ترجع من الناحية الزمنية ، الى العصر الرومانى ، فانها قد اتخذت على يد مسلمى الاندلس ، منذ نحو الف عام ،

العربى العدد ١٥١ يونيو - حزيران ١٩٧١م .

نظمها الحالية ، وشكلها الحالى ، وكانت خلال العهد الاسلامى ، مثلا فريدا من امثلة العدالة الاسلامية .

واذا لم تكن لدينا وثائق تاريخية ، أو قضائية ، تتعلق بمحكمة المياه ، فانه يوجد لدينا مع ذلك ، ما يدل على وجودها ضمن النظم القضائية الاندلسية ، فقد ذكر لنا كل من ابن حيان ، وابن الخطيب ، عند استعراض تاريخ بلنسية ، ايام الطوائف ، ان الفتيين العامريين ، مظفّر ومبارك كانا قبل توليهما امارة بلنسية ، فى بداية القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) يتوليان وكالة الساقية بالمدينة ، او بعبارة اخرى كانا يتوليان شئون الرى . وهو ما يدل على اهمية مسائل الرى فى منطقة بلنسية فى ذلك العصر ، وعلى انه كانت توجد لتنظيمها ، نظم ادارية أو قضائية ، كانت محكمة المياه بلا ريب احد عناصرها .
ومن جهة اخرى فان التواريخ الاسبانية نفسها ، تقول لنا أن الملك خايمى الاول ملك ارجوان ، حينما افتتح بلنسية سنة ١٢٣٨م ، واصدر لها نظمها وقوانينها الجديدة ، اعجب بمحكمة المياه العربية ، وقرر الابقاء عليها ، بسائر نظمها وامتيازاتها ، التى كانت لها ايام الحكم الاسلامى . وقد استمرت محكمة المياه منذ ذلك التاريخ الى يومنا هذا بنفس أوضاعها ونظمها القديمة .

ومما هو جدير بالذكر ، ان كثيرا من البقاع الزراعية الخصبة ، فى منطقة بلنسية ، مازالت تقوم على طرق الرى والصرف التي كانت لها ايام المسلمين . ومن المعروف الذى لا ريب فيه ، ان الشعب الاندلسي كان من أبرع الشعوب ، فى استغلال الأرض وفنون الزراعة ، وقد حول العرب الاندلس من جدبها ايام القوط ، الى حديقة يانعة ، بما احدثوه فى وديانها من نظم الرى والصرف المبتكرة . وما زالت آثار هذه المنشئات العربية ، توجد فى مناطق كثيرة ، من شبة الجزيرة الاندلسية ، مثل بلنسية والمرية فى الشرق ، ولاردة فى الشمال ، وقرطبة فى الوسط ، وغرناطة فى الجنوب .



خريطة تبين موقع مدينة بلنسية

رأي مخالف

ومن الغريب ان العلامة الاستاذ خوليان ريبرا ، يحاول فى فصل من كتابه Disertaciones Yopusculos (١) أن ينكر فضل العرب فى وضع خطط الرى والصرف البلنسية ، ويقول لنا إنه لا يوجد مايؤيد هذا الرأى ، كما أنه لايوجد مايؤيد أن محكمة المياه البلنسية ، ترجع الى أصل عربى ، ومع ذلك فانه يقول لنا انه عند فتح بلنسية ، امكن اقناع النصارى بأن السكان العرب فى هذه المنطقة هم زراع مهرة ، وانهم وضعوا خطط الرى المدهشة ، ونظموا توزيع المياه ، كما انهم وضعوا الاجراءات الكفيلة بحسم أى نزاع ، ومعاقبة كل مخالف .

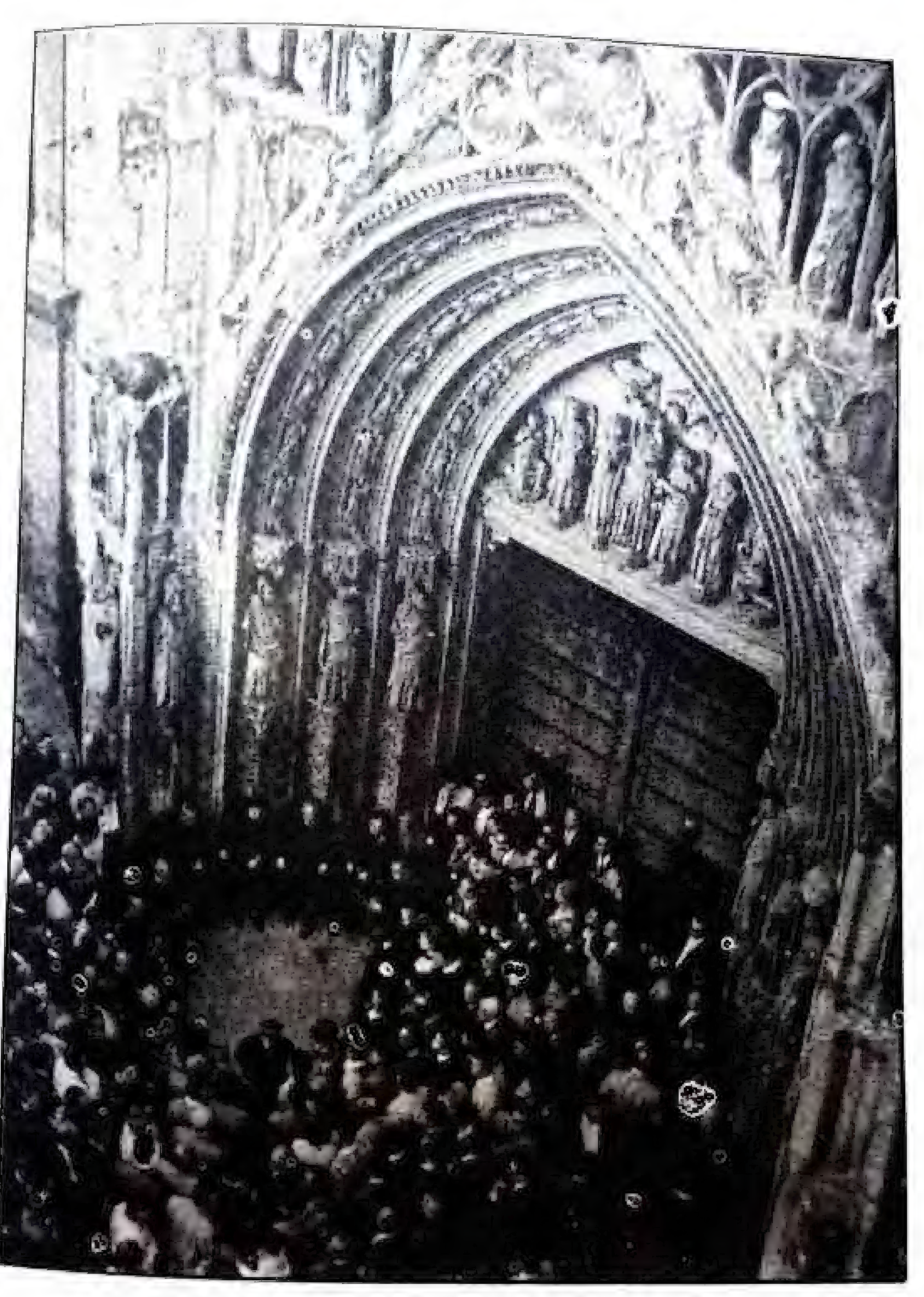
(١) « محاضرات ومقالات »

يقول الاستاذ ريبرا « لقد بالغ المؤرخون المسلمون فى تقدير مزايا هذا النظام . بيد انه لا يوجد مؤرخ عربى واحد لبلنسية يقول كلمة عن انشاء العرب للمساقى ، ولهذا السكوت ذاته معنى واضح ، كما انه لا يوجد بين النظم المشرقية مثيل لنظام محكمة المياه ، ومن ثم فانه لا يوجد ما يبرر نسبة هذا النظام الى العرب . وارجح الظن ان النصارى الفاتحين حينما دخلوا بلنسية ، طبقوا نفس النظم والاجراءات القائمة فى شئون الرى والمساقى » .

هذا ما يقوله الأستاذ ريبرا . وقد رأينا فيما تقدم ، ان هناك من النصوص العربية ، بل والاسبانية ، ما يدحض هذا الرأى الذى يشوبه التحامل . واليك من جهة اخرى ما يقوله ابن بلنسية قاضى محكمة المياه ، الاستاذ خنير بورا ، عن اصل هذه المحكمة ، فى البحث الذى كتبه عنها :

« ان المحكمة بشكلها الذى وصل الينا ، انما هى ميراث من الشعب العربى ، ووفقا لأوثق الروايات فان ذلك كان ايام خلفاء قرطبة العظام ، عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر ، حتى سنة ٩٦٠م حين اتخذت نظامها الذى وصل الينا ولم يتغير » .

هذا ومما يؤيد أصل المحكمة العربى ايضا ، بعض اوضاعها ونظمها الحالية ، فهى مثلا تنعقد كل يوم خميس عند الظهر ، وفى بهو صغير مستدير يقع وراء باب الرسل ، وهو الباب الخلفى لكنيسة بلنسية العظمى . وهذا شأنها منذ سقوط بلنسية ، فى ايدى النصارى سنة ١٢٣٨م اى منذ سبعة قرون ونصف . وتفسير ذلك ان محكمة المياه كانت تنعقد ايام الحكم الاسلامى بالمسجد الجامع ، كباقى الهيئات القضائية الاخرى . فلما سقطت بلنسية ، وحول المسجد الجامع الى كنيسة ، تعذر على الخصوم المسلمين الوصول الى المحكمة ، لتعذر دخولهم الكنيسة . ومن ثم فقد تقرر عقدها خارج الجامع المتحول ليتمكن المسلمون من شهودها الى جانب زملائهم النصارى .



محكمة المياه في بلنسية انها هيئة من أغرب الهيئات القضائية وأقدمها ، وتنحصر مهمتها في معالجة مشاكل الرى .

وكون المحكمة لا تعقد الا يوم الخميس ، هو دليل آخر ، لان يوم الخميس هو نهاية اسبوع العمل عند المسلمين ، مثل يوم السبت عند النصارى ، وهو فى نفس الوقت محترم من النصارى .

هيئة المحكمة كما رأيناها

ولنقدم الآن الى القارىء صورة حية ، عن هيئة المحكمة ، وطريقة عملها ، وذلك حسبها شهدناه بانفسنا .

كان يوم الخميس الثالث من مارس ، ففى الساعة الثانية عشرة بالضبط ، تقدم اعضاء المحكمة الثمانية فاحتلوا كراسيهم التي صفت فى البهو الصغير المكشوف الواقع وراء باب الرسل وهو الباب الخلفي لكنيسة بلنسية العظمى ، الواقع بميدان العذراء ويرأس الهيئة أكبر الأعضاء سنا ، ويمثل الاعضاء الثمانية مناطق الترع والمساقى الثماني التي تتكون منها شبكة الرى لحقول وحدائق بلنسية . وقد كتب فوق كل كرسى اسم المسقى الذى يمثله العضو على النحو الآتى : ترعة مسلاتة ـ ترعة كوارت ـ ترعة بناشير اى فتتال ـ ترعة فابارا ـ ترعة روبيلا ـ وهذه الخمسة تقع فى الجهة اليمنى من نهر توريا وترع تورمس ، ومستالا ، وراسكانيا وتقع فى الجهة اليسرى من النهر . ويقف المحضر امام المحكمة ، وهو يحمل عصا طويلة او حربة لها رأس مزدوج ، ويرتدى القضاة الثمانية فوق ثيابهم القاتمة ، فوق النصف الاعلى ، قمصانا سودا ، دائرة حول الجسم ، ومغلقة على نحو ما يرتدى القسس ، كما يلبسون ياقات بيضاء مقواة .

وقبل انعقاد المحكمة يخرج القسيس من باب الرسل ، ويلقى كلمة يبارك فيها المحكمة ، ويتمنى لها ان تحكم بالعدل والقسطاس ، ثم يرش المكان بالماء المقدس ، ثم يبدأ المحضر بالنداء على اصحاب الشكاوى ، فتبحث بسرعة ، ويقضى فى كل منها وفق ظروفها .

ويعرض على المحكمة مختلف جرائم الرى ، التي ترتكب فى المنطقة ، مثل سرقة المياه وقت انخفاض المساقى ، وهدم الترع والجسور ، وتحويل المياه الى حقل قريب سبق ريه ، او اخذ المياه فى غير الدور المقرر ، او رفع بوابة المياه ، حينما يكون الحق قائما للآخرين فى الرى ، وامثال ذلك . ولكل مالك او منتفع ان يشكو مما يقع من المخالفات ، ولخفير الترعة ان يبلغ السلطات عند وقوع اية مخالفة ، ويدعى المشكو فى حقه الى المثول امام المحكمة فورا ، فى يوم الخميس التالى ، فاذا لم يحضر دعى بعد ذلك مرتين اخريين . واذا تخلف عن الحضور ، يعتبر مرتكبا للذنب المنسوب اليه ، بسائر تفاصيله ، وقضى عليه وفقا لذلك .

وللمتهم أن يدافع عن نفسه . والمرافعات كلها شفوية ، غير مدونة ، وللمحكمة فضلا عن اصدار الاحكام ، وعمل التسويات اللازمة ، ان تقضى بالغرامات على المتنازعين من ذوى النية السيئة . ولهذه المحكمة سلطة واحترام عميق فى نفوس المزارعين .

يقول الاستاذ خنير قاضى المحكمة ما ملخصه « لقد كان الرى فى منطقة الحدائق البلنسية ، يجرى وفقا لقواعد قديمة غير مدونة ، وضعها العرب ، واستمرت سارية مدى عصور . ثم رئى بعد ذلك تدوينها ، لتكسب مزيدا من الاستقرار والضبط ، فدونت فى القرن الثانى عشر ايام الملك فيليب الخامس . وهذه اللوائح نموذج مؤثر ، للبساطة والواقع العملى » .

والخلاصة أن محكمة المياه البلنسية ، إنما هي اثر من الآثار المعنوية الباقية للشعب الاندلسي المجيد ، يذكرنا بما كان لهذا الشعب الذكي البارع ، من قدم راسخ فى مختلف الميادين الحضارية .



المدنيّة الإسلاميّة في الغرب الأوروبي

إن مساهمة المدنية الاسلامية في حضارة الغرب لم تقف عند النواحي العلمية . وإن كانت النواحي العلمية كالطب والكيمياء والعلوم الرياضية هي أبرز هذه المؤثرات .

ذلك أن كثيرا من الباحثين ينوهون قبل كل شيء بمساهمة التفكير الاسلامي في حضارة الغرب في الميادين العلمية ولا يعلقون كبير أهمية على مساهمته في الميدان الأدبي .

ولكنا سنرى مما سنقدمه من عرض موجز لهذا الموضوع ، أن الآداب العربية كان لها أثرها العميق في تطور الأدب الغربي ، وانبا نستطيع أن نتتبع هذا الأثر ليس فقط في أدب العصور الوسطى ، ولكن أيضا في كثير من نواحي الأدب الحديث . وان ما نراه اليوم من اتساع شقة الفارق بين الأدبين ، لايمكن أن يدحض هذه الحقيقة التاريخية التي ألقت عليها بحوث المستشرقين في العصر الأخير أعظم ضوء .

العربي العدد ١٠٠ مارس - آذار ١٩٦٧م

وقد بدأ هذا التأثير مبكرا في اسبانيا ، حيث كان الأدب العربي والأدب القشتالي ، يلتقيان بحكم الجوار المباشر . وفي الوقت الذي وصل فيه أدب اسبانيا المسلمة الى ذروة قوته وروعته ، كان الأدب القشتالي في مراحله الأولى .

ونحن نعرف أن الأدب الأندلسي يمتاز بطابع خاص ، من الابداع والرونق والاشراق . ونعرف أيضا أن كتاب الأندلس وشعراءها قد أضافوا الى بلاغة المشرق ، ضروبا ساحرة من الافتنان في الخيال والتعبير والوصف ، وابراز المعاني الحسية والنفسية الدقيقة ، في اساليب رقيقة مؤثرة ، وهو ما يرجع الى طبيعة جزيرتهم الساحرة ، وحضارتهم الرفيعة ، وما ترتب على ذلك من رقة أمزجتهم وسلامة أذواقهم . وقد كان لهذا الأدب العربي الأندلسي الرفيع ، أثر بارز في آداب شبه الجزيرة الاسبانية .

وكانت المؤثرات الأولى التي لقيت سبيلها الى الأدب القشتالي تقع في ميدان الخيال والقصص . فقد ترجم منذ القرن العاشر الميلادي كثير من القصص والحكايات العربية .

وكانت القصص العربية الذائعة في الشرق ، تنقل الى الأندلس ، وتتلى في قرطبة واشبيلية ، وسائر القواعد الأندلسية الأخرى ، وينقلها النصارى المستعربون الذين يعيشون في قلب المجتمع الاسلامي ، أو ينقلون ملخصاتها الى مواطنيهم في قشتالة ، ومن ثم تنتشر في سائر أنحاء اسبانية النصرانية .

وكانت أهم الآثار القصصية العربية التي ذاعت يومئذ بعض قصص ألف ليلة وليلة ، ومنها قصة السندباد ، التي لقيت في الأدب القشتالي نجاحا خاصا . وفي الوقت الذي ذاعت فيه هذه التراجم القصصية ، ترجم الى القشتالية

من العربية أثر أدبي وأخلاقي عظيم ، هو كتاب « كليلة ودمنة » وأشرف على ترجمته الملك الفونسو العالم ، الذي شغف بالآداب العربية أيما شغف ، وترجمت في عهده آثار عربية علمية وأدبية كثيرة

تأثير القصص العربي

وكانت هذه التراجم القشتالية لآثار القصص العربي ، وسيلة قوية لذيوعها في فرنسا وايطاليا ، وباقي الأمم الغربية ، حيث ترجم الكثير منها الى اللاتينية وغيرها ، وكان لها أثرها في تطور الآداب الأوروبية في عصر الاحياء ومن بعده ، بل لقد ظهر أثرها واضحا في مؤلفات كثير من أقطاب عصر الاحياء ، مثل بوكاشيو وجيرالدي ، وسوتشر ، وجيشارديني ، وغيرهم ، حيث ظهر أثرها في خيالهم وفي أسلوبهم ظهورا قويا .

والى جانب هذا التأثير القصصي المحض ، كانت ثمة مؤثرات أخرى ، من طراز أرفع وأعمق ، يمتزج فيها الخيال بالناحية الفلسفية والأخلاقية ، فان النقد الحديث مثلا يؤكد أن دانتي شاعر ايطاليا الأكبر ، قد تأثر في كثير من كتاباته ، بتراث التفكير الاسلامي . ففي كتاب « الجحيم » يعرض دانتي من الفكر والآراء ما يمت بصلة قوية الى فكرة الاسراء الاسلامية ، والى بعض مؤلفات أبي العلاء المعري . وفي « الكوميديا الالهية » وفي « الحياة الجديدة » يوجد مايدل على أنه قد تأثر بآراء الفيلسوف الأندلسي المتصوف محيي الدين بن عربي . وقد وصلت هذه المؤثرات الى دانتي فيما يبدو عن طريق أستاذه Bruneto latini الذي كان ملما بالثقافة العربية ، أو عن طريق اطلاعه على بعض التراجم اللاتينية لآثار الأدب العربي

وهناك أثر عربي من نوع فريد كان له أثره القوي في الأدب الأوربي وذلك هو قصة ابن طفيل الفلسفية المسماة « حي بن يقظان » التي يصفها الاستاذ

سارتون بأنها كتاب من أشد كتب العصور الوسطى طرافة وأصالة . وهي قصة الانسان الأول ، يتلمس سبيله فريدا مستقلا الى الحياة والمعرفة ، عن طريق الالهام والحاسة ، يتخلل ذلك كثير من المعلومات العلمية القيمة .

وقد كتب ابن طفيل قصته في القرن الثاني عشر ، وترجمت الى العبرية منذ القرن الرابع عشر ، ثم نشرت مع ترجمة لاتينية في أواخر القرن السابع عشر ، وترجمت على أثر ذلك الى الانجليزية ، وكان لها تأثير ديني وفلسفي وتربوي عميق ، في أدب القرن الثامن عشر .

وكان من أشد الآثار الأدبية التي ظهرت في هذا العصر تأثرا بها ، قصة دانيل ديفوي « روبنصن كروزو » التي ظهرت في سنة ١٧١٩م ، بعد ظهور التراجم اللاتينية والانجليزية لقصة حي بن يقظان بنحو ثلاثين عاما .

وتأثير الشعر العربي

وقد كان للشعر العربي كما كان للنثر أثره العميق في الأدب الأوربي . وينطبق ذلك بنوع خاص على الملاحم الشعرية وشعر الفروسية . وقد تسرب هذا الأثر بنوع خاص من اسبانيا المسلمة ، الى الأدب القشتالي ، وانتقل بواسطته الى جنوب فرنسا وايطاليا . ويمتاز الشعر الأندلسي برقته وروعة خياله وتنوع مناحيه وأوزانه .وقد ظهر هذا التأثير بنوع خاص في الملاحم الشعرية القشتالية لاسيما فيما كتب عن السيد الكنبيطور وهو الذي اشتق لقبه **Eicid** من كلمة « السيد » العربية . وكذلك كان للملاحم الموريسكية ، التي تصور الأذواق والعادات الأندلسية ، أثرها في الأدب القشتالي حتى القرن السابع عشر ، بل يرى بعض الباحثين أن ثرفانتس أعظم كتاب اسبانيا ، قد تأثر بأساليب الملاحم العربية ، وتقاليد الفروسية الاسلامية في قصته الخالدة « دون كيخوت » .

والى جانب تأثير الملاحم العربية في الأدب القشتالي ، كانت تقاليد الفروسية الاسلامية تحدث أثرها العميق في تقاليد الفروسية الأوروبية ، فقد نقلت فروسية اسبانياالنصرانية من جارتها اسبانيا المسلمة ، كثيرا من تقاليد الفروسية الأندلسية ثم انتقلت منها الى مختلف بيئات الفروسية الاوروبية وكانت الفروسية الاندلسية بتقاليدها النبيلة ، ومظاهرها الرائعة ، مثار الاعجاب والاجلال في مجتمعات العصور الوسطى ، وكانت بذلك تحدث أثرها في قصص الفروسية الأوربي .

أثر الموشحات والزجل

بيد أن أثر الشعر الأندلسي في الأدب الغربي يبدو أعمق وأشد وضوحا في ميدان الشعر الغنائي . فان الموشحات الأندلسية ، التي ابتكرها وبرع في نظمها شعراء اسبانيا المسلمة قد أثرت بأوزانها المبتكرة ذات القوافي الخاصة ، في الشعر القشتالي وأوزانه ، وتسرب هذا الأثر الى الشعر البروفنسي في جنوب فرنسا .

وكذلك كان للزجل الأندلسي ، الذي وصل الى ذروة افتتانه ، على يد ابن قزمان المتوفى سنة ١١٦٠م ، والذي كانت تتمثل فيه تقاليد الأندلس الأدبية أبدع تمثيل ، أثره البعيد في الشعر الغنائي القشتالي والأوربي . وكان هذا الزجل يمتاز بنوع خاص بلونه الغنائي الأخاذ ، ونزعته الشعبية المحببة . وكانت الأزجال الأندلسية ، تغنى على ضفاف الوادي الكبير ، الفاصل بين الأندلس واسبانيا النصرانية . وكانت أنغامها تترد في الجانب الآخر ، وتحدث أثرها في توجيه الأساليب الشعرية والغنائية ، وتسربت هذه الآثار كلها عن طريق اسبانيا النصرانية الى جنوب فرنسا ، والى شمالي ايطاليا ، حيث ظهرت قوية في نوع جديد من الشعر ، يمتاز بلونه الغنائي ونزعته الدنيوية اللادينية ، التي تتجه نحو أقاصيص الحب ونوازعه . وكان أبطال هذا النوع الجديد من الشعر ، طائفة

التروبادور التي ازدهرت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، في اسبانيا وفرنسا وايطاليا ، واستمر تأثير هذه النزعة الغنائية في الشعر الأوربي ، فظلت قوية تتردد حتى القرن السابع عشر ،وتسربت آثارها الى الشمال وظهرت في انجلترا واسكتلندا . وقد كشفت دراسات المستشرقين لأغاني ابن قزمان ، عن تتبع آثارها الكثيرة في الشعر الغنائي الأوربي .

ترجمة ألف ليلة وليلة

ونلاحظ أنه لم يترجم من قصص ألف ليلة وليلة في العصور الوسطى سوى القليل ، وكان لهذا القليل ، الذي ترجم معظمه الى القشتالية واللاتينية ، أثره في ميدان القصص الأوربي . ثم ظهرت الترجمة الكاملة لألف ليلة وليلة لأول مرة في أوائل القرن الثامن عشر . ظهرت أولا باللغة الفرنسية ، ثم بسائر اللغات الأوربية ، فكان ظهورها حادثا أدبيا عظيما . وسرعان ما ظهر أثرها في مؤلفات كثير من كتاب القصص الأوربي ، ولا سيما كتاب القصص الخرافية مثل الأخوين « جريم » و« هوفمان » و« هانس اندرسن » وغيرهم .

وقد كان الفن الاسلامي في بدايته ، يعتمد على الاقتباس من تراث الحضارات التي ورثتها الدولة الاسلامية ، في البلاد المفتوحة ، مثل الحضارتين الفارسية والبيزنطية ، والحضارة القوطية في الغرب . ولكن ما كاد يأتي القرن الثالث من الهجرة ، حتى أخذ الفن الاسلامي يستكمل شخصيته المستقلة ، ويبدو في صوره المبتكرة الأخاذة وكان فن العمارة والزخارف يومئذ أبرز ما فيه من الصور الحية القوية ، فكانت القصور والمساجد في المدن الاسلامية تبدو نماذج فنية بديعة .

وظهر تأثير الفن الاسلامي في مدنية الغرب ، بنوع خاص ، في صقلية وشبه الجزيرة الاسبانية ، حيث كانت الحضارة الاسلامية تعيش هناك على مقربة

من أمم غربية نصرانية . فمن صقلية تسربت مؤثرات الفن الاسلامي الى ايطاليا ، ومن الأندلس تسربت مؤثراته الى قشتالة ، ومنها الى جنوب فرنسا .

أثر العمارة الاسلامية

وقد كان أثر العمارة الإسلامية ، أشد ما يكون داخل شبه الجزيرة الاسبانية ، فكانت القصور الملكية الاسبانية ، نماذج من القصور الأندلسية ، وكانت خطط المساكن في معظم المدن القشتالية ، تغلب عليها خطة المنزل الأندلسي ، بل لقد ظهر هذا الأثر في الكنائس ذاتها ، ففي كثير من الكنائس الاسبانية والبرتغالية الأثرية ، ترى خطة المسجد ظاهرة في عقودها وأروقتها ، وقد أقيمت أبراج كثير من الكنائس الشهيرة على نمط المنارة الاسلامية ، واتخذت منارة « الخيرالدا » الشهيرة باشبيلية نموذجا لكثير من الأبراج الكنسية في جنوب اسبانيا . ولما تضاءلت رقعة اسبانيا المسلمة لبث المدجنون عصورا ، ينقلون الفن الاسلامي الى صروح اسبانيا النصرانية . وما زال قصر اشبيلية الرائع ، الذي بنى على الطراز الأندلسي ، شاهدا خالدا على براعة هذا الفن وعلى عمق تأثير الفن الاسلامي .

وتطور فن الزخرف الاسلامي حتى بلغ الذروة ، سواء في الشرق أو الأندلس ، واتسع نطاقه حتى شمل كثيرا من التحف والمصنوعات اليدوية الدقيقة . وما زال أثر ذلك باقيا في بعض المدن الأسبانية ، التي كانت من قبل قواعد أندلسية زاهرة ، مثل طليطلة التي تشتهر بصناعة الأسلحة المزخرفة ، وقرطبة التي تشتهر بصناعة الجلود المزخرفة ، وغرناطة التي تشتهر بصناعة الدانتلا الفاخرة ، وهذه كلها متأثرة بجمال الزخرف الاسلامي أعظم تأثير .

وكان تأثير الفن الاسلامي قويا في ايطاليا في العصور الوسطى ، حيث لبثت حضارة الاسلام قائمة عصرا في صقلية ، وقد ظهر هذا الأثر بالأخص ،

منذ القرن الثاني عشر ، في شمالي ايطاليا ، حيث عمد الفنانون الايطاليون ، الى اقتباس النماذج والزخارف الاسلامية ، في كثير من التحف ، مثل الأغطية المحفورة ، والصناديق العاجية ، المزخرفة ، وفي نقوش السجاجيد والأقمشة ، وفي طراز الأثاث وزخرفه . وكان ذلك أشد ظهورا في أعمال المدرسة التوسكانية ، التي ازدهرت في القرن الخامس عشر .

والموسيقا

وقد كانت الموسيقا من الفنون التي عنى بها المسلمون وكان لها أيضا أثرها في الموسيقا الغربية في العصور الوسطى . وكان الكندي والفارابي أقدم من كتب بالعربية عن الموسيقا ، وقد ترجمت كتبهما الى اللاتينية . ومنذ القرن الحادي عشر ، يبدو أثر الموسيقا الشرقية واضحا في الكتابات الموسيقية اللاتينية . وفضلا عن الكتابة ، فقد كانت الطرائق والمعارف الموسيقية ، تنقل الى الغرب عن طريق السماع ، والاتصال الشخصي . وينطبق ذلك بنوع خاص على اسبانيا المسلمة ، حيث ازدهرت بها الموسيقا وتنوعت طرائقها ، ولا سيما منذ مقدم زرياب المغني والموسيقار الكبير ، من المشرق الى اسبانيا .

وظهر هذا الأثر بوضوح في تطور الموسيقا والغناء في قشتالة وغيرها من انحاء اسبانيا النصرانية ، وما يزال هذا الأثر ملحوظا الى يومنا ، حيث تبدو النزعة الشرقية الى حد ما في الموسيقا والأغاني الاسبانية .

وقد كان للفنانين المسلمين في نفس الوقت ، فضل كبير ، في تطور الآلات الموسيقية المختلفة وتطور أشكالها وتراكيبها .

وفي ميدان الزراعة

أما في ميدان الزراعة ، فقد ساهمت المدنية الاسلامية بقسط وافر . وقد برع المسلمون في فنون الزراعة سواء في المشرق أو المغرب ، واستحالت وديان

الأنهار العظيمة مثل الفرات والنيل والوادى الكبير ، على أيديهم الى مروج يانعة . وظهرت هذه البراعة بخاصة في اسبانيا المسلمة ، حيث كان نبوغ مسلمى الأندلس في الزراعة وتنظيم خطط الرى والصرف ، واصلاح الأراضي ، واستنبات المحاصيل ، من أهم عناصر تفوقهم الحضارى . وكانت بسائط شبه الجزيرة الاسبانية في أيامهم رياضا نضرة . وكانت مزارعهم وحدائقهم مضرب الأمثال في الجودة والنماء .

وقد نقل العرب من المشرق الى اسبانيا ، كثيرا من الغراس والمحاصيل ، كالقطن والأرز وقصب السكر والزعفران والنخيل ، ونقل كثير من هذه المحاصيل الى جنوبي فرنسا وايطاليا . وكانت حقول القمح وغابات الزيتون وحدائق البرتقال والتوت والكروم ، من ابدع ما ترى العين في وديان الأندلس ومروجها النضرة . وأما نبوغ الأندلسيين في تنظيم وسائل الرى والصرف ، واستجلاب الماء ، وتوزيعه بالطرق الفنية ، فما زالت تشهد به آثارهم الباقية الى الآن ، في كثير من المناطق الاسبانية ، حيث ما زالت طرق الري والصرف العربية تؤدي وظيفتها .

وفي ميدان الصناعة

وقد تركت المدنية الاسلامية في ميدان الصناعة أثرها العميق . وكان للمسلمين فضل في ابتكار بعض الصناعات الهامة أو تحسينها . وكانت صناعة الورق في مقدمة هذه الصناعات حيث نقلها العرب من الصين منذ القرن الحادي عشر الميلادي ، وبرع فيها مسلموالأندلس وأنشأوا لها المصانع العظيمة ولا سيما في شاطبة وطليطلة ، ونقلها عنهم الاسبان ، ثم انتقلت الى أوربا عن طريق فرنسا وذاعت فيها منذ القرن الثالث عشر .

وقد طبق المسلمون تفوقهم في الكيمياء في ميدان الصناعة ، فبرعوا في

صنع الأدوية والعقاقير ، واستخراج العطور ، وتركيب الأصباغ المختلفة ، ولا سيما اللون الذهبي .

وكذلك ازدهرت صناعة المنسوجات ، ولا سيما الصوف والحرير على يد المسلمين ، واشتهرت دمشق ودمياط في المشرق ، ومالقة والمرية في الغرب ، بمنتجاتها الصوفية والحريرية الممتازة طوال العصور الوسطى . وانتقلت صناعة الحرير من الأندلس الى ايطاليا ، التي اشتهرت بصناعة الحرير في تلك العصور ، وما زالت تحتفظ بتفوقها فيها حتى الآن .

وبرع المسلمون ولا سيما الأندلسيون في صناعة الأسلحة ، وكانت الأسلحة الأندلسية من أنفس ما يقتنى ، وما زالت مدينة طليطلة تحتفظ ببقية من تفوقها القديم في هذه الصناعة ، منذ أيام المسلمين

وكذلك نبغ مسلمو الأندلس في كثير من الصناعات الدقيقة ، مثل المنتجات الجلدية الفاخرة التي ما زالت قرطبة تحتفظ حتى اليوم ببقية منها ، ومثل صناعة الآنية الخزفية الملونة والقيشاني الفاخر ، وهي صناعة ما زالت تزدهر الى اليوم في اشبيلية ومالقة . وقد لبث الموريسكيون منذ سقوط الأندلس ، زهاء قرن يحتفظون بتراث آبائهم في الفنون والصناعات ، وهو تراث تلقت أسبانيا منه الكثير ، وما زالت المتاحف الاسبانية تغص بكثير من التحف والأواني الفخمة ، من صنع مسلمي الأندلس في مختلف العصور .

مساهمات كثيرة

هذه اللمحات العابرة عن مساهمة المدنية الاسلامية في مدنية الغرب تقدم إلينا فكرة عن الدور العظيم الذي قامت به المدنية الاسلامية في هذا الميدان . ولقد حجبت عصور التأخر والانحطاط التي توالت على العالم الاسلامي

والعربي ، ولا سيما منذ بسط الترك العثمانيون سيادتهم بالنار والسيف على كثير من البلاد الاسلامية التي كانت تتمتع بمدنيات زاهرة : حجبت هذه الحقيقة التاريخية الناصعة ، وغلبت نزعة التحامل والنكران ، على معظم البحوث الأوروبية التي تناولت هذه الناحية . ولكن البحث العلمي المنزه لم يعدم أنصاره وحججه . ومنذ القرن التاسع عشر الى يومنا تلقى الأضواء تباعا على حقيقة هذه الجهود الحضارية العظيمة ، التي ساهمت بها العلوم والفنون الاسلامية العربية في ميدان الحضارة الانسانية .

ونحن الآن في عصر العلم والمعجزات العلمية ، فاذا كنا نتحدث عن تراث المدنية الاسلامية ، وما ينطوي عليه من مجهودات علمية وحضارية عظيمة ، فليس ذلك لاستعراض مفاخر الماضي وأمجاده ، وان كان ذلك مما يحسن الوقوف عليه ، واستيعابه دائما ، ولكن لنقرر قبل كل شيء ، أنه ليس من المستحيل أن ينعكس الماضي على مرآة الحاضر ، وأن الأمم العربية والاسلامية ، التي ساهمت جميعا في بناء هذا الصرح الحضاري الشامخ ، يجب عليها ألا تدخر وسعا في أن تساير ركب الحضارة الحالي ، وأن تنزل الى ميدان البحوث العلمية الدقيقة ، لكي تستدرك ما فاتها من ضروب التقدم العلمي والحضاري ، مدى عصور طويلة .



نفائس المكتبة العربية في الاسكوريال

تحتفظ مكتبة دير الاسكوريال الملكية بأسبانيا بمجموعة ثمينة من الكتب العربية ، معظمها أندلسية ومغربية ، تبلغ نحو الألفى مخطوط . ويقوم بالاشراف على هذه المكتبة التالدة الآباء الأوغسطينيون .

وهذه المجموعة النفيسة من الكتب العربية قصة مشجية ، خلاصتها ان الكتب العربية بدأت تودع فى المكتبة الملكية بقصر الاسكوريال ، عقب سقوط آخر القواعد الاندلسية المسلمة فى اسبانيا النصرانية فى اواخر القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) . وجمع كميات كبيرة من المخطوطات العربية منها ، وكانت يومئذ تبلغ عدة آلاف . ثم وقع بعد ذلك حادث ترتبت عليه مضاعفة عدد المخطوطات العربية بمكتبة الاسكوريال ، هو استيلاء الاسطول الاسبانى على المكتبة الزيدانية المغربية فى عرض البحر ، وهى مكتبة السلطان مولاى زيدان ابن الملك أحمد المنصور .

وكان مولاى زيدان قد اضطر تحت ضغط الفتن واشتداد ساعد خصومه ، ان يغادر عاصمته مراكش ، وان يحمل معه امواله وذخائره ومكتبته

العربي العدد ٢٦٠ يوليو ـ تموز ١٩٨٠م .

الثمينة ، وكانت تحتوى على نحو ثلاثة أو اربعة آلاف من نفائس الكتب المغربية والاندلسية والمشرقية ، فى عدة من السفن استأجرها لكى تحمله مع ذخائره شمالا فى اتجاه ثغر أغادير ، وقد فاجأها الأسطول الاسبانى فى عرض البحر ، واستولى عليها ، وكان ذلك فى سنة ١٠٢١ هـ - ١٦١٢م . وحملت هذه المكتبة الثمينة غنيمة لتودع فى المكتبة الملكية بقصر الاسكوريال ، وارتفع بذلك عدد المخطوطات العربية فى المكتبة الملكية الى نحو عشرة آلاف مخطوط . وكانت اعظم واثمن مجموعة من نوعها ، اذ كانت تتألف من نخبة قيمة من الكتب المختارة ، سواء ما جمع منها من قواعد الاندلس المفتوحة ، وبالأخص غرناطة ، او ما كانت تحتويه المكتبة الزيدانية ، التى جمع معظمها باختيار السلطان الاديب العالم مولاى زيدان ، وكان من عشاق نفائس الكتب .

واستمرت هذه المجموعة النفيسة الضخمة من الكتب العربية بقصر الاسكوريال ، حتى وقع به الحريق الكبير فى سنة ١٦٧١ ، وامتد هذا الحريق المدمر الى المكتبة فأتى على معظم الكتب العربية . ولم يبق من هذه المجموعة العظيمة ، سوى نحو الفى مخطوط ، هى التى ما زالت تثوى الى اليوم بدير الاسكوريال .

وما زالت هذه المجموعة العربية بالرغم مما نزل بها من النكبة الفادحة تجذب أنظار الباحثين فى المشرق والمغرب ، وما زالت تضم عددا كبيرا من الكتب النفيسة النادرة ، ومنها نحو مائة مخطوط من كتب المكتبة الزيدانية السابقة .

عمل جديد وأصيل

وقد لبثت مجموعة الاسكوريال العربية فى أقبية المكتبة الملكية بالاسكوريال عصورا ، محجوبة عن أعين الباحثين . حتى رأت الحكومة الاسبانية اخيرا ان تقوم باحصائها والتعريف بها بواسطة فهرس علمى جامع

يوضع لها ، فوقع اختيارها للقيام بهذه المهمة على عالم يجمع بين الثقافتين المشرقية والمغربية وهو الحبر المارونى السورى ميخائيل الغزيرى الذى يعرف فى البحوث الغربية باسم Casiri . وقد ولد الغزيرى فى منطقة طرابلس سنة ١٧٠١م ، ودرس العلوم الدينية واللغات الشرقية ثم تابع دراسته برومة حيث كان يحاضر فى العربية والسريانية والكلدانية وفى الفلسفة واللاهوت ، ويدرس اللغة اللاتينية فى نفس الوقت . فاستدعته الحكومة الاسبانية الى مدريد ، فى سنة ١٧٤٨م ، وعينته موظفا فى المكتبة الملكية بمدريد . ومديرا مساعدا لمكتبة الاسكوريال ، ثم انتخب عضوا فى اكاديمية التاريخ ، ومترجما للملك فى اللغات الشرقية . ثم عين مديرا لمكتبة الاسكوريال . وعهدت اليه الحكومة الاسبانية منذ البداية بالمهمة الرئيسية التى دعته الى القيام بها ، وهى دراسة المجموعة العربية بالاسكوريال والتعريف بها . ونزل الغزيرى بقصر الاسكوريال فى سنة ١٧٤٩م ، ولبث مقيما به حتى سنة ١٧٥٣م ، وفى تلك الفترة التى امتدت زهاء خمسة اعوام ، لبث الغزيرى عاكفا على اداء مهمته فى دراسة المجموعة العربية . وقد قام خلالها بفحص المخطوطات المختلفة ، وتقييد الشذور التى رأى ان ينقلها منها ، والملاحظات التى رأى تسجيلها ثم عاد الى مقر اقامته بمدريد فى اواخر سنة ١٧٥٣م ، وبدأ فى اعداد فهرسه ، معتمدا على نفسه ، وعلى المواد والشذور التى جمعها والمعلومات الفياضة التى قيدها .

وكانت قد عملت لمجموعة الاسكوريال العربية قبل الغزيرى ، فى اواخر القرن السادس عشر واواسط القرن السابع عشر قوائم وفهارس موجزة . ولكن الغزيرى لم يعر هذه الفهارس اهتماما لضآلتها وخلوها من اية مميزات علمية او نقدية وعول على ان يقوم بعمل جديد اصيل لم يسبقه اليه أحد .

وقضى الغزيرى زهاء عشرة اعوام فى دراسة المجموعة الاسكوريالية واتبع فى وضع فهرسه قاعدة التركيز وهى تدور حول المواد والتحليلات ،

وجرى على اسلوب الاقتباسات الموجزة والمطولة فى ابراز قيمة المخطوطات ذات الاهمية الخاصة ، وترجمة هـذه الاقتباسات الى اللاتينية .

وأصدد الغزيرى فى سنة ١٧٦٠ الجزء الاول من فهرسه اللاتينى الشهير بعنوان « المكتبة العربية الاسبـانية فى الاسكـوريال » عمـل وشرح ميخـائيل الغزيرى السورى المارونى البرسبتيرى مدير المكتبة ، الدكتور فى اللاهوت ، وخبير اللغات الشرقية تحت رعاية الملك كارلوس الثالث ، العظيم القادر .

ويقسم الغزيرى فهرسه الى فنون عديدة . واول اقسام الجزء الاول هو النحو وأول كتب هذا القسم الذى يحمل رقم ١ من الفهرس هو كتاب « أصول النحو » لابى بشر بن عثمان بن قنبر الشهير بسيبويه . وهو يقوم بوصف الكتاب ومحتوياته باللغة اللاتينية ، ويكتب اسمه واسم مؤلفه فى اسفل الصفحة باللغة العربية . وهو بهـذه المناسبة ينقل فى ذيل الصفحة نبذة عربية عن نشأة النحو لشمس الدين الانصارى . وهو يقسم كل كتاب فى قسم بحسب حجمه من الربع او الثمن . ويضم فن النحو بمختلف احجامه نحو مائتى مخطوط وينتهى بالرقم cci (١٩٠) . ويأتى بعد النحو الفن الثانى وهـو فن البلاغـة وينتهى بالرقم cclix (٢٥٩) ثم يليه فن الشعر ويبدأ من الرقم ٢٦٠ وينقل خلاله نبذا عديدة ، ويتحدث فى الشروح ، كما ينقل العديد من المقطوعات الشعرية التى ترد فى مختلف المخطوطات .

مخطوطات نادرة

ويأتى بعد الشعر قسم الكتب اللغوية على اختلافها ويحتوى على ٣٠٧ مخطوطات وينتهى بالرقم Dlxv (٥١٥) . وينقل الغزيرى من مخطوطاته نبذا مختلفة . ويليه قسم المعاجم ويبدأ من الرقم ٥٦٦ وينتهى بالرقم ٦٠٨ محتويا على اثنين واربعين مخطوطا . ويليه قسم الفلسفة ويحتوى على مائة وستة وخمسين مخطوطا . وينقـل فيه الغـزيرى نبـذا بالعـربية عن فخـر الدين بن الخـطيب

الرازى ، وعن الفاراب وكتبه وعن فرفوريوس الصورى ، ويليه قسم الاخلاق والسياسة محتويا على ثمانية وسبعين مخطوطا ، وبه نبذ عربية وحكم وامثال . ويأتى بعده قسم الطب ويحتوى على مائة وستة مخطوطات ، وفيه ينقل الينا الغزيرى نبذا عديدة عن أبقراط وكتبه ، وعن محتويات كتاب جالن ترجمة حنين بن اسحق ، وعن الاسكندر الافروديسى وعلاقته بجالن ، ونبذا طويلة عن جالن وكتبه ، ونبذا مطولة عن أبى بكر الرازى وعن حياته وكتبه ، كما ينقل الينا نبذا كثيرة عن ابن سينا وكتبه ونبذة عن ابن البيطار الاندلسى وكتبه فى الادوية ، ثم عن موسى بن ميمون وكتبه وعن افلاطون وتلاميذه ، وعن أرسطوطاليس وكتبه . ويعتبر هذا القسم اغنى الاقسام بالنبذ المنقولة عن كتبه ، وينقل الغزيرى ترجمة هذه النبذ كلها باللاتينية فى اعلى الصفحات فوق النبذ المختارة .

ويلى قسم الطب ، قسم التاريخ الطبيعى ، وبه تسعة مخطوطات فقط ويليه قسم الرياضيات محتويا على تسعة وسبعين مخطوطا . وفى هذا القسم يتوسع الغزيرى فى ايراد الشذور المختارة توسعا كبيرا فينقل الينا نبذا كثيرة عن اقليدس ، وعن الرياضيين اليونانيين،ونبذة عن بطليموس الفلوذى صاحب كتاب « المجسطى » وعن كتابه ، ونبذا عن ابى معشر البلخى ، ونبذة كبيرة فى اربع صفحات عن الكندى ، وكتبه وعن مسلمة المجريطي الفلكى والرياضى الاندلسى المتوفى سنة ٣٩٨هـ ثم عن ارشميدس الرياضى ومصنفاته ، وعن ثابت بن قرة الحرانى ومصنفاته وعن الزرقالى الاندلسى ، ابراهيم بن يحيى النقاش القرطبى ابرع اهل زمانه فى رصد الكواكب وعن كتبه ، وعن ابن وافد الاندلسى استاذ علم الادوية المفردة ، وعن الحسن بن الحسن بن الهيثم المهندس البصرى ، نزيل مصر ، المتوفى سنة٥٣٠هـ ، وعن عمر بن الكرمانى القرطبي الرياضى البارع فى علم العدد والهندسة وهو الذى حمل خلال رحلته الى المشرق كتاب « اخوان الصفا » الى الاندلس وعن ابى مسلم الحضرمى الاشبيلى الفلكى

والمهندس والطبيب المتوفى سنة ٤٥٨هـ وعن ابن جلجل ، سليمان ابن حسان الاندلسى استاذ الطب والهندسة ، ثم عن سنان ابن ثابت بن قرة نبذة مطولة ، واخيرا عن شمول بن يهود الاندلسى الحكيم البارع فى الرياضة والطب والهندسة ، وقد توفى بالمشرق حوالى سنة سبعين وخمسمائة ويلى هذا القسم قسم الرياضيات الغنى بالشذور والبحوث المختارة من كتبه العديدة المهمة ، ثم قسم الفقه ، ويحتوى على مائتين واربعة وستين مخطوطا . ويليه علم الكلام (اللاهوت) ويحتوى على مائة وستة وثمانين مخطوطا ، ثم علم العقائد ويحتوى على مائة وتسعة وثلاثين مخطوطا .

ثم الكتب النصرانية ويحتوى على ثمانية مخطوطات . وبهذا ينتهى المجلد الاول من فهرس الغزيرى .

العجائب والغرائب !

ومضت بعد ذلك عشرة اعوام اخرى ، قبل ان يستطيع الغزيرى اصدار المجلد الثانى من فهرسه . وقد صدر فى سنة ١٧٧٠م باللاتينية وبنفس العنوان : « المكتبة العربية الاسبانية فى الاسكوريال » وهو يفتتحه بقسم الجغرافية ، مبتدئا من الرقم MDCXXIX (١٦٢٩) ومحتويا على سبعة مخطوطات فقط . وهو يبدأ بكتاب « العجايب والغرايب » لمؤلفه سراج الدين بن عمر الوردى ، وينقل منه شذورا فى ذكر مدن مصر ، وبعض مدن المغرب ، وينقل من كتاب آخر فصلا طويلا عن الكعبة ثم يليه قسم التاريخ محتويا على مائة وتسعة وسبعين مخطوطا منتهيا بالرقم MDCCCXV (١٨١٥) وأوله تاريخ ابى الفدا وهنا يتقدم الغزيرى بذكر عناوين نحو عشرين كتابا من امهات كتب التاريخ المشرقية والاندلسية ، وينقل منها نبذا عديدة خاصة بتواريخ الامم السالفة من عرب وفرس ويونان وقبط ، ومن الكتب المذكورة تاريخ العواصم والقواصم « لابن العربى الاندلسى الاشبيلى ، وكتاب ابن المنذر البلنسى فى الرباط وفضله فى

الجهاد ، وما خصت به من ذلك جزيرة الاندلس . وهو يتوسع فى النقل بصفة خاصة من كتاب « اللمحة البدرية فى الدولة النصرية » لابن الخطيب السلمانى ، فينقل منه فصولا عديدة عن تاريخ مملكة غرناطة فى ظل ملوك بنى نصر (بنى الاحمر) . وينقل شذورا من كتاب القاضى عياض « مشارق الأنوار على صحيح الآثار » وشذورا عديدة اخرى من مختلف المصادر عن الخلفاء الراشدين وبنى امية ثم بنى العباس وعن ملوك بنى الاغلب . والخلفاء العبيديين بافريقية ومصر ، ثم عن بنى امية بالاندلس وعن دول الطوائف ، ثم عن الموحدين وعن بنى مرين ملوك المغرب ، وعن بنى زيان ملوك تلمسان . ثم ينقل الينا نبذة عن الرازى مؤرخ الاندلس وعن كتبه كما ينقل الينا بعض شذور من كتاب « تاريخ غرناطة » او بعبارة اخرى « الاحاطة » لابن الخطيب . ويتخلل هذه الفصول المنقولة من مخطوطات قسم التاريخ ، بعض الوثائق التاريخية الهامة مثل كتاب « أمان عبد الرحمن الداخل » للبطاركة والرهبان والاعيان النصارى الاندلسيين اهل قشتالة الصادر فى صفر سنة ١٤٢هـ . وتؤلف هذه الفصول مرجعا تاريخيا هاما ، يستعين بالافادة منه من لم يسعفه وقته للبحث فى المخطوطات الاصلية ، مما يستغرق الوقت الكثير .

وبعد قسم التاريخ يستعرض الغزيرى طائفة منوعة من المخطوطات المختلفة المواضيع والصفات مما لم يدخل من قبل فى الأقسام التى سبق ذكرها . ويصل بتعداد هذه المخطوطات المنوعة الى الرقم MDCCCLI (١٨٥١) ثم يلى ذلك كشف عام بالأعلام والكتب يستغرق نحو نصف المجلد الثانى .

وقد كان صدور فهرس المكتبة العربية الاسبانية فى الاسكوريال فتحا جديدا فى ميدان البحوث الاندلسية ، اتجهت اليه انظار الباحثين ، وألفوا بما يعرضه من المراجع والوثائق العديدة كنوزا من الحقائق والمعلومات التى لم يسبق أن ظفروا بها عن تاريخ اسبانيا المسلمة وحضارتها وعلومها وفنونها . فقد كان الغرب حتى اواخر القرن الثانى عشر لا يعرف من تاريخ اسبانيا المسلمة سوى ما تعرضه الروايات النصرانية من شذور مغرضة ، وكانت مئات الحقائق تغمرها

حجب التعصب والتحامل والكذب ، فجاءت وثائق الاسكوريال تبدد هـذه الحجب ، وتقدم الأدلة القاطعة على عظمة هذه الصفحة من تاريخ اسبانيا ، وتعرض لنا مئات الحقائق عن تفوق الحضارة الاندلسية .

جهود أخرى

وظهرت كتب عديدة جديدة فى هذا الموضوع تستقى كثيرا من مادتها من المراجع المخطوطة التى كشف عنها فهرس الغـزيرى وفى مقدمتها مؤلفـات اندريس وماسدى وكوندى ودوزى وغيرهم . ولبث معجم الغزيرى اكثر من قرن مرجعا فريدا للمجموعة العربيـة الاسبانيـة فى الاسكوريـال ، حتى قام المستشرق الفرنسى هـارتفج ديـرنبور بتكليف من وزارة المعـارف الفرنسية بدراسة جديدة لمحتويات هـذه المجموعة ، فأنفق فى هـذه المهمة اعواما واخرج فى ١٨٨٤م اول جزء من معجمه (المخطوطات العـربية بـالاسكوريـال) . وبالرغم من أنه يبدي في مقدمته ريبة في قيمة مجهود سلفه والى تبيان طائفة من اخطائه فانه لم ير مع ذلك بدا من اتباع طريقته في التنظيم والتبويب والترقيم مع تغيير يسير .

وقد عثر ديرنبور في زوايا الاسكوريال على نحو مائة مخطوط عربي اخرى لم يذكرها الغزيرى ، كما انه لم يعثر على بعض مخطوطات ذكرها . وقد اختفى فى الواقع كثير من آثار هـذه المجموعة خلال الأحقاب المتوالية . وانتهى ديرنبور فى تعداده الى الرقم ١٩٥٥ والغزيرى يقف حسبما اسلفنا عند الرقم ١٨٥١الذي يعادل ١٨٥٦ من ترقيم ديرنبور ، فهو يزيد على الغزيرى باكثر من مائة اثـر جديد عثر بها واستطاع ديرنبور ان ينجز فى فهرسه اقسام اللغة والبلاغة والشعر والادب والاخلاق والسياسة . ثم توفى سنة ١٩٠٥ وقام باتمام مهمته الاستاذان ليفى بروفنسال ورينو . وذلك من واقع المذكرات التى تركها ديرنبور . وبذلك اصبح للمجموعة العربية الاسبانية فى الاسكوريال فهرسان كاملان ، يرجع اليهما فى دراسة محتويات هـذه المجموعة النفيسة النادرة .

أندلسيات

الفهرس

الكتاب العشرون
١٥ يوليو ١٩٨٨

صدر من

كتاب العربي*

● الكتاب الأول

الحرية .... د . أحمد زكي (يناير ١٩٨٤)

● الكتاب الثاني

العلم في حياة الانسان .... د . عبدالحليم منتصر (أبريل ١٩٨٤)

● الكتاب الثالث

المجلات الثقافية والتحديات المعاصرة ...... (مجموعة كتاب) (يوليو ١٩٨٤)

● الكتاب الرابع

مراجعات حول :

العروبة والاسلام وأوروبا .... د . محمود السمرة (أكتوبر ١٩٨٤)

● الكتاب الخامس

العربي ومسيرة ربع قرن مع :

الحياة .. والناس .. والوحدة

في دول الخليج العربي .... (مجموعة كتاب) (نوفمبر ١٩٨٤)

● الكتاب السادس

طبائع البشر .. دراسات نفسية واجتماعية .... د . فاخر عاقل (يناير ١٩٨٥)

● الكتاب السابع

حوار .. لا مواجهة

دراسات حول الاسلام والعصر .... د . أحمد كمال أبو المجد (أبريل ١٩٨٥)

---

* تطلب من موزعي العربي

● الكتاب الثامن

آراء ودراسات في : الفكر القومي .... (مجموعة كتاب) (يوليو ١٩٨٥)

● الكتاب التاسع

أضواء على لغتنا السمحة .... محمد خليفة التونسي (أكتوبر ١٩٨٥)

● الكتاب العاشر

الكويت ربع قرن من الاستقلال .... (مجموعة كتاب) (يناير ١٩٨٦)

● الكتاب الحادي عشر

نظرات في الواقع الاقتصادي المعاصر .... د . حازم الببلاوي (أبريل ١٩٨٦)

● الكتاب الثاني عشر

السلوك الانساني .... الحقيقة والخيال د . فخري الدباغ (يوليو ١٩٨٦)

● الكتاب الثالث عشر

آراء حول قديم الشعر وجديده .... (مجموعة كتاب) (أكتوبر ١٩٨٦)

● الكتاب الرابع عشر

المسلمون والعصر .... (مجموعة كتاب) (يناير ١٩٨٧)

● الكتاب الخامس عشر

من أسرار الحياة والكون .... د . عبدالمحسن صالح (أبريل ١٩٨٧)

● الكتاب السادس عشر

دراسات حول الطب الوقائي .... (مجموعة كتاب) (يوليو ١٩٨٧)

● الكتاب السابع عشر

خطاب إلى العقل العربي .... د . فؤاد زكريا (أكتوبر ١٩٨٧)

● الكتاب الثامن عشر

المسرح العربي بين النقل والتأصيل .... (مجموعة كتاب) (يناير ١٩٨٨)

● الكتاب التاسع عشر

فلسطينيون من الاقتلاع إلى المقاومة .... (مجموعة كتاب) (أبريل ١٩٨٨)

● الكتاب العشرون

أندلسيات .... محمد عبدالله عنان (يوليو ١٩٨٨)



ان الكتابات الحديثة الموضوعية المنصفة قد بدأت تظهر ، سواء من قبل كتابنا العرب ، أو من قبل الكتاب الاسبان المحدثين .

هذه الموضوعية تنظر الى العصر الاسلامى فى اسبانيا على انه عصر تزاوج عظيم بين دين انسانى وحضارة كبرى . وبين شعوب كان لها تاريخ ، فتعزز هذا التاريخ وترسخ بهذا التزاوج العظيم .

وهذا الكتاب الذى نقدمه للقارى العربى ما هو إلا حصيلة ممتازة منتقاه لما كتبه متخصص فى هذا المجال .



مرآة العقل العربي